

مجلة كلية الآداب



المجلد التاسع

١٩٥٥

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاذلي ، وتوجه الكاتبات الخاصة بالنوعية العلمية إلى
الدكتور جمال الدين الشيال سكرتير التحرير

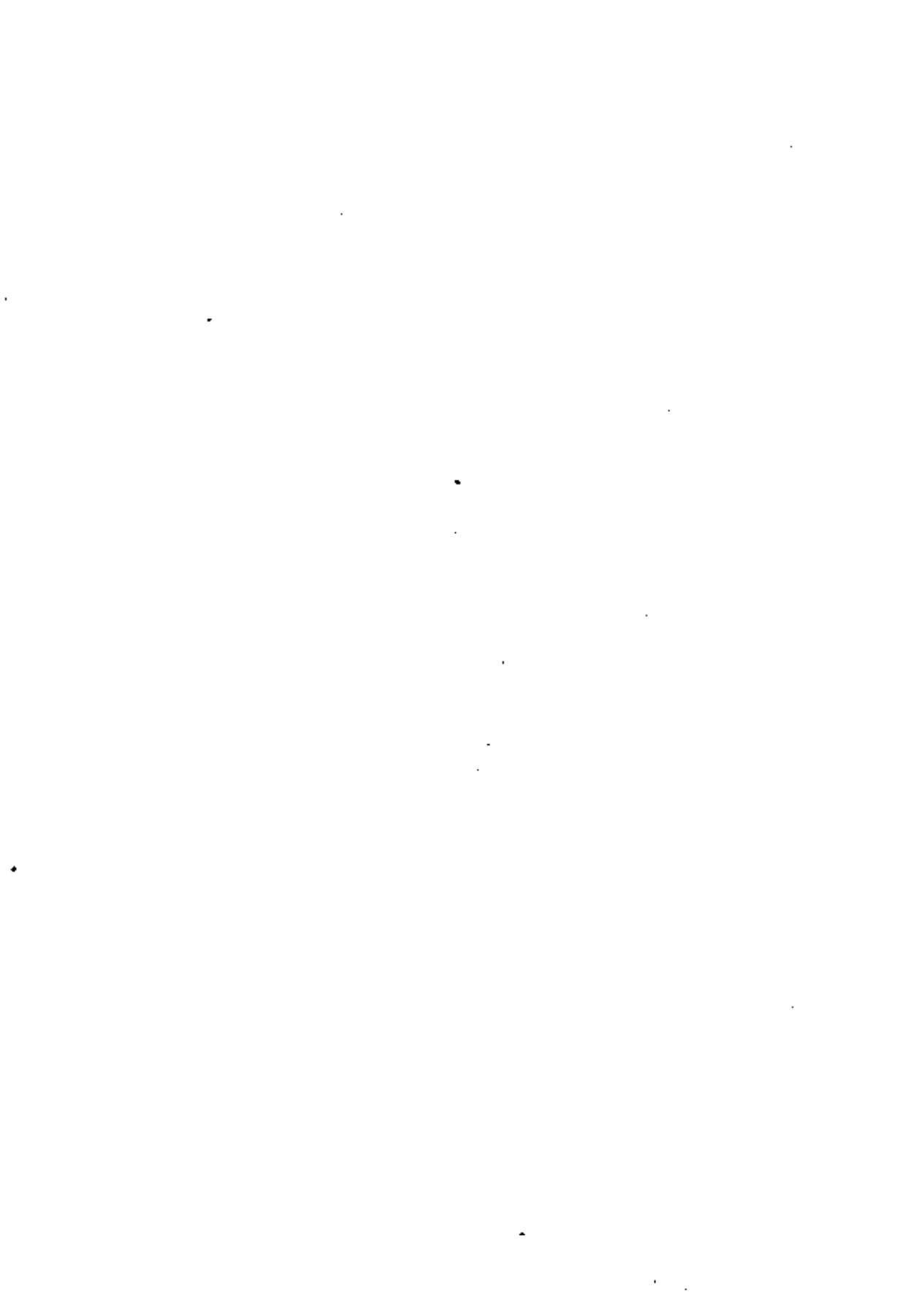
مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٥٦

فهرس القسم العربى

صفحة

- | | | |
|--|---|-----------------------------------|
| ١ - نظام التصرف المائى فى جنوب السودان وأثره على مشروعات الرى فى مصر | { | للدكتور محمد إبراهيم حسن . . ٣ |
| ٢ - شمال سيناء (مقدمة فى الجغرافيا التاريخية) | { | للدكتور محمد السيد غلاب . . ٢٣ |
| ٣ - التحليل فى التاريخ | | للدكتور محمد ثابت الفندى . . ٣٩ |
| ٤ - صراع المذاهب الياسية فى القرن العشرين | { | للدكتور محمد عبد المعز نصر . . ٥٧ |
| ٥ - دولة سلاطين المالك فى الهند (أوجه الشبه بينها وبين المالك فى مصر) | { | للدكتور أحمد مختار العبادى . . ٦٥ |
| ٦ - الشعر والفكر | | للدكتور إبراهيم صبرى . . . ٧٧ |
| ٧ - سيامة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (ثورة العير) | { | للدكتور محمد محمود السروجى ٩٣ |



تصویب

الط	الصفحة	الصواب	اللفظ
٢	٧٨	شكا	شكى
٢٧	٧٨	يفكروا	يفنكر
٢٧	٧٩	(٢)	(١)
٢٨	٧٩	(١)	(٢)
٢	٨٠	يارا تمش	يارا تمس
٢	٨٠	ييجون	ييجون
٨	٨٠	الاطمين	الاطمين
١٤	٨٠	الالحيات	الالحيات
١٨	٨١	ايمش	ايمس
٢٥	٨١	برمش	برمش
١٦	٨٢	وجودينك	وجودينك
١٧	٨٢	جانان	جانان
١٨	٨٢	برورده	برورده
١٩	٨٢	برواز	برواز
٢١	٨٢	كچير	كچير
٣	٨٣	اله	آله
١٤	٨٣	كوز له	كوزك
٢٢	٨٣	غدا	غدا
٢٤	٨٣	المكين	المكين
٢٤	٨٥	بما يظهر معه فرق	بما يظهر فرق
٢	٨٦	مبدأ	مبد
٤	٨٦	خواب خواب ايچنده	خواب ايچنده
٧	٨٦	اكرجه	كرجه
٧	٨٦	حقا تقدر	حقا تقدر

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
أنى	أنى	٨٦	٨
آكلامن	آكلامش	٨٦	١٠
فى أن نعرف	أن نعرف	٨٧	٧
بمجاهرة هذا رأى	بالمجاهرة بهذا رأى	٨٧	١٣
اللا أدوية تنهى	اللا أدوية التى تنهى إليها	٨٧	٢٥
فى العالم فكرة	فى العالم هي فكرة	٨٨	٢
آله	الله	٨٨	٢
يوجود	يوجوده	٨٨	٢
كريود	كريوه	٨٨	١١
كولونى جهره	كولونى جهره	٨٨	١٣
جشم	جشم	٨٨	١٤
وينير	دينير	٨٨	١٨
بايان	بايانى	٨٨	١٩
فاسلدر	فاسلدر	٨٨	٢٠
كوجوكللك	كوجوكللكك	٨٨	٢٦
باك	باك	٩٠	١٠
ما هو ذات الله	ما هو الله	٩٠	١٤
السفاني	السفاني	٩٠	١٨
ينست	نيست	٩٠	١٩
أنليس	أنيس	٩٠	٢٦
مكنى	مكنى	٩١	٦
جيفار	جيتار	٩١	٩
هيج	هيج	٩١	١١
ما هو ذاته	ما هي ذاته	٩١	١٨

نظام التصرف المائي في جنوب السودان

وأثره على مشروعات الري في مصر

للدكتور محمد إبراهيم حسن

يتمثل جنوب السودان في هذا المنخفض العظيم الذي يحاط تقريباً بخط كتور ٥٠٠ متراً فوق سطح البحر ، والذي تجرى إليه أنهار من جهات مختلفة : فيجري إليه بحر الحيل والزراف والغزال والسوبات وروافدها وبعض جداول من جبال النوبا (١) . ويتميز هذا الحوض المتسع بأن حافته المرتفعة تشغل حيزاً صغيراً بينما يشغل المنخفض معظم مساحة الحوض . ولذلك تبدو هذه الأنهار العديدة وهي قليلة السرعة كثرة الغدران والمتنقعات إذ أن أكثر مساحة الحوض، أقطار قسيحة ضعيفة الانحدار . وتتساب هذه الأنهار من الجوانب إلى قلب الحوض المنخفض الذي لا يزيد ارتفاع قاعه في المتوسط على ٤٠٠ متراً فوق سطح البحر .

وهذا الانخفاض الكبير هو إحدى مناطق الحبوط الحديثة في افريقية ، فهذه المنطقة كانت جزءاً من الهضبة الافريقية قبل أن تهبط ، ومما يقوى هذا الرأي أن التشابه تام في البنية بين الأقاليم التي جنوبها وإقليم جبال النوبا وكردفان (٢) .

ويغطي هذا الحوض طبقات رسوبية تفتتت من الصخور المتحولة التي تتكون منها الهضاب المجاورة . فتظهر التربة الطفلية الحمراء في القسم الجنوبي الغربي من هذا الحوض ، وتتميز هذه التربة بارتفاع نسبة أكاسيد الحديد بها .

(١) راجع خريطة "جنوب السودان" المرفقة بهذا البحث .

(٢) (١) محمد عوض محمد : نهر النيل ص ٧٧ - ٧٨ .

(ب) E. Krenkel : Geologie Afrikas, P: 132.

وتغطي باقى الحوض تربة رسوية فيضية ^(١) طينية من أهم صفاتها أنها تتكون من ذرات دقيقة وأنها شديدة التماسك كما أنها رديئة الصرف، وذلك لشدة ضعف الانحدار العام .

ونظراً لأن انحدار الحوض يبدو ضعيفاً للغاية كان بحر الجبل والغزال يسيلان في مجرى منخفض الجوانب بحيث لا يمكن لأيهما أن يحتوى مياه الفيضان ، فتفيض مياه النهر عن جانبيه وتنتشر المستنقعات ، وهذه نتيجة لازمة لتضاريس أحواض هذه الأنهار . وتكوين المستنقعات هنا ظاهرة سائدة ، فالأمطار يصعب تصريفها لامتواء الأرض في أجزاء كثيرة من هذا الحوض ، والأرض بطبيعتها لا تنتشر المياه بسهولة . وقد يتحتم أحياناً ردم طرق وسط المستنقعات حتى يتيسر الانتقال من جهة الى أخرى ، وكثيراً ما يقيم الأهالي حاجزاً يحول دون تسرب المياه الى قرأهم ومنازلهم .

وفي فصل الأمطار تتحول أقطار شاسعة الى مستنقعات . وبعضها من النوع الدائم كما هو الحال في الجزء الأدنى من بحر الجبل وبحر الغزال وهذه تسمى بالسدود وهى نتيجة مباشرة لحالة الاقليم من الناحيتين المناخية والنباتية ، والسد كتل من النبات تعترض مجرى النهر ، وفي بحر الغزال يبدو السد على شكل أعشاب تنمو في قاع النهر وتطفر أوراقها وأغصانها على وجه الماء . وأما سدود بحر الجبل فهى كتل ضخمة من النبات مندمج بعضها في بعض وقد يبلغ سمكها من خمسة الى سبعة أمتار وطولها قد يبلغ ميلاً وبعض ميل .

وتمثل منطقة السدود خاصة في الجزء الأدنى من بحر الجبل ابتداء من بلدة بور، ويظهر بحر الجبل هنا في مجرى واحد رئيسى وعدة مجار فرعية . وعلى جوانب هذه المجارى تمتد المستنقعات وترداد حجماً وعدداً في فصل الصيف بعد الأمطار، وتحمل هذه المستنقعات نباتات مختلفة من أهمها نبات البردى والبوص وأم الصوف ، وتبدو هذه النباتات متشابكة متضافرة على شكل كتل ضخمة تعوق جريان النهر في بعض الجهات .

MEDITERRANEAN SEA البحر الأبيض المتوسط

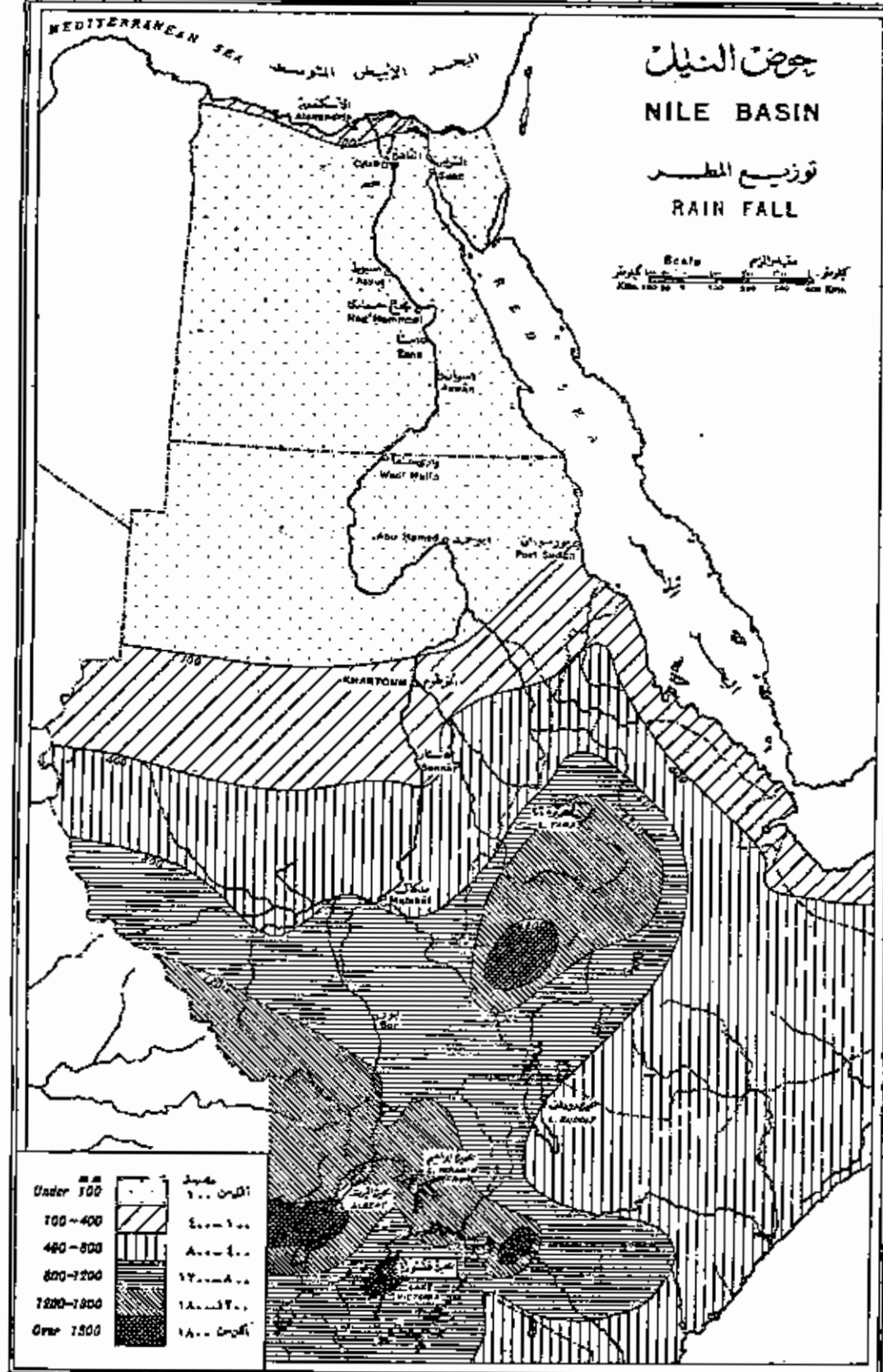
حوض النيل

NILE BASIN

توزيع المطر

RAIN FALL

Scale
Kilometers 0 100 200 300 400 500
Miles 0 100 200 300 400 500



mm	مليمتر
Under 100	أقل من ١٠٠
100-400	١٠٠-٤٠٠
400-800	٤٠٠-٨٠٠
800-1200	٨٠٠-١٢٠٠
1200-1800	١٢٠٠-١٨٠٠
Over 1800	أكثر من ١٨٠٠

وبقي النيل فيما وراء هذه المستنقعات والسدود سراً غامضاً قد أغلقت دونه الأبواب وذلك منذ أقدم العصور حتى أوائل القرن التاسع عشر حيث تعاقب المستكشفون بعضهم اثر بعض ، وعلى أثر المستكشفون جاء المبشرون والمستعمرون الى أعلى النيل . وهكذا انتشعت السحب وأسيط اللثام الذي ظل يحجب وجه النيل دهرأ طويلا ، ولم تلبث الحضارة بحاسنها وموارثها أن بسطت نفوذها على هذه الأقطار القاصية . وفي الوقت الحاضر بدأ الاهتمام بأمر تطهير النهر من السدود فلا تترك لتتراكم وتكون تلك العقبة الكؤود التي تعرقل الملاحة وتعطل المواصلات .

وأما من حيث نظام التصرف المائي لأنهار هذا الخوض الكبير فيوضحه الجدول الآتي ومن هذا الجدول تظهر الحقائق الجغرافية الهامة الآتية :

(أولاً) ان متوسط ما ينصب من بحيرة فكتوريا الى النيل هو ٥٦ مليوناً من الأمطار المكعبة في اليوم أو حوالي ٦١٢ متراً مكعباً في الثانية ، ويبدو أن هذا التصرف ضعيف اذا علمنا أن المساحة السطحية لماء البحيرة يزيد على ٦٦٠٠٠ كيلو متر مربع وأن منسوبها لا يتغير الا قليلا . ويرجع السبب في ذلك الى عظم ما تفقده البحيرة بالتبخر فقد ذهب ويلكوكس وكريغ أن نسبة ما تفقده البحيرة بالتبخر الى ما ينصرف منها الى نهر النيل هو بنسبة ٩ : ٢ (١) . وقد قدر هرست أن الكميات المختلفة من المياه المكسبة والمفقودة على أساس عمق الماء في البحيرة هي على النحو الآتي تقريباً (٢) :

(١) Willcocks, Craig : Egyptian Irrigation, vol. I, p. 241

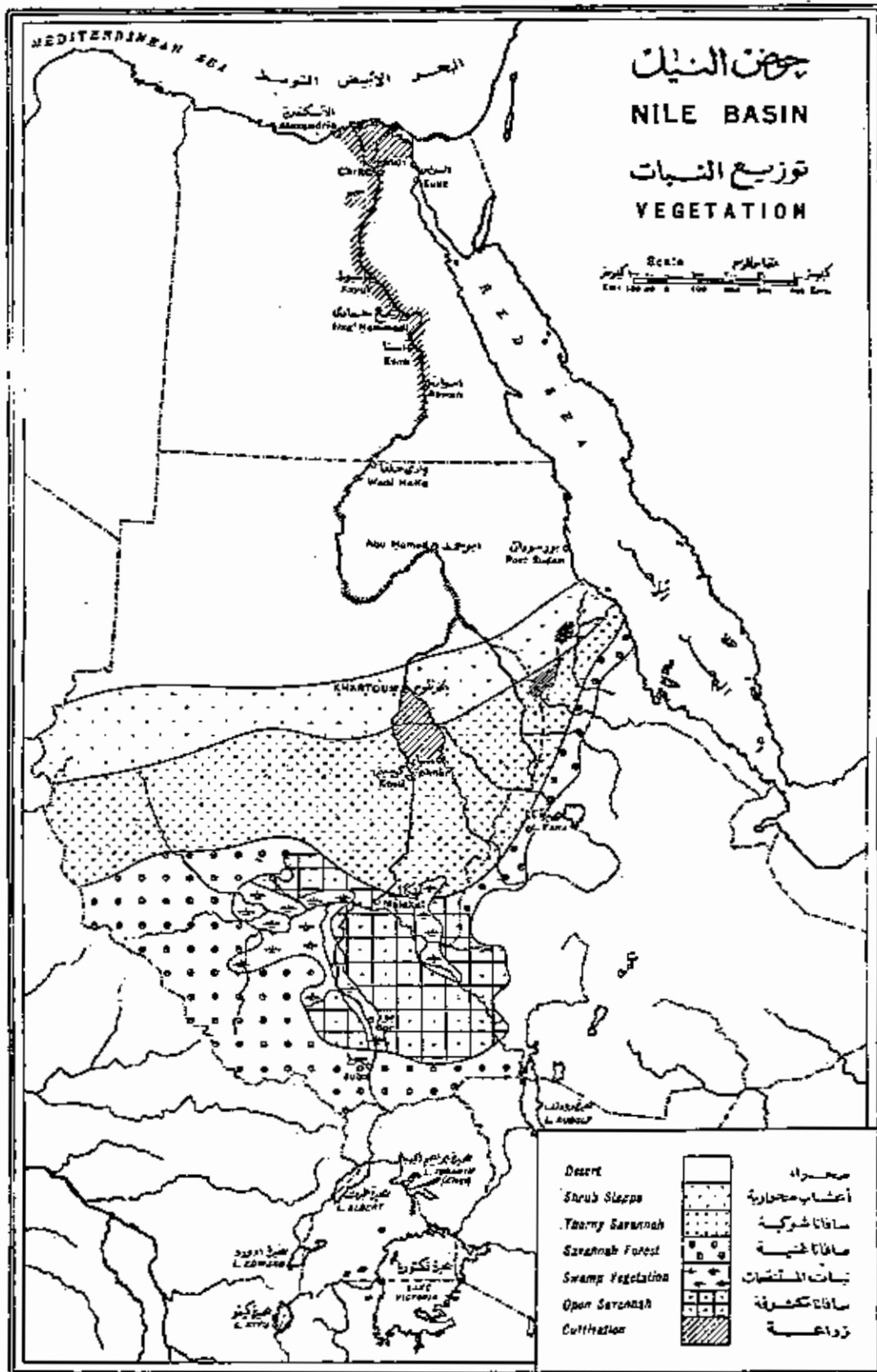
(٢) هرست : مرجع من حوض النيل - القاهرة ١٩٤٦ - ص ٥٥ (ترجمة محمد نظيم = وزارة الأشغال) .

حضرت المنيل

NILE BASIN

توزيع النسيجات

VEGETATION



من الأمطار	١٢٠	سنتيمتر	المكتب
من الأنهار التي تصب فيها	٣٠	سنتيمتر	
من التبخر	١٢٠	سنتيمتر	الفاقد
من تصرف نيل فكتوريا	٣٠	سنتيمتر	

ومن ذلك يتضح أن مشروع شق قناة في منطقة الدود يعتبر متمماً لمشروع التخزين في البحيرات الامتوائية ومكملاً له ، ولن يكون لأحدهما ميزة تذكر بغير الآخر لأن إنشاء خزانات البحيرات بدون القناة اجراء غير مثمر عملياً كما أن إنشاء القناة وحدها لا يفي بالغرض المنشود في السنين الشحيحة الايراد^(١).

وبعد الانتهاء من إنشاء خزان رئيسي للتخزين المستمر على بحيرة فكتوريا^(٢) عند شلالات أوين ، وخزان منظم للتخزين المستمر على بحيرة البرت وشق قناة جونجلي ، سوف يكون من الامكان تدبير حوالى خمسة مليارات في السنوات المتوسطة الايراد وثمانية مليارات لسد العجز في السنوات الشحيحة الايراد في مصر^(٣).

(ثانياً) يظهر من هذا الجدول بجلاء أن كل نصيب النيل الأبيض من مياه هذا الحوض الكبير لا يزيد على ٣٩ مليوناً من الأمتار المكعبة في اليوم ، وذلك يرجع الى عظم ما يفقد من المياه بالتبخر في منطقة المستنقعات التي تأخذ في الظهور الى الشمال من منجلا على جانبي بحر الجبل وروافده حتى بحيرة نو .

وتنقسم هذه المستنقعات الى قسمين وهما :

- (أ) المستنقعات الدائمة ومساحتها ٨٣٠٠ كيلومتراً مربعاً .
(ب) والمستنقعات المؤقتة ومساحتها ٦٢٠٠ كيلومتراً مربعاً فيكون المجموع ١٤٥٠٠ كيلومتراً مربعاً .

وتنقسم المستنقعات الدائمة الى ثلاثة أقسام وهي :

- (أ) المستنقعات الشرقية ومساحتها ٤٠٠٠
(ب) مستنقعات جزيرة الزراف ومساحتها ١٠٠٠
(ج) المستنقعات الغربية ومساحتها ٣٣٠٠

٨٣٠٠ كيلومتراً مربعاً

(١) السيد نجيب : مشروعات النيل الكبرى "جريدة الأهرام" ص ٥ (١٩٥٢/١٢/٣٠) .

(٢) اتصح مد أوين على بحيرة فيكتوريا في ٢٨ أبريل ١٩٥٤ .

(٣) Hussein Kamel Selim : Twenty Years of Agricultural Development in

Egypt (1919 - 1939), Cairo 1940, p. 36

ويفقد نحو ٦,٢ ملياراً من الأمطار المكعبة من تصرف منجلا في منطقة المستنقعات وذلك بفعل التبخر في فترة انخفاض النهر من أكتوبر الى مارس، كما يفقد أيضاً نحو ٦,٢ ملياراً من الأمطار المكعبة من تصرف منجلا في فترة ارتفاع النهر من أبريل الى سبتمبر وسبب الفاقد في هذه الحالة هو التبخر وتشرب أرض المستنقعات الموثقة بالمياه . وتكون جملة الفاقد في منطقة السدود هذه هي حوالى ١٢,٤ ملياراً من الأمطار المكعبة في السنة .

وبين الجدول الآتي توزيع هذا الفاقد على شهور السنة في فترتي انخفاض النهر وارتفاعه^(١):

متوسط الفاقد شهرياً بمنطقة المستنقعات من تصرفات بحر الجبل عند "منجلا" بالليونم آيوياً
١٩١٢ - ١٩٤٢

الشهر	تصرفات منجلا	تصرفات المستنقعات	الفاقد	النسبة المئوية للفاقد	ملاحظات
أكتوبر . . .	٨٧ر١	٤٣ر٣	٤٣ر٨	٥٠ر٣	
نوفمبر . . .	٨٧ر٣	٤٦ر٠	٤١ر٣	٤٧ر٣	
ديسمبر . . .	٧٨ر٣	٤٣ر٦	٣٤ر٧	٤٤ر٣	فترة انخفاض النهر
يناير . . .	٧٠ر٣	٤٠ر٥	٢٩ر٨	٤٢ر٤	
فبراير . . .	٧٠ر٤	٤١ر١	٢٩ر٣	٤١ر٦	
مارس . . .	٥٩ر٦	٣٣ر٥	٢٦ر١	٤٣ر٨	
أبريل . . .	٦٠ر٠	٣٩ر٠	٢١ر٠	٣٥ر٠	
مايو . . .	٦٠ر٠	٣٧ر٠	٢٣ر٠	٣٨ر٣	
يونيه . . .	٧٧ر٠	٣٩ر١	٣٧ر٩	٤٩ر٢	فترة ارتفاع النهر
يوليه . . .	٧٣ر٥	٤٠ر١	٣٣ر٤	٤٥ر٤	
أغسطس . . .	٧٨ر٧	٤١ر٥	٣٧ر٢	٤٧ر٣	
سبتمبر . . .	٩٢ر٣	٤٤ر٠	٤٨ر٣	٥٢ر٣	

وبتأمل هذا الجدول ترى أن ما يضيع من ماء النهر في شمالي منجلا وفي إقليم المستنقعات مقدار عظيم للغاية . ومن الغريب أن هذا الفاقد يبدو كثيراً دائماً سواء أكان مستوى النهر في منجلا عالياً أو منخفضاً فان هذا لن يؤثر

(١) امام السيد : مشروع انشاء القناة من ٣٩ (مجلة الهندسين - فبراير ١٩٥٣) .

في تصريف النهر عند بحيرة نو تأثيراً يذكر ، وكأن هذه المياه الزائدة لا تأثير لها غير زيادة مساحة المستنقعات وازدياد ما يفقده النهر من مائه بهذه الوسيلة . ويجب أن نذكر أن قطي الزراف لم يقللا من مساحة المستنقعات تقريباً كما أن التصرف النهائي لمنطقة المستنقعات لم يتغير قبل وبعد إنشاء هذين القطعين^(١) . وتعمل هذه المستنقعات كنظم للتصرف النهري .

أما أنهار بحر الغزال فهي متشابهة في أن الجزء الأدنى لمجرها عرضة لتكون السدود والمستنقعات . وبحر الغزال نهر بطيء منخفض الضفاف . وإذا كانت نسبة المفقود من ماء بحر الجبل عظيمة فإن المفقود من ماء بحر الغزال أعظم . وكل ما يصل إلى النيل الأبيض من ماء هذا النهر هو نحو ٢٠ متراً مكعباً في الثانية طول العام . ذلك هو كل ما يستفيد منه النيل من حوض بحر الغزال الفسيح الكثير الأنهار . ولا عجب من هذا الوضع الخاص إذ أن بحيرة نو وما يحيط بها من المستنقعات كفيلا بأن يتبخر من سطحها لا ما يأتي به بحر الغزال من المياه فقط بل كذلك ما يحمله بحر الجبل^(٢) .

وأمام هذا الناقد الكبير من مياه بحر الغزال وروافده في منطقة المستنقعات ، أصبح لزاماً على حكومتى مصر والسودان أن يضعوا مشروعا دقيقاً لحل هذه المشكلة . ويرى الباحث أن تعميق الجزء الأدنى من مجرى كل من بحر الغزال وروافده يمثل حلاً عملياً لتوفير المياه التي تضيع في منطقة السدود والتي يقدرها هروست بنحو ٢٠ ملياراً من الأمتار المكعبة سنوياً^(٣) . أما الروافد الرئيسية لبحر الغزال فتتمثل في بحر العرب وأنهر لل وجور وتنج وجل . وتحتل هذه الأنهار من المرتفعات التي تفصل مياه نهر الكونغو عن نهر النيل ، وهذه تتحد كلها وتصب في بحيرة نو .

(١) (أ) في ١٩١٠ قامت حكومة مصر بحفر قناتين طولها نحو أربعة وستة كيلومترات يوصلان ما بين مجرى الجبل والزراف فأصبح هذا الأخير مصلاً اتصالاً مباشراً ببحر الجبل في منتصف المسافة بين غابة شبة وحلة نوير ، محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٧٥

(ب) امام المعيد - المرجع السابق ص ٤١

(٢) H. E. Hurst, P. Phillips ; The Nile Basin, Vol. I, p. 17.

(٣) Hurst, Phillips ; The Nile Basin, Vol I, p. 95.

ويبدو من الجدول السابق أن معدل المتوسط اليومي لتصرف نهر السوبات عند المصب هو ٣٦ مليوناً من الأمتار المكعبة وهو تصرف معقول بالنسبة لطول النهر الذى لا يزيد على ٧٤٠ كيلو متراً ، ولعل أهم ما يتصف به هذا النهر أنه لا تكتنف مجراه المستنقعات أو تنبت حوله الحشائش المائية والأعشاب إلا بقدر بسيط للغاية إذ أن كثرة رواسيه قد ساعدت على تكوين ضفاف عالية يجرى وسطها النهر ولا يخرج عنها ، والنهر معتدل الجريان وهو لا يكاد يخلو من الماء فى أى وقت من أوقات السنة . ولو أن مياهه تقل قلة ظاهرة من فبراير إلى مايو ، ولا شك أنه لولا مياه السوبات الغنية بالرواسب والقوية التيار لما تمكن النيل الأبيض من أن يخلق مجراه حتى الخرطوم ، إذ أن مياه بحر الجبل الضعيفة الرواسب البطيئة التيار تبدو عاجزة عن حفر مجرى النيل الأبيض ، ونهر السوبات مثل عمل واضح لأهمية تعميق الأجزاء الدنيا من مجارى أنهار جنوب السودان لكي نتخلص من قدر كبير من مساحة المستنقعات التى تسود فى هذا الاقليم . هذا ، ويكتسب نهر السوبات بحوالى ١٣ر٥ مليار مترياً فى المتوسط لا يراد النيل فهو بذلك يعوض بالتقريب نفس المقدار الذى يضيع فى منطقة السدود من إيراد بحر الجبل .

وبخلاصة القول أنه من المستظر أن تقلل الفوائد كثيراً إذا درست المجارى الرئيسية لجنوب السودان وزيدت سعتها المائية ويكون ذلك بالتوسيع والتعميق وليس بإقامة الجسور إذ أن الأمطار الشديدة بالمنطقة لا تعطى الجسور الصناعية فرصة للتماسك والبقاء كما أن تكاليف صيانتها ستكون باهظة جداً (١) . وكما أن حيوانات المنطقة ستساهم فى إتلاف هذه الجسور فكلما وجد فرس النهر قطعة جافة من الأرض سعى إلى تسليقها فتتأثر أطرافها لثقل وزنه ، والثقل يسير فى قطعان يتراوح عددها بين الأربعة والستين وقد يبلغ أحيانا الثلاثمائة . ولا يخفى ما يسببه ذلك من إتلاف للجسور . أما التماسك فهو أهم الحيوانات

(١) حل ضخم : بحث فى ضبط النيل ، كلية الهندسة ، جامعة الإسكندرية ، المؤلف

المحلية بمنطقة السدود . ومن أهم طابعه الطريقة التي تخفي بها الأنشئ أيضا فهي تلجأ إلى الأرض العالية التي تشبه الجسور فتحفر فيها حفرة تتسع لحجمها وزيادة وفي داخل هذه الحفرة تعتمد إلى حفر عدة حفر صغيرة تخفي في إحداها بعضها . ولا شك أن هذه الحفر تضعف من قوة تماسك الجسور .

مشروع القناة في إقليم السدود وأثره على مشروعات الري في مصر :

كما تقدم يبدو واضحا أن قدرا كبيرا من مياه بحر الجبل يضيع في منطقة المستنقعات ولا سيما مستنقعات جونجلي وأواي وأعلى الزراف والزراف ، إذ يقدر متوسط الفاقد في فترة انخفاض النهر بنحو ٣٢٪ من تصرف منجلا ومتوسط الفاقد في فترة ارتفاع النهر بنحو ٥٠٪ من تصرف منجلا لذلك يتجه التفكير إلى الأخذ بأحد المشروعين الآتيين :

أما المشروع الأول فيرمي إلى تعديل مجرى بحر الجبل بحيث يسمح بمرور ٦٥ مليون م^٣ من المياه مع فاقد بسيط ، وهذا هو متوسط التصرف اليومي عند منجلا في شهرى أبريل ومايو الذي ينتظر وصوله إلى أسوان في المدة الحرجة يونيه ويوليه بعد إتمام المشروع . وبما أن مجرى النهر بين منجلا وبرر يسمح بمرور هذا التصرف دون فاقد فيبدأ مشروع التوسيع والتعديل إلى الشمال مباشرة من بور وذلك لمسافة ٢٧٠ كيلو مترا حتى قطعى الزراف^(١) . وعند قطعى الزراف لا يسمح لامتداد بحر الجبل بمرور تصرف أكثر من ثلاثين مليوناً من الأمطار المكعبة في اليوم في الفترة المذكورة وهو أقصى تصرف يوصله هذا الجزء من النهر إلى النيل الأبيض دون فاقد ، أما باقى التصرف وقلره ٣٥ مليون متر مكعب في اليوم يتقسم بين (١) مجرى بحر الزراف ويسمح له بمرور ١٥ مليون متر مكعب في اليوم وهو أقصى تصرف بدون فاقد ، (ب) يقترح انشاء مجرى يجاور مجرى الزراف يسمح بتصرف قدره ٢٠ مليون متر مكعب في اليوم^(٢) . ويبلغ طول هذا المجرى نحو ١٥٠ كيلو مترا .

(١) انام السيد : المرجع السابق ص ٤٢ وما بعدها .

(٢) راجع خريطة المشروع المرفقة بهذا البحث ، الخريطة رقم ٣

وأهم النتائج الاقتصادية التي تنجم عن تنفيذ هذا الاقتراح : (١) تقليل المدة اللازمة لوصول المياه من منجلا إلى النيل الأبيض إذ تقدر هذه المدة بنحو خمسة عشر يوماً مما يساعد على ضبط التنبؤات الخاصة بالتصرفات الواردة عند أسوان ، (ب) تفادى الاتصال بمنشآت بحر الغزال (ج) ضمان وصول تصرفات منجلا إلى النيل الأبيض بفاقد بسيط جداً ، وذلك في فترة الحاجة إليها بمصر (فبراير - يولي) .

وبين الجدول الآتي مدى ما تكسبه مصر من تنفيذ هذا الاقتراح مع ملاحظة أن المدة اللازمة لوصول المياه من منجلا إلى أسوان هي شهران بعد تنفيذ المشروع .

التصرف بملايين الأمتار المكعبة في الشهر (١٩١٢ - ١٩٤٢)

التاريخ عند منجلا	تصرف منجلا	تصرف المستنقعات المالية	المكسب بعد تنفيذ المشروع	التاريخ عند أسوان	المكسب عند أسوان باعتبار فاقد ١٠ ٪
ديسمبر	٢١٨٠	١٣٦٧	٨١٣	فبراير	٧٣٢
يناير	١٩٧٠	١٣٠٤	٦٦٦	مارس	٦٠٠
فبراير	١٩٥٠	١٣٠٣	٦٤٧	أبريل	٥٨٢
مارس	١٨٠٠	١٠٩٥	٧٠٥	مايو	٦٣٥
أبريل	١٨٦٠	١١٠٥	٧٥٥	يونيه	٦٧٦
مايو	٢٣١٠	١١٥٨	١١٥٢	يوليه	١٠٣٧

هذا ، ويصل المكسب عند المللكال إلى ٤,٧٣٨ وعند أسوان إلى ٢٦٦ رة مليوناً من الأمتار المكعبة في السنة .

أما المشروع الثاني فيتلخص في شق قناة في منطقة المستنقعات تبدأ من جونجل حتى مصب الزراف (١) . ويصل عمق هذه القناة الى خمسة أمتار وعرض القناع إلى ١٢٠ متراً ، ويمكن القناة من صرف ٥٥ مليون متر مكعب من المياه

(١) راجع الخريطة رقم ٤

في اليوم ويحمل النهر ٤٠ مليون متر مكعب في اليوم في الفترة الحرجة (١). ويبدو أن المشروعين الأول والثاني يصلان إلى غرض واحد وهو تقليل الفاقد في منطقة المستنقعات إلى الحد الأدنى حتى لتفيد مصر من تصرف منجلا في الفترة الحرجة التي سبقت الإشارة إليها. ولكن المشروع الأول يبدو أقل نفقات من المشروع الثاني إذ أن المشروع الأول يستخدم النهر كثيرا بعد تعديل وتعميق المجرى.

وبعد تنفيذ مشروع القناة مع مشروع التخزين القرني في بحيرة فكتوريا عند جنادل أوين سوف يدير لصالح مصر حوالي خمسة مليارات في السنوات المتوسطة الإيراد وثمانية مليارات لسد العجز في السنوات الضعيفة الإيراد. وسيستخدم قدر من هذه المياه في تحسين المناوبات الصيفية وبذلك سيقتضى على مشكلة خطيرة من مشكلات الري الدائم في الدلتا إذ أن سوء المناوبات الصيفية كثيرا ما أدى ويؤدي إلى متاعب كثيرة وجرائم عديدة.

أما القدر الباقي من هذه المياه فيمكن أن يستغل في التوسع الزراعي في المناطق الآتية (٢):

١	في شمال الدلتا	١٥٠
٢	في مروط غرب النوبارية	١
٣	في شمال سينا	١
٤	شمال ترعة الاسماعيلية	٥٠
المجموع		٤
		مليون فدان

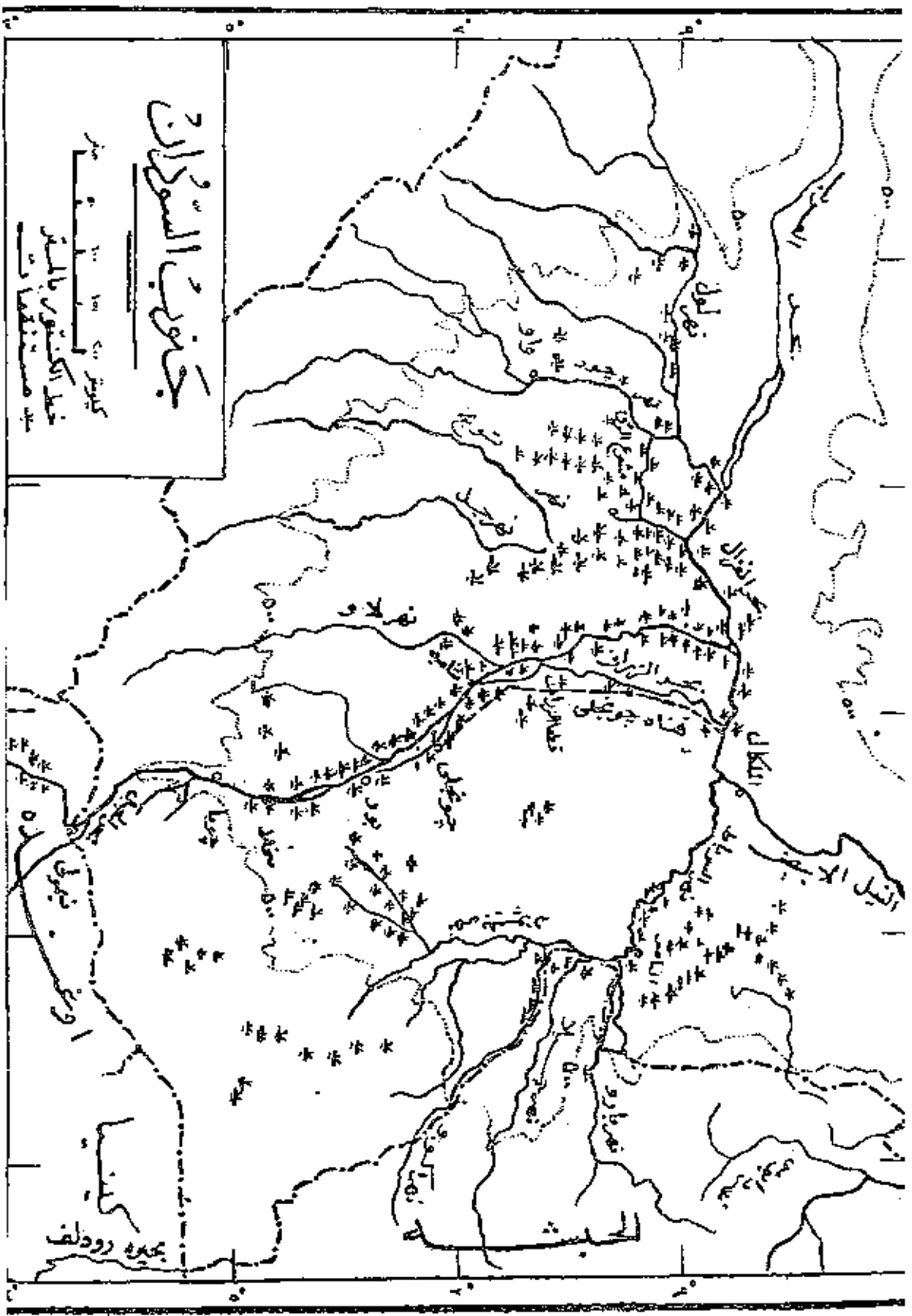
(١) Hurst Black, Simaika ; The Nile Basin, Vol. VII, 1944, p. 6.

(B) Butcher ; The Gonglei Canal Diversion Scheme, Ministry of Public Works, 1938,

Hussein Kamel Selim : Twenty Years of Agricultural Development (٢) in Egypt (1919 — 1939). p. p. 35—38.

جغرافیہ السوڈان

کل میٹر 0 50 100 150 200
خط اکسٹور بالیٹر
مستطیقات



ولا شك أن مصر في حاجة ماسة إلى التوسع الزراعي إذ لم ترد المساحة الزراعية كثيراً منذ أوائل هذا القرن بينما تضاعف عدد السكان كما يبدو من الجدول الآتي الذي يوضح مدى التناقص المستمر في نصيب كل فرد من المساحة المزروعة إذ بلغ هذا النقص حوالي ٣٨ ٪ في نصف القرن الماضي^(١).

التعدادات	١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
عدد السكان بالمليون . . .	١١,٣٠	١٢,٢٨	١٤,٢	١٥,٩	١٩,٠٤
المساحة المزروعة (مليون فدان)	٥,٤	٥,٣	٥,٥	٥,٣	٥,٧٣
المساحة التي تخص الفرد (فدان)	٠,٤٨	٠,٤٠	٠,٣٩	٠,٣٣	٠,٣٠

وإذا فرض أن نصيب كل فرد ظل ثابتاً عند هذا المستوى المنخفض فيجب أن تصل المساحة المزروعة حوالي ١٠ مليون فدان في سنة ٢٠٠٠ حيث يبلغ سكان مصر حينئذ حوالي ٣٣ مليوناً . ومعنى ذلك أن نحو أربعة ملايين فدان يجب أن تضاف إلى المساحة المزروعة في مدى ٥٠ سنة تقريباً .

ومصر في حاجة ماسة إلى دقة الاشراف على توزيع المقننات المائية إذ يبلغ المتوسط السنوي للتصريف النهري في مصر في نصف القرن الماضي ٩٢ مليار متر مكعب في السنة ، ولكن مصر تستغل من هذا المقدار نحو ٥٨ مليار متر مكعب وأما الباقي وهو ٣٤ مليار متر مكعب فيضيع في البحر المتوسط أثناء الفيضان . هذا فضلاً عن ٤٠ مليار متر مكعب يفقدها النيل في منطقة مجراه الأعلى وهذا يساوي ٤٣ ٪ من الكمية التي تصل إلى مصر ، وإذا زاد التحكم في مجرى النيل وقل الفاقد إلى نصف هذا المقدار السابق أمكن إضافة نحو ٢٠ مليار متر مكعب فيرتفع مقدار التصريف السنوي للنيل عند أسوان إلى ١١٢ مليار متر مكعب . وهذا يكفي لرى حوالي ١٤ مليون فدان وفقاً للمقننات المائية الحالية .

(١) مصطفى الجليل : مستقبل التوسع الزراعي في مصر ، (مجلة المهندسين ، فبراير ١٩٥١ ص ٤١ - ٤٣) .

هذا ، ويمكن أيضا أن تستغل في مشروعات الري مياه الصرف
التي تقدر بنحو ١٥ مليار متر مكعب سنويا والمياه الجوفية التي تقدر بنحو
١٠ مليار متر مكعب سنويا . ومن هذا العرض يتضح أن مشكلة التوسع
الزراعي في مصر ليست هي قلة المياه اللازمة . ولكن هي توفير الأراضي
الصالحة^(١) .

(١) (أ) المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومي : التوسع الزراعي (المذاكرة ١٩٥٤)
ص ٣٤ - ٣٣

(ب) المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومي : مشروعات الإنتاج الرئيسية ص ٢٤ - ٢٠

(ج) المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومي : السياسة المائية ص ١٣ - ٢٠

شمال سيناء

مقدمة في الجغرافيا التاريخية

الدكتور محمد السيد غنم

يرجع الفضل في كنية هذا البحث الى الاشتراك في بعثة معهد الصحارى المصرية الى شمال شرق سيناء ، من ١٥ أغسطس الى ٩ سبتمبر ١٩٥١ ، ونحن نشير هنا الى أهم المراجع التي يمكن أن يرجع اليها القارئ اذا شاء الاستزادة في نقطة من النقط أو استيضاح ما يمكن أن يكون قد أجعل .

تحتل شبه جزيرة سيناء مركزاً جغرافياً هاماً بين مصر وجاراتها العربيات في جنوب غرب آسيا ، وبين قارة أفريقية وقارة آسيا ، وقد كانت منذ أقدم العصور معبراً للجماعات البشرية بين هاتين القارتين ، وهى اليوم تحتل أخطر منطقة استراتيجية لمصر ، فلا غرو أن يتجه إليها الاهتمام بالدراسة والبحث ولعل في هذه المقدمة الجغرافية التاريخية ما يصلح أن يكون أساساً للدراسات جغرافية بشرية لهذا الجزء من الوطن المصرى .

وستعنى هذه المقدمة بالنقط الآتية :

- (أ) أهمية الموقع الجغرافى لشبه جزيرة سيناء .
- (ب) وصف عام للبيئة الجغرافية .
- (ج) أهمية شبه جزيرة سيناء لمصر من الناحية البشرية .
- (د) أهم القبائل البدوية التى تسكن سيناء فى الوقت الحاضر .

(١) أهمية الموقع الجغرافى لشبه جزيرة سيناء :

لعل قطراً من الأقطار لم يظفر بالخلود فى سجل الآثار المكتوبة بما ظفرت به سيناء فقد ذكرت فى آثار الفراعنة فى الأسرات الأولى ، فى الألف الثالثة قبل الميلاد واستمرت من ذلك الحين ترد فى سجلات الفراعنة ونقوشهم بصفتها المورد الحام لمعدن النحاس وحجر الفيروز والزبرجد^(١) كما أنها تحتل

(١) أنظر فيما يختص بذلك الى V. Gordon Childe, Man Makes Himself, Ch.

VII, VII What Happened in History, London p. 100 ff.

الدكتور سليم حسن : مصر القديمة جزء أول ، القاهرة ١٩٤٠ من ٣٤٨

مركزا ممتازا في أسفار العهد القديم ، فهي مهبط قبائل بني اسرائيل ، وبني
كنعان (١) من قبلهم ، ومعبرها إلى مصر ، وملاذها حين طردت من وادي النيل .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهي طريق المكسوس أو ملوك الرعاة ،
كما ورد اسمهم خطأ في كتابات المؤرخين الإغريق ، إلى مصر . وهي طريق
تحتسب الثالث ومن بعده الرماصة إلى سوريا ، وهي الطريق الذي عبره جيش
عمرو بن العاص إلى مصر ، كما أنها طريق جيوش صلاح الدين لطرد الصليبيين
من سوريا وفلسطين ، وهي طريق العثمانيين إلى مصر ، كما أنها طريق الطموحين
من المماليك المصريين ، أمثال علي بك الكبير ، ومحمد بك أبو الذهب ،
نحو إعادة تكوين الأمبراطورية المصرية ، في فلسطين وسوريا ، ثم هي أيضا
طريق نابليون لفتح المشرق .

تلك هي سيناء ، ومركزها في الكتب السماوية ، ومركزها أيضا في تاريخ
الهجرات البشرية التي عبرت مصر من الشرق ، وأهميتها في التاريخ العسكري
لا لمصر وحدها ، بل للعالم أجمع . وإذا كانت مصر تحتل موقعا جغرافيا
ممتازا بالنسبة للعالم القديم (الذي كان يشمل الهلال الخصيب ومصر ، ثم اتسع
مدلوله ، فشمل الحوض الشرق للبحر الأبيض المتوسط ، ثم حوض البحر
المتوسط بأكمله) ، ثم للعالم الوسيط ، ثم للعالم الحديث ، فإن سيناء تشغل
من مصر مركزا ممتازا فريدا ، إذ هي المدخل الشرق لهذه الواحة الكبيرة .

سيناء شبه جزيرة ، غير محددة المعالم من الناحية الطبيعية ، ولنغض الطرف
مؤقتا عن الصورة التي في أذهاننا لشبه الجزيرة ، والتي رتبها تعودنا النظر
على خريطة مصر وحدودها الشرقية ، فذلك الخط المستقيم — ما عدا في بضعة
نقط منه — الممتد من رفح إلى تقب العقبة ، لا وجود له في الحقيقة ، بل هو
خط مصطنع ، فرض فرضا على الخريطة الطبيعية ، وعلى سكان جنوب فلسطين
وسيناء على حد سواء ، وإن تاريخ تخطيط الحدود بين الأقطار الشامية وبين
مصر ، سواء في ذلك أثناء العصور القديمة أو الحديثة حتى الأمس القريب ،

(١) سفر الخروج اصحاح ٢٦ — ٢٧ .

بين لنا بوضوح أن الحكام ما كانوا يأبهون بغير الريف (الأرض المترعة) في فلسطين وفي مصر ، لكي يحددوا حدودها ، وإذا تجاوز اهتمامهم بلاد الريف ، فإغنا ذلك لكي يشمل المراكز ذات القيمة الحربية ، مثل رفح والعريش والطريق التجاري الذي يتجه بحذاء الساحل فيما بين دلتا النيل ومدينة غزة . أما فيما عدا هذا ، ما يطلق عليه اسم النجب حاليا ، وهضبة التيه وطور سيناء وشمال بلاد العرب ، فلم تعبأ المعاهدات والاتفاقات السياسية ، بين الولاة والحكام بتحديد تبعيته السياسية ، وحق ما فعلوا ، فتلك مملكة البدو ، لا يشاركهم النفوذ فيها أحد ، يتقاسمونها بين بطونهم وعشائرتهم المختلفة ، بغير بعضهم على أرض بعض ، ويتسع نفوذ بعض القبائل حيناً وينكمش حيناً آخر ، وهكذا ، يتحركون بحرية تامة بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين وسيناء ، ومن ثم كان تاريخ هذه المناطق الثلاث تاريخاً — لا نقول مرتبطاً متداخلاً فحسب — بل هو تاريخ واحد . وكان من العيب تحديد الحدود وإقامة المخافر ، ولا سيما بين قبائل لا تشعر بأى قداسة لتلك الحدود ؛ وهذه الحقيقة أيضاً تفسر الكثير من سلوك البدو الذي نراه بأعيننا الريفية الحضرية ، المصطفية بالترية الوطنية المحلية ، نراه غريباً شاذاً ، ولكنه في نظر البدو طبيعي لا غبار عليه .

(ب) البيئة الجغرافية :

شمال سيناء سهل مموج كبير ، يتحدر من هضبة التيه تدريجياً نحو البحر الأبيض المتوسط شمالاً ، وتنصرف مياه هذا السهل في وادي العريش وروافده العديدة ، وهذا الوادي ينبع من هضبة العجمة ، ثم يعبر هضبة التيه المنبسطة ، حيث توجد التمد والنخل ، والذي يعبر طريق الحج القديم المشهور ، ثم يهبط من مستوى ٤٠٠ متر نحو سهل الحسة ، حيث تغذيه وادي قرية من الشرق : ووادي البروك من الغرب ، ثم يشق الوادي طريقه في خائق ضيق ، يسمى بالضيقة ، بين جبل ضلفع من الشرق ، وجبل الحلال من الغرب ، ومن ثم يهبط إلى مستوى ٢٠٠ متر ، ويشق طريقه في منطقة كتبان رملية حتى يصب شرق العريش . ويعتبر هذا الوادي أكبر الأودية الحافة الموجودة في مصر ، وبلى نهر النيل من حيث المساحة التي يصرف

مياها ، مما جعله أهم ظاهرة فيوغرافية في شبه جزيرة سيناء ، تقام عليه مشاريع رى الصحراء وتعقد على واديه الآمان في مشاريع التوسع الزراعى المستقبلية .

وتتكون أرض هذا السهل بصفة عامة من التربة الهوائية (اللويس) ^(١) المكونة من فئات الصخر الجبرى ، مختلطة بالرمال ، والتي تعرف باسم الطفل الجبرى أو اللوم Loam ، وهى نتيجة التعرية الهوائية لفئات الصخور الجبرية والرمال واختلاطها معاً . إذ تتكون صخور شمال شبه الجزيرة من التكوينات الجبرية التى أرسبت في الزمن الجيولوجى الثالث (عصرى الإيوسين والبليوسين) وتغطيها الكثبان الرملية التى تحاذى ساحل البحر من ناحية ، والتي تغطي نطاقا داخليا يمتد حتى خط القصيمة من ناحية أخرى . وهذه الكثبان الرملية ظاهرة طبيعية ذات أهمية كبرى في شمال شبه الجزيرة ، تعتبر كمخزانات طبيعية لمياه الأمطار التى تسقط شتاء ، في النطاق الساحلى ، كما أنها ذات خطر داهم على الزراعة والبساتين القليلة المتناثرة ، وعلى طرق المواصلات في المنطقة إن لم تتخذ الإجراءات اللازمة نحو تثبيتها في أماكنها .

شمال سيناء جزء من الصحراء ، لا يكاد يسقط عليه سوى ١٠٠ مم من المطر في العام ، اللهم إلا في الشمال الشرقى من الساحل ، وحتى في هذا الجزء نجد أن شكل الساحل يوازي تقريبا الاتجاه العام للرياح التى تهب شمالا ، ولذلك فانا نستطيع أن نعتبر المنطقة من بورسعيد غربا حتى رفح شرقا ضمن النطاق الصحراوى .

ولا تختلف الظروف الجغرافية في صحراء سيناء عنها في صحراء النجب (جنوب فلسطين) في شيء ، فهما في الواقع إقليم طبيعى واحد ، يندمج كلاهما بدورهما في إقليم شمال شبه جزيرة العرب وبادية الشام ، ولذلك كانت هذه المنطقة كلها مسرحا واحدا لحركات الجماعات البدوية منذ أقدم الأزمنة ، لا يحد حركاتها أى عائق طبيعى ، ولم تستطع الحدود السياسية المصطنعة أن تحدّها حتى وقت قريب .

(١) Reifenberg, A. Soils of Palestine, London 1938, p. p. 25—50.

إلى جانب وادى العريش الذى يمتلئ بالماء فى فصل الشتاء بعد مرور إعصار يصطدم بمرتفعات سيناء (هضبة العجمة) ولعامل الارتفاع ذاته فى هذه الهضبة ، نجد أن موارد المياه قليلة جدا ومتناثرة فى هذه المساحة الكبيرة ، وهذه الموارد المائية ليست سوى عدد قليل من الآبار المتباعدة ، وعين ماء واحدة ، هى عين الحديرات ، أما فى النطاق الساحلى فإن مستودع الماء الباطنى قريب جدا من سطح الأرض ، ويمكن الحصول عليه بحفر الآبار ، وهنا يلاحظ أن الماء يتدفق من متوئين ، أحدهما المستوى العلوى ، وهو لا يزيد عمقه عن بضعة أمتار عن سطح الأرض ، ومستوى الفجرة ، ويتراوح عمق هذا المستوى بين ١٠ - ١٥ مترا عن سطح الأرض ، وهذا المستوى أغزر ماء من المستوى السطحى ، ويتطلب نفقات كبيرة ، ولكنها ضرورية للاستغلال الزراعى فى هذه المنطقة (١) .

(ج) أهمية شبه جزيرة سيناء من الناحية البشرية :

سيناء إذن ، من الناحية البشرية ، جزء من إقليم أوسع أفقا من مجرد شبه الجزيرة التى نتخللها فيما بين الحدود الشرقية وقناة السويس ، وهى بحق حلقة الاتصال بين شبه جزيرة العرب من ناحية الشمال ، وبين جنوب الأقطار الشامية ، وبين وادى النيل الأدنى ، وأن البائل الرعوية - حتى وقت قريب - كانت تتجول بحرية فى هذا الإقليم المتسع . والمظهر العام لهذا الإقليم هو مظهر الصحراء التى كانت تسمى بالصحراء الصخرية أو بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea ، ويسقط عليها أقل من ١٠٠ سم مطر فى العام ، يشتغل

(١) E. Hall, Memoire on the Geology and Geography of Arabia Petraea, Palestine and the Adjacent Districts, London 1886.

H. J. L. Beadnell, The Wilderness of Sinai, London 1927, Moon & Sadek, Topography and Geology of Northern Sinai, Cairo, 1921.

A. Musil, Arabia Petraea. Arabia Deserta, 1927. & Northern Hejaz, 1936.

فيما يخص بالماء الجوفى ، من المفيد جداً الاطلاع على :

G. S. Blake & Goldschmidt, Geology and Water Supply of Palestine London 1947.

أهلها بالرعى في بطون الأودية ، أو يتجمعون حول الآبار القليلة المتناثرة ، ولم تكف هذه البيئة أهلها مطلقا ، ولذلك فهم دائما في حركة وراء الكلا والرعى ، ولكن أهل البادية هؤلاء فرضوا أنفسهم على التاريخ بهجراتهم المتوالية إلى أطراف الهلال الخصيب من ناحية وإلى وادي النيل الأدنى من ناحية أخرى ، وهذه هي الهجرات السامية التي أشار إليها العهد القديم ونصوص قدماء المصريين وليس هنا مجال الحديث عن هذه الهجرات وتاريخها ، ولكن يكفي في هذا المقام أن تذكر أن جبهة العلماء والباحثين ، قد أجمعت على أن بلاد العرب هي مهد الشعوب السامية البادية ، وأن هذه البلاد كانت تفيض بسكانها التي لا تستطيع أن تقوم بأودهم ، فلم يكن ثمة بد من أن تنبعث الموجات البدوية من هذا الخزان البشري الكبير ، وتهاجر إلى مجاورها من بلاد الريف العراقي والريف السوري والريف المصري ، ويتصور كثير من الباحثين أن هذه الهجرات كانت تخرج موجة إثر موجة ، وهم يعترفون بأن أقدم هذه الموجات ذكرا في التاريخ ، هي تلك التي بدأت في الألف الثالث ق.م. وهذا لا يمنع أن نتصور هذه الهجرات أقدم من ذلك ، ويبدو أن في هذا التصور كثيرا من التبسط الذي قد يشوه الصورة الحقيقية ، وهذا التبسط قد تدعو إليه مناهج البحث العلمي ، ولكنه لا يتفق كثيرا مع الحقيقة (١) .

اننا نشاهد حتى الآن جماعات البدو على أبواب الريف ، تحيا حياة بسيطة تحت راحة الظروف الطبيعية ، لا يكاد يسقط في يثتها من المطر إلا التزر القليل وقد ينقطع الغيث عاما إثر عام ، إذ نحن هنا في أطراف إقليم البحر المتوسط ، الذي تهب عليه أعاصير الشتاء الممطرة ، ومن شأن الأمطار الإعصارية الذبذبة وعدم الانتظام ، فتختلف كمية الأمطار الساقطة من شهر إلى شهر ومن عام

(١) عن نتائج الهجرات البشرية السامية وتواريخها أنظر على سبيل المثال :

H. J. Myres, *The Dawn of History*, London 1911, Ch. V.

W. Ripley, *Races of Europe*, New-York 1900, p. p. 365 — 399

C. Coon, *Races of Europe*, New-York 1937, Ch. XI.

— *The Caravan*, London 1952.

Burton, *Semitic and Hamitic Origins*, London 1935.

الى عام ، ولما كان مايسقط من مطر على حافة اقليم الصحراء واقليم البحر المتوسط نزرا ضئيلا ، لا يكفي سوى الكلا في بطون الأودية ، القرية من مستوى الماء الباطني ، فانه كان العامل الفاصل في تحديد مساحات المراعي ، ومن شأن هذا التمر الضئيل من المطر أن يتأثر بسرعة ذبذبات أعاصير الشتاء ، التي لا تعطل إلا أطرافها البعيدة ، فان كانت الانخفاضات الاعصارية عميقة ، هبت إليها الرياح بسرعة ، وهي ترجي السحاب ، وكان المطر غزيراً ، وكان الغيث في شمال الصحراء ، وكانت المراعي فسيحة ، تطعم منه قطعان الإبل والضأن . وتتكاثر ، فيعيش البدوي راضيا قرير العين ، أما إن كانت الانخفاضات الإعصارية ضئيلة ، قليلة الأمطار ، في إقليم البحر المتوسط ، شحيحة أو جافة في شمال الصحراء ، تضاعلت مساحات المراعي ونفقت الإبل وأصاب البدو غم شديد ، فإذا تكررت تلك الحالة بعد عام ، اضطربت جموع البدو وزحمت نحو الريف الخصيب ، إما متسللين فرادى وجماعات قليلة العدد ، تحمل متاعها وسلعها — من صوف وأقط — تلمس الرزق في أطراف الريف ، وإما غزاة فائمين ، وخصوصا إذا كانت الأداة الحكومية فاسدة في هذا الريف ، وكانت نظم الحكم منهارة ، ، والبدو الذين يعيشون على هامش الحضارات الزراعية المستقرة ، على جانب كبير من الاحاطة بأحوال تلك الحضارات ، لا يترددون في غزوها قوة واقتدارا إذا سنحت لهم الفرصة ، ويعقب هذا الغزو المسلح عادة فترة طويلة يتسلل فيها البدو إلى أطراف الدول الزراعية (الريف) ويحجون حياة نصف بدوية ، ولكنهم لا يلبثون أن يتدبجوا تماما في الحياة الزراعية الجديدة ، ويستقرون نهائيا في الريف . وهذه عملية قد تستغرق أجيالا طويلة ، ولكنها عملية مستمرة متكررة في العالم العربي ، منذ أقدم عصور التاريخ حتى الوقت الحاضر .

وأقرب الأمثلة على هذه الظاهرة البشرية في العالم العربي ، هو مثل الموجة العربية إلى بلاد الهلال الخصيب ، التي سبقت ظهور الإسلام بخمسة قرون على الأقل ، وكان من مظاهرها دولة الأنباط جنوب فلسطين من القرن الثالث حتى مطلع القرن الثاني الميلادي وعاصمتها سلع أو بترا (Petra) ؛ وقد توغل هؤلاء العرب الذين كانوا يشتغلون بنقل التجارة عبر بلاد النجيب ،

حتى مدينة الخليل (جبرون) ويافا شمالا ، وعلى أيديهم بدأ استعراب فلسطين كما أن على أيدي الغساسنة ، أصحاب أمارات شرقي الأردن وبادية الشام ، بدأ استعراب سوريا ، إذ أنهم هم الذين عبدوا الطريق لفتح الاسلام نفسه في القرن السابع الميلادي ، وقد بدأت موجة كبيرة من تدفق البدو من شبه جزيرة العرب ، شمالها وجنوبها ، إلى العراق وسوريا ومصر ، بعد الفتح الاسلامي (١) ، بل أن الهجرة العربية إلى بعض أنحاء مصر ، مثل مديرية جرجا ، لم تبدأ إلا في القرن الخامس عشر ، أي في الأمل القريب (٢) ولولا الحكم المملوكي التركي لاستمرت الموجات العربية تغد إلى مصر بشكل أقوى ومثل هذا يتفق مع الحالة في العراق والأقطار السورية . ويحمل القول أننا لا نزال في الموجة العربية التي ترعم الكتب المبسطة أنها حدثت في القرن السابع الميلادي . هذا المثل ينطبق على نحو أدق فيما تطلق عليه الكتب المبسطة الموجات السامية ، وتحدد لها تواريخ تبدو كأنها محددة ، وربما كانت هذه التواريخ تدل على الأوقات التي اتخذت فيها هذه الموجات شكلا عتيفا ومظهرا حريا . وحركات البدو عملية مستمرة تتخذ شكلا سلميا في معظم الأوقات ، ولا تركز إلى العنف إلا في أوقات الضعف والانهيار التي تنتاب الحكومات المستقرة في الريف العراقي أو السوري أو المصري . ولا علاقة لها بما يزعم هنتجتون ومدرسته من تغير المناخ (٣) . بل هي لا تحتاج لمثل هذه النظرية - التي لم يلزم التوفيق أصحابها - لكي تفسر حدوثها ، ولولا ما استحدثت دول الغرب في الشرق الأدنى من بدعة الحدود السياسية ، وتخافر الحدود ونقط الجمارك لاستمرت تلك العملية حتى وقتنا الحاضر ، تغذي الريف المجاور بزيادة من الدماء العربية (٤) .

(١) أنظر الدكتور سليمان حزين ، سكان مصر وتاريخهم الجنسي ، مجلة الجمعية المصرية لدراسات التاريخ ، المجلد الأول .

(٢) و (٣) أنظر صبحي وحيد ، في أصول المسألة المصرية ، الفصل الثاني .

(٤) أنظر على سبيل المثال : E. Huntington, The Pulse of Asia, New-York: 1926.

— Palestine and its Transformation, New-York 1911.

— and Visher, Climatic Changes, New-Haven, 1922.

(٥) أنظر A. Musil, op. cit.

تحدثنا عن سيناء كجزء من إقليم أوسع يشمل شبه جزيرة العرب وجنوب شرق الأردن وفلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى يريخ العريش . ورأينا كيف كانت سيناء معبرا للشعوب البادية التي هاجرت إلى مصر من الشمال الشرق وسنستمر الآن في إبراز أهمية موقع شبه جزيرة سيناء باعتبارها جزءا من هذا الإقليم الواسع ، ولا سيما من الناحية البشرية ، وقد سبق أن أشرنا إلى تلال العبريين إلى مصر حوالي القرن الرابع عشر ق. م. ويبدو أن القبائل البدوية كانت تجول في هذا الإقليم الواسع الذي أشرنا إليه ، والذي كان يمتد حتى يشمل حافة الريف المصري في وادي الطميلات وحدود مديرتي الشرقية (١) والدقهلية ، ويبدو أن هذه القبائل خيما كانت تمت بعضها ببعض الآخر بصلات القرى والعصب ، فها قبائل ايدوم ومواب ، وقبائل الاثماعيليين والعبريين ، ويدل على ذلك أيضا توزيع القبائل كما ورد في سفر التكوين ، فواب وايدوم استقرتا في شرق الأردن ، وقبائل الاثماعيلية (٢) (التي انحدر منها بنو قحطان والعرب) كانت في جنوب فلسطين : والعبريون استقروا في هضبة يهوذا ، بعد أن انضم اليهم بنو عمومهم الذين كانوا قد تسللوا الى أطراف الريف المصري في أرض جوشن ، ويدل على ذلك أيضا وصف يوضع لطريق الخروج من مصر ، ولاقليم غزة وبئر السبع الذي أطلق عليه العبريون اسم النجب ، ومعناه أرض الخنوب (٣) ، هذا الى أن مدينة غزة نفسها كانت بقعة عسكرية ونقطة حراسة أمامية للجيوش المصرية لمرآق تحركات البدو على حدودها (٤) .

(١) أنظر الدكتور عباس عمار ، المدخل الشرق لمصر : مجلة الجمعية الجغرافية المصرية جزء ٢١ من ٩٢ وما بعدها .

وانظر أيضا Maspero, Dawn of Civilization, 1869, p. 469

(٢) أنظر Richard Burton, The Land of Midian, Vol. I. p.p. 236 & 294.

وأيا خريصة توزيع القبائل في فلسطين في القرن العاشر (ق . م.) منقولة من :

Ghaleb, M. E. S. Constant في مقال للكاتب H. Guthe, Bibelalt., Leipzig, 1911. and Variable Factors in the Interrelations Between Judaea Plateau and The Maritime Plain in Palestine, Bull. Soc. Roy de Geog. d. Eg. Vol. XXIV, p. 223.

(٣) أنظر للكاتب مقال The Settlement of The Negeb. في مجلة معهد الصحاري المصرية ،

(تحت النشر) والجغرافيا التاريخية لاقليم النجب — محاضرات الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٩٥٦

(٤) المقال السابق .

وكان لهذا الاقليم أهمية خاصة كطريق من طرق التجارة بين الشرق والغرب وخصوصاً في حالات الاضطراب والقلق التي كانت تهدد الطريق التجاري الشمالي (اللاذقية - أنطاكية - حلب - قسرين - فالقرا - أو طريق دمشق - تدمر - القرا) ، أى أنه كان طريقاً ثانوياً ، تلجأ اليه التجارة إذا تعرض الطريق الشمالي للاضطراب^(١) . وكان مركز هذا الطريق هي مدينة سلع Petra : اليها تنهى تجارة اليمن عن طريق الحجاز بحذاء البحر الأحمر واليها تنهى تجارة الشام عن طريق مدن حافة الصحراء ، دمشق قمعان قمعان فسلع ، ثم اتجه الطريق بعد ذلك نحو الشمال بشرق الى كرب ، (مفيس) أو الى عبدا ، ثم الى بئر السبع فغزة من ناحية ، أو الى خلاجة فالعوجة فالعريش من ناحية أخرى . وقد نشط هذا الطريق بصورة خاصة من القرن الثاني ق. م. الى القرن الثاني الميلادي على يد الأنباط^(٢) . وهم في الأصل بدو رحل من العرب ، امتد نفوذهم فشمّل شرق الأردن وشمال شبه الجزيرة العربية واطليم النجب والساحل الشمالي الشرقي لسينا وساحل فلسطين الجنوبي الذي شمل مدينتي غزة والمجدل ، وكانت عاصمتهم سلع ، وكان نشاطهم كله متوجها نحو التجارة ، ولم يكن للزراعة أى نصيب في حياتهم ، فمن الخطأ مسايرة بعض الكتاب الذين زعموا ، أن النجب كانت تتقبل كميات أكبر من الأمطار وأنها لهذا السبب مرت في فترة رخاء ، بل الحقيقة أنها لم تكن تقبل جدبا عما عليه الآن^(٣) ، وأن نشاطها كان تجاريا محضاً ، وأن مدنها لم تكن سوى محطات للتجارة ، قامت حيث الماء والآبار القليلة في هذا الاقليم ، نتيجة لظروف خارجة عن ارادتها ، وهي اعتراض البارثيين^(٤) لطريق التجارة الشمالي وما أن زال هذا العائق حتى عاودت التجارة طرقها القديمة ، وفقدت كل من تدمر و سلع مركزها القديم . وعفا عليهما الزمن .

(١) راجع S. A. Huzayyin. Arabia and The Far East, Cairo 1942 p. 6 and pp. 219 ff.

(٢) راجع محاضرة محمد السيد غلاب المشار اليها في محاضرات الجمعية الجغرافية سنة ١٩٥٦

(٣) راجع ما سبق وأيضا L. Woolley & Lawrence. The Wilderness of Zin.

(٤) راجع الدكتور حزين ، المرجع السابق ذكره .

وقد استمر هذا الطريق التجارى فى العصر الرومانى الأغرقي (البطلمى والرومانى فى مصر) وكان من نتيجة ذلك ازدهار العريش ورفع ، أما فى العصر البيزنطى ، فقد كان هذا الأقليم بمثابة إقليم حدود تحولت فيه المدن التجارية إلى مدن قلاع لحراسة الشام ومصر من غزوات العرب ، فسارت بذلك مدن النجب وسينا نحو التدهور ، وما أن انهارت دولة بيزنطة فى القرن السابع الميلادى ، حتى فقد هذا الأقليم أهميته كإقليم حدود ، وما أن توقفت التجارة بين الشرق والغرب من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى زالت أيضا الأبواب الداعية لقيام هذه المدن الصحراوية ، فاندثرت بسرعة ولم يبق منها سوى مدن شمال سيناء ، التى كانت بمثابة محطات للتوافل المسافرين بين الشام ومصر عن الطريق الساحلى ، وقد ظل هذا الطريق الساحلى عامرا بالتوافل حتى الوقت الحاضر ، لم يفقد أهميته منذ أقدم عصور التاريخ حتى الآن (١) .

ومما زاد فى أهميته إمكان الحصول على الماء الجوفى من عمق قليل على طول الساحل ، وقد اخترقت هذا الطريق الجيوش التركية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وسارت تلك الجيوش عن طريق رفح والعريش وبئر العبد فالتنطرة كما سارت عن طريق العوجا فالقسيمة فبئر الحسنة فالفردان على ضفة القناة الشرقية ، وقد نهبت هذه الغزوة أذهان البريطانيين إلى أهمية شبه الجزيرة الحربية فعبروا الطريق الشمالى ومدوا خطوط الكك الحديدية فى أثر جيوشهم الفاتحة لفاعطين ، بسواعد المتطوعين المصريين .

هذان هما الطريقان اللذان يعبران شمال سيناء ، أما إلى الجنوب من ذلك فيعبر شبه الجزيرة طريق الحج المشهور ، الذى يبدأ من شمال السويس (العجروود) ويمر بنخل وسط هضبة التيه ويتجه جنوب بشرق حتى تقب العقبة ، ويقال ان هذا الطريق بدأت أهميته بحج شجرة الدر عام ٦٤٥ هـ (٢) .

(١) رابع عباس عمار ، سبق ذكره ، من ص ٥ - ١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ وما بعدها .

(متصف القرن الثالث عشر الميلادى) ثم رحلة الظاهر بيبرس (٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م) ثم الناصر قلاوون (١٣١٩ م). ويبدو أن هذا الطريق لم يكن مطروقا الا في عصور الاضطراب التى كانت تنور فيها قبائل البجا على ساحل البحر الاحمر ، وتعرقل طريق الحج الجنوبي (طريق فقط أو قوص ثم عيذاب أو القصير) .

(د) القبائل البدوية في سيناء(*)

يبلغ عدد السكان البدو في شبه جزيرة سيناء حوالى ٤٠.٠٠٠ نسمة ، يقابلهم ٥٠.٠٠٠ حضرى ، هم سكان العريش وأبي سقل ورفع والقنطرة والطور ، ويسكن في مدينة العريش وحدها حوالى ٤٠.٠٠٠ نسمة من الحضرة .

وتنقسم سيناء من الناحية الادارية الى ثلاثة أقسام : قسم سيناء الشمالى ، ويشمل النطاق الساحلى من رفح الى القنطرة ، وقسم سيناء الأوسط ويشمل هضبة التيه ، وقسم سيناء الجنوبى ويشمل هضبة العجمة ، والمثلث الجنوبى من شبه الجزيرة .

ويسكن قسم سيناء الشمالى قبائل الرميلات ، والسواركة ، والجديرات والتغارسه والبيلى والدواغرة والعبادة والمساعد ، وتنقسم كل قبيلة بدورها الى عائلات .

فالرميلات تشمل أبو صبيح ، وأبو عياد ، وأبو عبد الله ، وأبو شيخة . والسواركة تشمل أبو داود ، وابن عوض ، ومريشد وابن عراجة وأبو عيطه والياضية تشمل الهرش ، وأبو عيافى وأبو مرزوقة وسيد احمد والأخارسه عائلة واحدة .

ويسكن سيناء الوسطى ، قبيلة الترابين وهى أقوى قبيلة في سيناء وتنقسم الى عدد كبير من العائلات أهمها الدلدلة ، والحسابلة ، والعويضات ، والقصار ، والعرجانى ، وألحرامية ، وأبو سحبان ، وابن جازى ، وابن زاهد ، والبداره

(٥) هذه المعلومات مستقاة من مشايخ البدو ومن بعض أهل العريش الذين يشغلون وظائف ادارية في المحافظة ، وهم يحكم عليهم على اتصال دائم بقبائل البدو ، ويمكن الثقة في معلوماتهم ، اذ أنهم أيضا يحكم عليهم ، بتميزهم اهتماما خاصا ، بتوزيع القبائل ومناطق تجوالهم ، واحصاء أسرها .

والجهامات ، وأبو نقيز ، والطيور ، والشنيات ، والبحيج . وهناك قسم كبير من الترابين في جنوب فلسطين أهمهم الصوفي ، وأبو ستة ، وأبو غالبية ، وأبو الحصين ، وأبو بكره ، وأبو عويلة .

أما قبيلة الاحيوات وهي تسكن قسم سيناء الأوسط أيضا فتشمل النجمات والحمدات ، والصفايحة ، والقصار ، والحناظلة ، والعقنان . ويسكن جنوب سيناء عدة قبائل صغيرة أهمها مزينة ، والطوره (نسب الى الطور) والعليقات والحراشة والصوانلة .

الى جانب هؤلاء ، هناك قبيلة العزازمة التي تسكن شقة ضيقة على طول الحدود المصرية الشرقية فيما بين جبل العمز شمالا وشرقي أرض الترابين جنوبا .

ويزعم عرب شمال سيناء جميعا فيما عدا الحويطات ، أنهم من نسل وائل جد بني عطية في شبه جزيرة العرب والمعازة في مصر^(١) ، الا أنه من الصعب تتبع نسب القبائل البدوية لتدخل عدة عوامل أهمها الفرق بين نظام القبيلة Tribe ؛ والعشيرة Clan (التي تسمى عائلة في سيناء) فالعشيرة جماعة من الناس تشترك في نسب واحد ، يرجع الى أصل واحد ، بينما القبيلة تتكون من عدد من العشائر لا يشترط فيها أن تكون ذات علاقة نسب الى بعضها البعض الآخر ، وقد يحدث أن تندمج عائلة أو عشيرة في قبيلة من القبائل أو تخرج منها لتندمج في قبيلة أخرى تبعا لظروف محلية مختلفة ، منها أن تحل بها هزيمة على يد قبيلة أقوى ، فتعرض للسبي ويفرط عقدها ؛ ومنها أن تفترق الى وسائل القوة المادية مما لا يسمح لها بالاستقلال القبلي ، كأن تجذب مراعيها وتتناقص أنعامها ، فتشتت عشائرها وتنضوي تحت ألوية قبائل أخرى تمتاز بالقوة والغنى والمنعة ، تدفع لها الحوة نظير حمايتها . وقد تنتقل زعامة القبيلة من عائلة الى عائلة أخرى ويصحب ذلك تغيير في اسم القبيلة ذاتها^(٢) ، ولذلك كان استجواب رؤساء العشائر ومشايخ القبائل عن أصول قبائلهم مدعاة في كثير من الأحيان الى الوقوع في الخطأ .

(١) Murray, G. W. The Sons of Ishmael, 1935, p. 242 ff.

(٢) المرجع السابق .

وتعتبر قبائل بلي أقدم العناصر العربية الموجودة في شبه جزيرة سيناء ،
وان كانت من أقلها عدداً وأصلها شأننا الآن ، وربما رجع مقامها في أرض
الحفار (شمال سيناء) الى القرون الأولى للمسيحية ، عندما كان للأنباط
مملكة واسعة تمت نفوذها الى شمال سيناء ، وقد اعتنق الأنباط المسيحية كما
اقتبسوا الثقافة الهلينية ، وتسمى أحد ملوكهم الحارثة باسم حبيب الاغريق
Philhellene هذا الى أن الدولة البيزنطية كانت تعهد الى بعض بطون
العرب في حراسة حدودها الشرقية وأشهرهم الغساسنة ، وأحلافهم من لحم
وجذام ، وهي بطون من كهلان ، وقد امتد نفوذ هذه القبائل من عمان
الى آيلة (العقبة) ومن هذه الى حدود مديرية الشرقية ، وكانت كلها كما
ذكرنا تدين بالمسيحية ، وقد وجدها الغزاة المسلمون في هذا الطريق عند
دخولهم مصر^(١).

ولكن بعد الفتح العربي الاسلامي لم تعد سيناء هدفاً في ذاتها للقبائل
المهاجرة ، اذ أن هذه وجدت في ريف مصر فيئا أغنى وأجدي عليها بالخير
العميم . ولذلك فقد اقتصرت أهميتها على كونها مجرد طريق عبور للقبائل
العربية المهاجرة الى مصر ، وقد ظل الحال كذلك حتى العصر المملوكي التركي
أى الى القرن الرابع عشر ، اذ أن المماليك ومن لف لفهم من العناصر التركية
(ابتداء من الدولة الطولونية) لم تكن تلاحظ بعين الارتياح الى ازدياد العنصر
العربي الصميم في مصر ، بل كانت لا تشجع الا العناصر التركية والشركية
وما اليها ، ومن ذلك الحين بدأت موجات عربية أخرى في تعمير شبه الجزيرة
نفسها ، بعد أن كانت مجرد طريق مرور .

وأهم التغيرات التي طرأت على توزيع القبائل في سيناء منذ الفتح الاسلامي
هما :

- ١ - أن جذام ولحم هاجرت من شبه الجزيرة الى مديرية الشرقية .
- ٢ - أن ثعلبة قوى شأنها في جنوب فلسطين وامتد نفوذها الى شمال سيناء
من القرن العاشر حتى الرابع عشر .

(١) عباس عمار ، سبق ذكره ، ص ١٠٤

٣ - منذ القرن الرابع عشر ضؤل شأن ثعلبة أمام ضغط قبائل أخرى من بني عطية ، لم يرد ذكرها في الكتابات السابقة لهذا العهد ، وهي السواركة والرايين ، الا أن بقايا ثعلبة لا يزال تمثلها قبائل ضئيلة الشأن الآن ، أهمها البلي والعائد ، وقد هاجر معظم هؤلاء الى ريف مصر .

٤ - كان السواركة يحتلون معظم شمال سيناء الى الجنوب والغرب من العريش الى أن ضغط عليهم الرايين والتياهة من الجنوب فانكشت منطقتهم (١) .

وبعد :

هذه هي سيناء ، الباب الشرقي لهذا البلد الأمين وحلقة الوصل بينه وبين أقطار العروبة الأخرى ، بينه وبين خزان العروبة الكبير شبه الجزيرة العربية ، وبينه وبين الهلال الخصيب ، منه وفدت الدماء الذركية التي تجري في عروق المصريين ، السلالة الحيزوية التي دفعت بالمدنية المصرية القديمة ، في عهد بناء الأسرات ، الى الأمام ، والتي يمثلها تمثال شيخ البلد ، والتي تكون أحد عنصري مصر من الناحية الانثروبولوجية . ومنها اتصلت بمهد الديانات التوحيدية الكبرى ، ومهبط الوحي في فلسطين ، ومنها وفدت العناصر العربية تبشر بالاسلام وتحمل لغة القرآن وفيها تكونت الحضارة العربية .

سيناء هذه تحتاج منا مزيدا من العناية لنهض بها عمرانيا واقتصاديا ، ولننصد منها الغزاة الاسرائيليين ، وانها بتاريخها المجيد المتصل بتاريخنا القومي منذ ٣٠٠٠ ق.م. لتحفزنا أن تلقى بالفرجة الى البحر ، كما قد فعل أسلافنا ، ليأخذ التاريخ مجراه الأصيل ، وتصبح سيناء مرة أخرى حلقة الوصل بين مصر وبلاد العروبة الأخرى .

(١) راجع المرائط المنشورة في المرجع السابق (عباس عمار) ص ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٥ .

التعليل في التاريخ

للككتور محمد ثابت الفزري

(١) العلية في العلوم الطبيعية . (٢) أمثلة من استعمال المؤرخين للعلية.

(٣) استبعاد نظريتي تين وكروتشه في التعليل في التاريخ . (٤) التعليل

التاريخي في ضوء العلية الناعمة (٥) التعليل التاريخي في ضوء العلية الخشنة .

نما تعنى به « فلسفة العلوم » تحليل التفكير العلمي وتتبع الخطوات التي يتبعها العلماء في اقامة علومهم المختلفة ، ومنها علم التاريخ .

وهو علم يحتل مكان الصدارة بين العلوم الانسانية لأنه ما من مسألة تثار فيها إلا ولها « تاريخها » الذي يلقي الضوء على حاضرها ، ثم هو علم فريد بين العلوم كلها انسانية وطبيعية ، لأنه ينفرد بأنه يدرس حوادث أو « وقائع » تمتاز بصفة « الانفراد » أو عدم التكرار ، لأنها وقائع ذهبت مع الماضي الى غير رجعة ، ولا يستطيع المؤرخ حيالها الا أن يستعيد « الآن » في ذاكرته وتخيلته وعواطفه وعقله ويؤلفها تأليفا « مثاليا » أي فكريا فحسب ، بحيث تبدو الواقعة التاريخية مزدوجة الزمن : الزمن الذي وقعت فيه وانقضى الى غير عودة ، ثم الزمن الذي يستحضرها فيه المؤرخ في مشاعره وذاكرته وعقله ، مما حدى بمفكر مثل أوكشوت (١) أن يستنتج من هذا الازدواج تناقضا في المعرفة التاريخية حين يقول : « ان التاريخ سلسلة متصلة من اثبات ماضٍ هو ليس بالماضي : ومن اثبات حاضر هو ليس بالحاضر » . هذا التناقض لاشك مرفوع ، وموضع الشبهة فيه بين ، ولكنه يشف عما للتاريخ من نوع فريد في وقائعه تميزه عن غيره من العلوم .

(١) Dakeshott في كتابه Experience and its modes

ان ما أريد بيانه في هذا البحث هو الطريقة العامة في فهم وتفسير الوقائع التاريخية .

في الطبيعيات انما تفهم الوقائع وتفسر عندما نتجح في نظمها أو درجها في الاطار الثلاثي المؤلف من « المكان » و « الزمان » و « العلية » . عندئذ تصبح الوقائع تامة التحديد ، وهذا التحديد هو ما نعينه عندما نقول ان واقعة طبيعية وقعت فعلا . غير أن الوقائع التاريخية تنتسب الى مرتبة أعلى من مرتبة وقائع الطبيعة وإلى عالم آخر غير عالم هذه الأخيرة . هنا أيضا يجب أن نحدد مكان وزمان الوقائع التاريخية ، وهو تحديد لا يختلف عما يمارسه علماء الطبيعة . ولكن عندما تنتقل الى البحث عن « علل » الوقائع أو أسبابها أي عندما نصل الى البعد الثالث من اطارنا الذي يحدد فهم الوقائع التاريخية فسجد أنفسنا أمام مسألة جديدة وعسيرة ومختلفة عما يحدث في الطبيعيات ، ونحن اذا عرفنا كل وقائع التاريخ في أمكنتها وأزمته فحسب فلن نكون بذلك قد فهمناها واستقصيناها تماما لأنه بقي بعد ذلك نظمها أو درجها في نطاق العلية والمعلولية لكي نراها على حقيقتها الحركية متولدة بعضها عن بعض ، وعلى صورة حياة عاشها الناس فعلا نعتلها نحن لأنها تعبر عن تلك الحياة الانسانية الفعلية ، واذا حدث أن جهلنا تماما تلك العلل والأسباب التي ترتبط بها حوادث التاريخ فيصبح التاريخ عملا جنونيا وغير قابل للمعقولة في صورة معرفة أو علم ، اذ أن المعرفة لا تكون جديرة باسم العلم الا اذا كشفت لنا عن العلل والأسباب فيما تتحدث عنه من وقائع .

ان المكان والزمان لا يثيران مشكلة فلسفية في البحث التاريخي ، فتحديدهما رهن بالوثائق والمقارنات والاستنتاجات التي يألفها المؤرخون . أما التعليل فيبدو أنه المشكلة الكبرى في فهم التاريخ والمعرفة التاريخية ، ومن ثم سنحصر الكلام هنا في العلية وحدها التي هي لب تفسير أو فهم الوقائع في التاريخ وفي غير التاريخ من علوم .

ربما لا توجد فكرة لقيت من عناية الفلاسفة منذ أن كانت الفلسفة ما لقيت فكرة العلية لأنها فكرة متضمنة حتما في كل كلام في « الوجود » وفي كل كلام في « المعرفة » وهما الفلسفة يحذفانها ، والذي يعيننا الآن

من قبض مناقشتهم أنها فكرة معقدة غاية التعقيد ، وأن القول البسيط بأن « لكل معلول علة » يختلف عند التطبيق والبحث من مجال الى آخر من مجالات المعرفة الإنسانية بحيث تختفى تماما تلك الصياغة الأولى البسيطة للعلية .

فى العلوم الطبيعية عند ما نقول ان هناك علاقة « علية » بين ضغط الغاز ودرجة الحرارة مثلا (قانون ماريوت) فانما نفهم من العلية علاقة ثابتة بين طرفين بحيث اذا تغير أحدهما تغير الآخر تبعاً لذلك ، أو فى عبارة أخرى نستعيرها من لغة الرياضة التى يستعملها العلم نفسه نفهم منها « دالة » (Fonction) لمتغيرين (Variables) . هنا تتلاشى تماما فكرة ضرورة « سبق » العلة على معلولها كما يتلاشى تماما اختلاف العلة عن المعلوم وهما الفكرتان اللتان تسودان تصورتنا العادى البسيط للعلية ، ذلك لأن العلة والمعلول هنا يتبادلان موضعيهما بحيث لانرى وجها لتسمية أحدهما دائما علة وآخرهما دائما معلولا .

وفى الكيمياء اذا قلنا أن ذرة من الأكسجين اذا اتحدت مع ذرتين من الأليروجين تكونت ذرة من الماء ، فسرى بالاضافة الى نتيجة التحليل السابق الدال على تبادل العلة ومعلولها لموضعيهما أن فكرة العلية تعتمد تعقيدا جديدا اذ تتضمن أيضا فكرة « المساواة » بين طرفين .

هذا وفى المثالين السابقين اللذين أخذناهما من علمين مختلفين كالطبيعة والكيمياء فانما نفهم من العلية جملة « القانون » العام : فالمثل الأول هو قانون حجم الغاز والثانى قانون تركيب الماء .

نرى من هذه النظرة السريعة كيف ابتعدت المعرفة العلمية فى استعمالها « للعلية » عن الصيغة البسيطة القائلة بأن لكل معلول علة ولكن دون أن تخل بها مع ذلك أو تخرج عنها ، وكل ما فى الأمر أن فكرة العلية قد ازدادت فيها تعقيدا ، وكذلك الأمر فى المعرفة التاريخية ، فهى وان اختلفت فى تطبيقها لتلك الصيغة البسيطة العامة للعلية كما اختلفت الطبيعة عن الكيمياء

فإنها - أي المعرفة التاريخية - لا تُحل بالعلية ولا تُخرج عنها أو تُعيد . ولكن تحليل العلية في التاريخ ليس بذلك الوضوح الذي صادفناه في المعرفة العلمية البحتة .

فأولا وقبل كل شيء ، ليست الألفاظ المعبرة عن العلية في التاريخ واضحة وموحدة كما هو الأمر في المعرفة العلمية لأنها لا تعبر عن « قوانين عامة » فنحن نجد في التاريخ ألفاظا كثيرة تدل عليها مثل : « لأن » ، « لكي » ، بسبب ، تحت هذه الظروف ، كانت الظروف مواتية : كانت فرصة مناسبة ، ليس من الممكن في مثل هذه الظروف ، ليس بمتغرب أن ، من الطبيعي عندئذ ، يؤدي الى ، يجعل ، عمل على ، العوامل ، يبحث على ... الى غير ذلك مما يشهد بثروة واسعة من العبارات المعبرة عن العلية واستعمالها عند المؤرخين .

وفيا إلى أمثلة من كتابات المؤرخين أنفسهم :

١ - « توفي لويس الرابع عشر مكروها ... لكونه » أفقد فرنسا المكانة الممتازة التي اكتسبتها " بفضل " سياسة الكرادلة » (١).

٢ - « كانت الظروف مواتية » لثورة فلم تكن للحكومة قوة عسكرية معدة وكانت الطبقة العاملة تمر بمرحلة بطالة حادة » (٢).

٣ - « لقد نشأ جيل من الثوار العنيفين " لأن " انعدام الحريات الذي أعاق تكوين ثقافة مستنيرة وناقدة وجه عقول الطلاب اما الى أحلام يقظة واما الى عقلية مجردة فجة » (٣).

٤ - « إنما " نشأت " الحرب الكبرى كحادث في تاريخ الانسانية عن السيكولوجية الانسانية » (٤).

(١) Ch. Seignubos في Histoire du Peuple Français

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٥

(٣) B. Croce في Hist. of Europe in The 19 th Century ص ١٨٨

(٤) Leonard Woolf في After the Deluge ص ٢٧

هـ - « لقد تفككت التقاليد القديمة (في أوروبا) " لأن " الإسلام
حطم الوحدة القديمة لحوض البحر الأبيض المتوسط » (١).

نلاحظ الآن أن تلك التعليقات لا تعبر عن قوانين عامة وقضايا كلية
كالثان في العلوم الطبيعية ذلك لأن التاريخ كما قلنا يمتاز بميزة « الانفراد »
في وقائعه ويتحدث عما هو منقرض في الماضي الذي لا يعود فلا وجه اذن
لبحثه عن قوانين عامة . ومع ذلك فان تعليقاته تلك تبدو أنها في الوقت
عينه تطبيقات لقوانين عامة وقضايا كلية مضمرة في تفكير المؤرخ ،
وهذا ما تنبه اليه بوير (٢) وعبر عنه على الوجه الآتي : « انما الحادث (في
التاريخ) هو علة لآخر بالنظر الى قانون عام ما ، وذلك مهما كانت تفاعلة
القوانين التي من هذا النوع : بحيث أننا عادة نقبلها مضمرة بدلا من أن
نستعملها صراحة ، فاذا فسرنا مثلا انقسام الأول لبولنده عام ١٧٧٢
بأن قلنا انها لم تكن تستطيع أن تقاوم القوى المؤتلفة لروسيا وبروسيا والناس
فنحن نضمر في هذا التعليل قانونا عاما نافها كالاتي : اذا كان من بين
جيشين يمتاز أحدهما بالثوق العددي العظيم في رجاله فان الجيش الآخر
لن يربح أبدا . مثل هذا القانون ربما أمكن اعتباره من قوانين علم اجتماع
القوى الحرة ولكنه نافه الى حد أنه لا يثير مشكلة عند طلاب الأجتماع
أو حتى يستلفت انتباههم » .

ليست اذن تعليقات المؤرخين قوانين عامة كما في الطبيعيات وان كانت
في الوقت عينه تطبيقات لقوانين عامة حتى ولو كانت بدية نقبلها مضمرة
في الذهن دون استعمالها صراحة في التأليف كما يتضح من المثال السابق .

والآن قبل أن نشرع في بيان طبيعة التعليل عند المؤرخين يجب أن نستبعد
مقدما تصوريين أو مذهبيين خاصتين في العلية في التاريخ هما تصور زين
وتصور كروتشه .

(١) Henri Pirenne في Mohammed et Charlemagne ص ١٨٥

(٢) Popper في Open Society ص ٢٤٠

فى فصل عن نشأة وأصمحلل فلسفة التاريخ من الكتاب القيم المسمى
نظرية وتاريخ كتابة التاريخ للفيلسوف بنديتو كروتشه (١) ، بعد أن اقتطف
المؤلف فقرة تين الموجزة لمذهبه فى منهج التاريخ وهى « بعد جمع
الوقائع ، البحث عن العلل » (٢) يأخذ كروتشه فى نقد مذهب تين نقدا
لم يوفق فيه كثيرا : فهو يبدأ بتناول فكرة تين فى البحث عن العلل فيقول
نحن نعلم ماذا يحدث عندما نبحث عن ربط واقعة بأخرى كعلة لها ثم عن
ربط هذه الأخيرة بعلة سبقها وهكذا . فسيفتح أمامنا بذلك تراجع لانهاى
ببحث لن نتجبع البتة فى الوقوف على « العلة الأولى » التى تربط اليها السلسلة
التي كونها من العلل والمعلولات . وواضح أن اعتراضا كاعتراض
كروتشه هذا من نوع فلسفى قديم فى غير موضعه هنا وأيضا هو اعتراض
عقيم لأنه أولا يقدم لنا صورة حسية عن علل متتابعة تكون سلسلة ممتدة
الى ظلام الماضى ، ولأنه ثانيا يطبق على تلك الصورة الفكرة القديمة لتراجع
لاينتهى ، ولأنه ثالثا وأخيرا يوهم بأن هناك خطأ ما فى التفسير بالعلية ما لم
نعثر على « العلة الأولى » . ونحن اذا قبلنا هذا الوهم الأخير فسنعجب كيف
يمكن التحليل اطلاقا فى أى علم من علوم لا فى التاريخ وحده لأننا لن نجد
أبدا تلك العلة الأولى التى تتحدث الفلسفة وحدها عنها .

فلتجاوز اذن هنا عن اعتراضات كروتشه على تين ولنفحص بدورنا
عن نقط الضعف فى نظرية هذا الأخير التى تعرف بالنظرية الوضعية
فى التفسير التاريخى اذ يجب أن نتذكر أن تين هو تلميذ أوجست كونت
صاحب الوضعية ومنشئها .

أن نقطة الضعف فى نظرية تين ترجع الى ثلاث نقط هامة : أولاها
أنه صور عمل المؤرخ على نحو غريب حين تخيله كمن يتصيد الوقائع فى كل
مكان كتصيد عالم الحشرات لفراشاتة ، أعنى كما لو كانت وقائع التاريخ أشياء
قائمة بذواتها هنا وهناك ، وهو أحيانا لحسن حظه يعثر عليها فيجمعها .

(١) Theory and History of Historiography فى D. Croce

(٢) انظر H. Taine فى Philosophie de l'Art

والنقطة الثانية هي أن المؤرخ بعد أن يفرغ نهائيا من جمعه لوقائمه يأخذ في فحصها بدقة وعن قرب كما يفحص العالم خلال ميكرومكوبه لعله يتكشف عن خيوط العلية والمعلولية التي تربط بين ما جمع . والنقطة الثالثة هي أن تين فصل نهائيا بالقبلية والبعدية بين المرحلتين السابقتين ، بين جمع الوقائع والبحث عن العلل .

وسبب الخطأ في النقطة الأولى هو أن الوقائع التاريخية ليست موجودات قائمة هنا وهناك حتى يبدأ المؤرخ عمله « بجمعها » وإنما يبدأ المؤرخ عمله بالرجوع الى وثائقه المختلفة أيا كان نوعها ليستق منها وقائمه ويؤلفها تأليفا عقليا . أما سبب خطؤه في النقطتين التاليتين فهو الفصل بينهما على الوجه الذي توهمه تين في حين أن الواقع هو أن المؤرخ قلما يعلم واقعة تاريخية دون أن يعلم في الوقت عينه سببها اذ الوقائع تأليفات عقلية يستنبط بعضها من بعض وترتبط ارتباطا باطنيا : فهو لا يعلم أن نابليون أبحر بحملة من طولون الا وقد سبق الى فكره صلة ذلك بغزو مصر ، ولا يعلم أن محمد علي دعا المماليك الى القلعة الا وقد صاحب ذلك في فكره واقعة أخرى هي الغدر بهم ، فالوقائع التاريخية اذن ليست منفصلة احداها عن الأخرى في قوامها الذاتي كوقائع الطبيعة وانما هي معطاة له في تجربته الذهنية ومشاهداته العقلية كوحدة أو ككل متصل مرتبط بروابط العلية بضئء بعضها بعضا وتفسر كل واحدة منها غيرها كسابق أو كلاحق . وحين لا يرى المؤرخ ذلك الارتباط في وقائمه فانه يرجع الى وثائقه والى تأليفاته الفكرية للوقائع ليتكشف فيها عما لم يره واضحا . وهنا فقط يختلف مؤرخ عن آخر فيما يعثر من أسباب وعلل بعيدة نتيجة لتعدد الوقائع التاريخية ولاختلاف تأليفاتها الفكرية الناجمة عن اهتمام المؤرخ بجانب من موضوعه دون جانب آخر وأيضا عن اختلاف ثقافته ووجهة نظره ، وهو في كل هذا لا يخرج عما تتضمنه الوقائع ذاتها وتشير اليه من علاقات علية . هذا هو ردنا على النقطتين الأخيرتين من نظرية تين ومنه يتضح أن البحث عن العلة في التاريخ ليس منفصلا عن ادراك الوقائع ذاتها ولا لاحقا له .

غير أن كروتشه الذى لم ير هذا الرأى والذى نقد العلية عند تين على أساس استحالة الوصول الى العلة الأولى انتهى الى نظرية غريبة هي من صميم النزعة التصورية (Idealisme) لأنها نظرية ترفض العلية بتاتا في فهم التاريخ بسبب استحالة الوصول الى العلة الأولى كما يؤخذ من نقده على تين . وشأنه في رفض العلية اطلاقا على هذا الأساس شأن من لقي مرة ذنبا في جلد شاه فلم يعد يصدق بعد ذلك وجود شاة ما ، بعبارة أخرى لما لم يعثر على العلة الأولى لم يعد يصدق العلية اطلاقا . فكروتشه يقول في نظريته بعد أن استبعد العلية : « أن الواقعة عندما تمثلها أو نعقلها تاريخيا لا علة لها ولا غرض خارجا عن ذاتها ، وإنما هي في ذاتها فحسب » ، ومطابقة لكيفياتها الحقيقية وحقيقتها الكيفية » (١) . وهذه العبارة التي تبدو معقدة انما معناها بكل بساطة أن الواقعة التاريخية لا علة لها من خارجها لأن مجرد استحضار المؤرخ لها في ذهنه واحياها لها على حالها في عقله هو في الوقت عينه رؤيتها كيف حدثت أى يتضمن تفسيرها ، بمعنى أن كيفية حدوثها جزء منها وصفة من صفاتها المؤلفة لحقيقتها في الذهن . تلك هي النظرية التي أراد بها كروتشه أن يتجاشى صورة ملال من الوقائع لا تنهى الى علة أولى فانتهى الى حذف العلية اطلاقا في تصورية مقفلة في حدود كل واقعة تاريخية على حدة . والضعف في نظرية كروتشه هو ضعف كل تصورية مطلقة اذ أن كروتشه خلط نهائيا بين تصور الواقعة في الذهن وبين التعبير أو الحكم الذي يمارسه المؤرخ في كتابة التاريخ ويعبر به عما حدث خارج ذهنه والحكم وحده هو الذي يفصل ما أحله التصور ويخرج العلة عن معلولها المحملين في تصور واحد . ومن ثم يجب أيضا استبعاد نظرية كروتشه .

بعد أن استبعدنا نظريتي تين وكروتشه نعود الى المسألة المرجأة منذ حين بشأن طبيعة التعليل أو التفسير في التاريخ .

لقد وضعنا المؤرخ المعاصر أرنولد توينبي (٢) أمام القضية المنفصلة الآتية وهي أن التاريخ اما وليد « الصدفة العمياء » واما انه خاضع « لقوانين حديدية » ، وكأنه بذلك لا امكان لقضية ثالثة غيرهما ، والحقيقة أن التاريخ

(١) B. Croce في المراجع السابق ذكره ، ص ٧٦

(٢) A. Toynbee في Civilisation on Trial

ليس وليد الصدفة العمياء كما أنه ليس خاضعا لقوانين حديدية إذ ليست في التاريخ قوانين ما ولا يهدف التاريخ الى شيء منها وإنما التاريخ يخضع فحسب الى قانون أوحد هو قانون العلية في عمومته ووحدانيته .

ولكن عندما نشرع في تحديد العلية في التاريخ ونفحص طبيعتها واستعمالاتها عند المؤرخين فنسجد أن الأمر قد اختلف فيها عما قدمناه عن العلية في العلوم الطبيعية ، كما سنجد أيضا قد اختلف في التاريخ نفسه وهذا الاختلاف الأخير الذي يهتنا هنا بصفة خاصة ليس هو اختلاف مؤلف عن آخر وإنما هو اختلاف في جوهر العلية التاريخية ذاتها الى علية « فاعلة » (أو ميكانيكية) وإلى علية « غائية » (أو عضوية) كما يقول الفلاسفة ، ولكن يجب التنبيه فورا الى أن المعرفة التاريخية لا تأخذ بأحدهما دون الأخرى وإنما تستقيم علما بهما معا في آن واحد مع ما بينهما من تفاوت كبير ، ومنشأ هذا الازدواج في العلية هو مجرى التاريخ نفسه : فنحن اذا نظرنا اليه من خارجه كتتابع زمني للأحداث فلا مناص من أن نضمنه علية فاعلة بمقتضاها تتتابع الأحداث مؤثرة بعضها في بعض ، وأما اذا نظرنا اليه من باطنه كأنهار من الأحداث تنبع أصالة من أعماق الأفراد والمجتمعات ، أعني من الانسان وحده ، فلا بد أن نضمنه كعلة مفسرة له البراعث والأهداف الانسانية البحتة أعني العلية الغائية ، والنظرتان بعد متتامتان متلازمتان أشد التلازم ولكن ينبغي علينا هنا تبسيطا للعرض أن نفصل بينهما وأن نعالج أولا تفسير التاريخ في ضوء العلية الفاعلة .

نحن لا نجعل الاعتراضات الوجيه التي أثارها الفيلسوف ديفيد هيوم ضد فكرة العلة الفاعلة ، فلنستبق إذن من معانها العديدة مجرد علاقة ما بين سابق ولاحق وأقول علاقة « ما » لكي أمتبعد من هذا البحث كل مشكلة ميتافيزيقية في ماهية تلك العلاقة .

يجب أن نلاحظ الآن الملاحظة الهامة الآتية وهي أن فكرة العلية بهذا المعنى المحدد ليست هي الفكرة التي تثير صعوبة عند النظر في منهج التفسير عند المؤرخين ، وإنما الصعوبة كلها تركز في فكرة « السابق » التي

ضمناها تحديد العلية . فهذا السابق عند البحث والتطبيق في التاريخ هو المشكلة كلها التي تقسم المؤرخين أنفسهم الى مدارس ومذاهب في التاريخ ، كما أنها هي المشكلة التي تحفز المؤرخ الى التجديد في كتابة التاريخ وتجعل لكل مؤرخ طرافته وأصالته .

إن الفلاسفة الذين كثيرا ما ضللهم لفظ علة ربما يضلهم الآن أيضا لفظ « السابق » فيسبق الى أذهانهم أن وراء كل موقف تاريخي توجد علة معينة بالذات. سبقت ذلك الموقف وأدت اليه ويكفي المؤرخ أن يقف على هذا السابق الذي أختفى عن الأنظار ليفهم الموقف التاريخي كله ، ولكن مثل هذا التصور وهم بجانب حقيقة البحث عند المؤرخين ، إذ أن هؤلاء إنما يبحثون من وجهات نظر مختلفة وفي ضوء اهتمامات متباينة وعلى أبعاد زمنية ومكانية متفاوتة من أحداث التاريخ وسارحها ، كما تنوع أيضا ثقافتهم التي لا بد أن تنعكس صورها على دراساتهم التاريخية ومن ثم فلا غرابة تبعا لتلك الاختلافات كلها عندهم أن لا يرى المؤرخون نفس « السابق » أو العلة لكل حادث من أحداث التاريخ . فالتفسير الأصل المبتكر يختلف من مؤرخ الى آخر نتيجة لاصالته في مشاهدة وقائعه . بهذه المناسبة يقول جاردنر^(١) : « ان قيمة التأليف التاريخي الأصل إنما هي في إبراز علاقات ما بين وقائع تاريخية مؤكدة وثيقة ، مثلا بين ثورة عام ١٨٤٨ والعوامل الأخرى التي لم يسبق أن أعترف بها مؤرخ من قبل بأنها سبب لها . فكتاب ماركس المسمى الثامن عشر من برومير لويس بوناپرت هو مثال لهذا » . ويتضح من هذا كم نحن بعيدون في التاريخ عن تصور سابق بعينه كعلة وحيدة لحادث معين . فأول تحديد لما أسمىناه « السابق » في التفسير التاريخي هو أنه لا سابق بعينه أو لاعلة وحيدة بالذات لحادث معين .

(١) Gardner في Explanation in History والاشارة هنا الى نظرية ماركس في أن لتلك اثورة أسبابا اقتصادية بحته على خلاف ما رأى غيره من المؤرخين الذين أرجعوا الثورة الى خلاف سياسي بين البونابرتيين والبر بونيين .

تحديد آخر هو ما يدخله المؤرخون من تمييز في السوابق بين « السبب الحقيقي » و « السبب المباشر » أو « الفرصة المواتية » . وفي هذا التمييز الهام عند المؤرخين يقول ريموند أرون (١) : « لتأخذ مثالا ثورة عام ١٨٤٨ فان سببها المباشر . وهذا تعبير شائع - هو اطلاق النار في شوارع باريس ولا يشك أحد في تنابع هذين الحادثين . ولكن البعض يقلل من شأن حادث اطلاق النار ويقول لو أنه ما حدث قط لما امتنع مع ذلك انفجار الثورة . ومثل هذا القول لو عبرنا عنه بدقة فانه يساوى القضية الآتية وهي اننا اذا حذفنا ذهنا حادث اطلاق النار فان السوابق الأخرى في مجموعها هي « سبب حقيقي » في احداث الثورة . أما السبب المباشر فليس الا « الفرصة المواتية » لحادث ما وذلك عندما يرى المؤرخ أن هذا الحادث لا محالة واقع في ضوء الموقف التاريخي كله » . ومن هذا يتضح تعقيد آخر في فكرة السابق عند ما نميز فيها بين السبب الحقيقي والسبب المباشر .

ومن جهة أخرى كثيرا ما يتعدد « السابق » عند المؤرخين اذ هم يعطون أسبابا عديدة لحادث بعينه مهما كانت درجة بساطته . ولكنهم أيضا كثيرا ما يميزون في كثرة السوابق بين السبب الحقيقي أو السبب البعيد أو جذور الحوادث وبين الأسباب الأخرى المساعدة . وليس لهم في هذا التمييز أى سند أو علامة غير نوع اهتمامهم والتفاناتهم ودرجة ثقافتهم ووجهات نظرهم . فقد يؤكد مؤرخ أن حادث مقتل أرشيدوق النمسا في سراييفو عام ١٩١٤ ليس السبب الحقيقي للحرب الكبرى الأولى بينما يؤكد صحنى ولا أقول مؤرخا يكتب افتتاحية غداة اشتعال الحرب بأن الموقف الدولي انما تأزم اذ ذلك بسبب ذلك الحادث نفسه . وهو لاشك يحق باعتبار أن اهتماماته انما هي منحصرة في تلك الفترة التي تأزمت فيها الأمور الدولية فجأة . ومن الخطأ الاعتقاد بأن المؤرخ والصحنى يتناقضان عندما يؤكد المؤرخ بدوره أن حادث سراييفو ليس السبب الحقيقي للحرب اذ هو يرى الحرب من زاوية أعم وفي مستوى اهتمامات والتفانات متباينة . الواقع أن مسألة لماذا اشتعلت الحرب الكبرى الأولى

مسألة يمكن الاجابة عنها عند المؤرخين باجابات مختلفة : اذ يمكن أن يجاب عنها في مستوى البواعث والأغراض ونقط الضعف عند الأفراد الذين أداروا مسرحها ، ويمكن أن يجاب في مستوى السياسات القومية وتقاليدها كل دولة ، ويمكن أن يجاب في مستوى الأحلاف والمعاهدات والتوزيع الجغرافي للدول فوق رقعة أوروبا ، ويمكن أن يجاب في مستوى الصناعة والمنافسات التجارية والاستعمارية ، وغير ذلك . ولكن مهما تعددت السوابق عند المؤرخين ومهما اختلفوا في تحديد « السبب الحقيقي » فانه من المؤكد أن ذلك التعدد ان هو الا أشعة متامة ومتضامنة في اضاءة الأحداث وتفسيرها بعلمها الفاعلة لها .

هذا كله يقودنا الى نقطة أخيرة وهامة هي أن فكرة « السابق » عند بعض المؤرخين لاتتخذ أحيانا كثرة تقسيما من تلك التقسيمات فلا تنقسم الى سبب حقيقي وفرصة مواتية ، ولا تعدد في سلسلة من الأسباب بعضها هام وبعضها أقل أهمية ، وانما تنحصر في نوع معين من النظم الاجتماعية يفسر في ضوءه نوع أو أنواع من الأحداث والنظم . وهذا ما يمكن تسميته « بالنظريات » في التاريخ . وأحيانا يعتبر ذلك النوع المعين من الأحداث والنظم مفتاحا عاما لكل الأحداث والنظم الانسانية طوال قلب التاريخ وهذا شأن النظرية الماركسية مثلا التي تربط بين وسائل الانتاج الاقتصادي كعلة وحيدة وبين نشأة وتطور النظم السياسية والاجتماعية والحربية والثقافية والدينية والحلقية والقانونية كمولولات .. من هذا النوع من التفسير للسابق ما يقيمه المؤرخون أيضا من علاقات عليا بين الكالينية ونمو الرأسمالية الحديثة ، أو بين ذبوع الآراء الديمقراطية في القرن الماضي والحركات الوطنية أو بين الرق عند الرومان ونشأة المسيحية ، أو بين التنافس على الأسواق وقيام الحروب العالمية . ومثل هذا التعليل عام جدا ويعرض المؤرخين الى الانقسام الى مدارس تدّين كل منها في التفسير التاريخي بمذهب أو فكرة ثابتة كالمدرسة الاقتصادية أو المدرسة الاجتماعية أو حتى المدرسة السيكلولوجية .

بما تقدم يتضح أن حوادث التاريخ ترتبط في تسلسلها الزماني برباط ما يسميه الفلاسفة العلة الفاعلة : فالحدث المتقدم زمانا يؤدي الى ما يعقبه زمانا .

ولكن التاريخ لا يتم فهمه الفهم الصحيح ولا يمثل العقل كأحداث انسانية الا اذا فهمناه أيضا في الاتجاه المضاد لجرى الزمن ، فنأخذ ما هو أخير زمانا كعلة لما سبق أو كهدف وغاية له ، وهذا ما يسميه الفلاسفة « العلة الغائية » وما يتحدث عنه المؤرخون بألفاظ مثل البواعث والأهداف والمقاصد والرسالة وما شابه ذلك من مرادفات الغائية مما يجعل التابع الرئسي أمرا معقولا ، ومن ثم يختلف المؤرخون عن علماء الطبيعة الذين لا يتكلمون عن غايات وأهداف لاعتناقهم العلية الميكانيكية وحدها اختلافا كبيرا في تطبيق مبدأ العلية والامتداد به الى شمول الغاية .

ولكن يجب أن نكون حذرين غاية الحذر في هذا الامتداد الحديد لمبدأ العلية عند المؤرخين ، ذلك لأن المؤرخ الحق كما تتصوره الآن « موضوعي » وليس ذاتيا بمعنى أنه لا يعبر بتابع الأحداث هدفا وغاية من عنده فيجانب بذلك روح العلم الموضوعي . وانما كل الذي نريد أن نحنيه بالغائية عنده وفي استعماله هو فقط أن آخر مراحل الحوادث هو الذي يلقي ضوءا على ما تقدمها ، وأن الختام يفسر المقدمات وأن النهاية تجعل البداية أمرا معقولا . لقد بين هذا الفهم الضيق المحدود لفكرة « الغائية » الفيلسوف كانط (١) عندما تحدث عن أفلاطون فقال « انه ليس من غير الطبيعي .. أن نجد أنصنا أكثر فهما له من ذاته . اذ أنه لما لم يكن قد حدد تصوره بدرجة كافية فانه أحيانا قد عبر أو حتى فكر ضد هدفه » . والواقع أن تاريخ الفلسفة يرينا بوضوح أن التحديد التام لتصور فلسفي جديد قلما يكون من عمل صاحبه الذي أدخله أولا في الفلسفة ، وأن معناه التام لا يفهم الا في ضوء نصيجه التام والأخير عند لاحقيه أي في الهدف الأخير لنموه في التاريخ .

ولا يختلف في هذا التاريخ السياسي عن تاريخ الأفكار . فما ينطبق على تفسير وفهم تصور فلسفي أو فكرة علمية ينطبق تماما على تفسير شخصية سياسية أو نظام سياسي .. لقد كتب فردريك جوندولف (٢)

(١) Critique de la Rais. Pure J. E. Kant

(٢) Caesar ... J. F. Gundolf

كتابا بأكمله لا عن قيصر وإنما عن اختلاف تفسيرات المؤرخين لأهداف
قيصر السياسية وفهمهم لرسالته كرجل دولة وذلك من أقدم العصور
إلى الآن .

وحتى في حياتنا السياسية والاجتماعية يوجد الكثير من النزعات
والآراء الهامة التي تبدأ مضمرة غير صريحة ولا تبرهن على قوتها أو
لا تصل إلى كامل معناها ونضجها إلا في مرحلة لاحقة . ففكرة سياسية
أو برنامج اجتماعي أو وعي قومي إنما يصبح في النهاية صريحا وموعيا بها
في المجتمع بعد فترة من الاضمار والغموض في نقطة البداية ، وتلك النهاية
الصريحة هي « الغاية » التي يسير نحوها تطوره والتي تضي معقولة
على تتابع مراحل التاريخ منذ نقطة البداية . يؤكد مؤرخ الانجليزى
هو موريسون (١) في تاريخه عن الولايات المتحدة بأن الكثير مما انتهى
إليه تاريخ أهل المهجر الأمريكى إنما يلقى ضوءا ناصعا على تاريخ وطنه
الانجليزى ويكشف صراحة عن الكثير مما كان مضمرا في التاريخ
الانجليزى ذلك لأن الكثير من آراء المهجر السياسية ومعتقداتهم يمكن
تبعها إلى أصولها في إنجلترا . ففي هذه الأخيرة نشأت وقامت تلك الآراء
والمعتقدات خلال القرون رغم ما نالها من انتهاك وانتقاص على أيدي
ملوك التودور وأرستقراطية الموج . ولكنها وجدت في المهجر الأمريكى
فرصة لنمو حر طبق فأنثرت ثمرها . فثلا نجد من تلك الآراء والمعتقدات
ما دخل في صلب وثيقة اعلان حقوق الانسان الأمريكية ، كما نجد نظما
نسبها إنجلترا على حين أنها بقيت ونمت مع تغير طفيف في الولايات
المتحدة إلى منتصف القرن الماضى . وختم موريسون هذا كله بقوله :
« لقد كانت رسالة لا شعورية للولايات المتحدة أن تجعل صريحا ما كان
مضمرا لفترة طويلة في الدستور الانجليزى ، وأن تثبت أيضا قيمة مبادئ
نسبها إلى حد ما إنجلترا جورج الثالث » .

لم تغد فكرة العلية الغاية بعد الذى تقدم غامضة ولكنها ستجد تدعما
أوفى فيما يلي . ذلك لأنه في التاريخ السياسى بصفة خاصة وأكثر مما في
تاريخ الأفكار العلمية والنظم الاجتماعية نجد أن الذى يهمنى ليس مجرد

الوقائع التاريخية وحدها . فتحسن لا نود أن نفهم الحوادث التي تمثل على مسرح التاريخ فحسب بل نود أن نفهم الممثلين أيضا ، نود أن نفهم الأفعال وقا عليها . ولا شك يتوقف فهمنا لوقائع التاريخ على تصورنا وفهمنا للأشخاص الذين شاركوا فيها : فما أن نرى هؤلاء الأشخاص في ضوء جديد حتى يتبع ذلك تغير في معنى الوقائع ذاتها وفهمنا لها . ولذلك فإن رؤية تاريخية صادقة للماضي أمر لا يتيسر بدون معاودة التفسير والتجديد المتواصل فيه . ان كتاب المؤرخ الايطالى فريرو^(١) يختلف في كثير من النقط عن الوصف الذي جاء به المؤرخ الألمانى مومسين^(٢) عن نفس العصر . . وهذا الاختلاف مرجعه تصور كل من المؤرخين لشخصية شيشرون . ولكي نكون حكما عادلا عن شيشرون لا يكفي أن نعرف كل الوقائع المتعلقة بقصليته وما قام به من دور في مؤامرة كاتالينا أو من دور في الحروب الأهلية بين قيصر وبمبي . فكل تلك الأمور تظل مرية وغامضة اذا لم نعرف « الانسان » الذي هو شيشرون ، أعنى اذا لم نفهم شخصيته وصفاته . وفي سبيل هذا على المؤرخ أن يفيض رموزا أخرى غير حوادث التاريخ السياسية اذ يجب أن يستجلى خطب شيشرون وفلسفته ورسائله الى أخته تولىا وإلى أصدقائه وأن يستشف بمشاعره خلال حرارة أسلوبه هنا وفتره هناك ومن حسناته ومساوئه شيئا عن شخصية شيشرون . بعد ذلك كله فقط يمكن للمؤرخ أن يكون صورة صادقة لشيشرون السياسى ولدوره فوق مسرح السياسة فى روما . فالكشف عن الشخصية التاريخية هو الذى يلقى الضوء كله على البواعث والأهداف التي تفسر حوادث التاريخ تفسيرا غائيا اذ الأشخاص هم في آخر الأمر منبع التاريخ وأحداثه وهم خاتمة المطاف لتقلباته .

للافاضة فى هذه النقطة الأخيرة المتعلقة بالأشخاص كمنيع لأهداف التاريخ وغايات حوادثه أود أن أسوق مثالا آخر من كتاب فريرو السابق الذكر . فن أهم حوادث التاريخ الرومانى التي حسمت فى مصير روما

(١) Y. Ferrero فى Greatness and Decline of Rome (١٩٠٨)

(٢) Roman History لـ Mommsen

بل وفي مصير العالم كله اذ ذاك موقعة أكتيوم . والرواية المألوفة عنها هي أن أنطونيو خسر تلك المعركة لان كليوباترة التي خافت عاقبتها وثشت منها مقدما ولت هاربة منها بأسطوحها الكبير الى مصر فآثر أنطونيو اللحاق بها تاركاً وراءه جنوده وأنصاره من شيوخ روما من أجل حبه . فاذا كانت تلك الرواية التقليدية صادقة فلا يسعنا الا أن ننحاز فوراً الى قول بامكال : « لو كان أنف كليوباترة أقصر مما كان عليه لتغير وجه الأرض كله » . ولكن فريرو قرأ التاريخ على وجه آخر فقال أن قصة الحب بين أنطونيو وكليوباترة مجرد خرافة وأن أنطونيو لم يتزوج منها بدافع الحب العنيف وانما بدوافع سياسية محضة اذ كان يتابع خطة سياسية كبرى فقد كان يطمح في مصر وليس في شخص ملكها الجميل ، وقصد بالزواج الملكي أن ييسر حماية روما على وادي النيل لكي يتمكن من التصرف في كنوز البطالة ليعيد حملته على فارس . وبمثل هذا الزواج الملكي كان يستطيع طبعاً أن يوفر أيضاً لنفسه كل مزايا الحياة الحقيقية لوادي النيل دون المجازفة بحرب تضمه الى روما . تلك هي خطته السياسية التي حدثت قصة الزواج الرومانتيكي بمقتضاها ، تلك القصة التي تضمنت على الأقل في بدايتها معاهدة سياسية أيضاً . ولقد أقبلت كليوباترة على الزواج لتثبت أركان قوتها المزعزعة في حين أن أنطونيو أراد غير ذلك . ان تاريخ أنطونيو وكليوباترة يمثل حلقة بالغة في مأساتها من حلقات صراع مزق الامبراطورية الرومانية طيلة أربعة قرون لاحقة حتى قضى عليها هو الصراع بين الشرق والغرب . في ضوء هذه الاعتبارات يصبح — كما يقول فريرو — ملوك أنطونيو واضحاً جداً اذ زواجه في أنطاكية الذي وضع بمقتضاه مصر تحت حماية روما هو الفصل الحاسم لسياسة كانت تهدف الى زحزحة حكمه الى الشرق .

اذا قبلنا هذا الفهم لشخصيتي أنطونيو وكليوباترة فان الأحداث الأخرى وحتى موقعة أكتيوم تبدو في ضوء جديد ومختلف . ففرار أنطونيو من المعركة كما يقول فريرو لم يكن سيئه الخوف ولا عاطفة الحب المشتعل الأعمى بل كان فعلاً سياسياً نضج التروى فيه قبل حدوثه . ذلك لأن امرأة طموحة عنيدة واثقة من نفسها مثل كليوباترة ناضلت في اصرار

لتنقذ أنطونيو بالعودة الى مصر بحجة اياه الموقعة والتنازل بإرادته
عن إيطاليا وحدها لأكتافيوس وذلك بأن تثار موقعة بحرية وهمية لتغطية
الانسحاب الى مصر .

أنا لا شأن لى فى وجه الحقيقة فى كل هذا وإنما الذى ابتغيت بيانه
هو المنهج العام فى التفسير التاريخى للوقائع السياسية لأننا اذا عرفنا كل
الوقائع فى تلها الرسمى ووفقا لقانون العلية التفاعلة قلن يكون لدينا
منها غير خطة عامة وهيكل للتاريخ أو مجرد قشرة وسطح . ولكن لن
تكون لدينا حياته الحقيقية التى تنبعث عنها العشور والحوادث الظاهرية ،
تلك الحياة النابضة التى يلجأ اليها المؤرخ فى آخر الأمر ليقراً الرسالة
السياسية للشخصية التى يدرسها مستعداً منها الهدف الأخير لأحداث التاريخ
والتفسير الغائى لجراها الرسمى . ان فهم الانسان الواقعى الذى يكمن وراء
الأحداث هو الهدف الأخير للمعرفة التاريخية ، فهى تعتبر أفعال الانسان
وأعماله تعبيرات لحياته فتحاول إعادة بناء تلك الأفعال والأعمال فى صورتها
الأصلية وذلك بأن تقبض على ناصية الحياة التى ولدتها وأنشأتها . وهذا هو
ما عبرنا عنه بتفسير حوادث التاريخ الظاهرة بالعلية الغائية الكامنة
فى الأشخاص والهدف لما فى بواعثهم ودوافعهم .

ان هذا كله هو ما فهمه تماماً وعبر عنه المؤرخ والفيلسوف تين^(١)
فى أوائل أمتع كتبه وعنوانه تاريخ الأدب الانجليزى . فهو بعد أن بين
كيف أن المؤرخ إنما يتقرب فيما وراء الحوادث الظاهرة عن الانسان الباطنى
كما يتقرب البيولوجى فيما وراء الأصداف المتحجرة عن الحيوان الذى
كان يعيش فيها ، يسأل : « عندما ترمى رأسك الانسان المنظور
عم تبحث ؟ » عن الانسان غير المنظور . كلماته التى تطرق سمعك ،
الاشارات وحركات رأسه ، الملابس التى يرتديها ، الأعمال والأفعال
من كل نوع ، كلها مجرد تعبيرات . وشيء ما يتكشف فيما تحتها ،
وذلك الشيء هو الروح . انسان باطن يخفى تحت الانسان الظاهر ،
وهذا الأخير هو الذى يشف عن الأول ... كل ما فى الظاهر أن هو الا

طرقات تتجمع في مركز وأنت تختار تلك الطرق لكي تصل الى ذلك
المركز . المركز هو الانسان الأصل . هذا العالم التحتاني هو موضوع
جديد يختص المؤرخ .

أن ما أود أن أبرزه في تلك الفقرة فيما يختص بمعنى الغائية في التاريخ
هو كلمات مثل الروح والانسان الباطن والانسان الأصل والعالم التحتاني
والمركز الذي تتجمع فيه الطرق الظاهرة (الأحداث الزمنية) وكلها
مرادفة هنا في الإشارة الى المعنى الذي نقصده بالغائية .

صراع المذاهب السياسية في القرن العشرين

للدكتور محمد عبد المعز نصر

أستاذ علم السياسة المساعد بجامعة الإسكندرية

ان من يتأمل تاريخ الإنسان من ناحية نشاطه السياسي لا يتردد لحظة في أن يصف القرن العشرين بأنه عصر الدولة « المؤمّنة » . وقد يبدو هذا قولاً متناقضاً عند من لا يزال يرى أن إيمان الإنسان قد ضعف ازاء تقدم العلم والفن وما قد يدلان عليه من سيادة العقل والمنطق كما وضع ذلك أوجست كوت في تحليله لتطور الفكر الانساني . ولكن تفاؤل المفكرين والفلاسفة في القرنين الثامن عشر ومن قبلهم مفكرى اليونان لم يثبت من هذه الناحية أمام الواقع الذى يشاهده القرن العشرون في تطور الفكر السياسى . فكل مؤسس من مؤسسى الدول الحديثة في هذا العصر صاحب « كتاب » كما أن المواطنين في كل دولة من تلك الدول شاركوا في بنائها مشاركة فعالة باعتنائهم مبادئ ذلك الكتاب . وسارت بذلك السياسة والفكر جنباً الى جنب . بل انهما قد اندججا وزال الانفصال التقليدى بين الفكر في برجه العاجى وبين السياسى في ميدان العمل الواقعى وكان من نتيجة هذا التطور في حكم الانسان لنفسه أن أغلق المجال الانشائى أمام رجل السياسة الذى لا يقدم يمينه أو شماله كتاباً يرسم فيه أصول الحكم ونظرياته وقواعده لأن المواطنين في أنحاء العالم أصبحوا الآن في ظلّ الى الاعتقاد ورغبة لاتحد في الإيمان . فن قدم لهم شراباً سائغاً ولوا وجوههم شطره ومن عجز عن ذلك انفضوا من حوله . ومن يقرأ دساتير العالم المعاصر يجد أنها تصور هذه الظاهرة اذ تحرص جميعاً على أن تضيق خاصّة مفضلة الى خصائص المواطن التقليدية كما بينها جان بودان في وصفه للدولة القومية في القرن السادس عشر وهى خاصة الوعى والإيمان .

وما تأريخ السياسة في القرن العشرين من هذه الناحية أيضا الا تبيان متجدد للملاحظة الصادقة التي ساقها ابن خلدون^(١) في مقدمته أثناء القرن الرابع عشر الميلادي من أن نشوء الدولة لا بد وأن يصحبه انتصار الدعوة . ومن ثم كان الصراع بين المذاهب السياسية صراعا عنيفا جبارا لا يعرف الرحمة ولا الشفقة أو يعرف التسامح والالتقاء في منتصف الطريق وشأنها في ذلك شأن كل معتقد ودين ظهر بين الانسانية منذ القديم واشتمل في ثناياه على مزاج من العقل والعاطفة^(٢) اشتتالا لا يقر عند ظهوره التأويل والتحويل ولا يقف في انتشاره أمام سد أو تقييد .

وفي الواقع يجدر بنا أن نحتاط في تخصيصنا للقرن العشرين بهذه الظاهرة في الفكر السياسي . اذ ليس القرن العشرين من هذه الناحية الا امتدادا للصراع الذي ظهر في القرن التاسع عشر بعد أن برزت معالم الثقافة الغربية سواء من جوانبها المادية وجوانبها الفكرية في اطار من الثورة الصناعية التي غيرت بناء المجتمع تغييرا جوهريا . فالمدافعون عن النظم الديمقراطية وتقادها سواء من أهل اليمين أو اليسار هم من بين قادة الرأي في القرن التاسع عشر الذين صدمتهم مشاكل المدنية الغربية في طورها الصناعي ووضعوا من الحلول ما اعتقدوا أن فيه شفاء الداء الحديد . وفي الدفاع عن الديمقراطية وفي مهاجمتها تبلورت المذاهب السياسية المعاصرة تبلورا منفصلا لم يشهد مثله القرن السابع عشر الذي أنجب الثورة الانجليزية أو القرن الثامن عشر الذي أنجب الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية . ولو أننا اتخذنا الديمقراطية مذهبنا وسطا لرأينا أن الفاشية بألوانها المختلفة هي نقد للديموقراطية من اليمين وأن الاشتراكية بأنواعها ودرجاتها هي كذلك نقد للديموقراطية من اليسار :

(١) " فصل في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الذين اما من نوبة أو دعوة حق " (في مقدمة ابن خلدون) .

(٢) " On the emotion of conviction". In Walter Bagehot's works edited (٢) by Mrs. Russell Barrington Vol. V.

وبهنا أن نعرض لما حدث بين هذه المذاهب السياسية الثلاثة الكبيرة من صراع في القرن العشرين لأنها جميعا أديان أرضية^(١) أتت بمبادئ وقيم تعد محل مشاكل المجتمع الدنيوي الذي لا تعترف بوجود مجتمع عداه . ولقد ورثت جميعا تراث عصر التنوير في القرن الثامن عشر الذي زعم استعداد الطبيعة البشرية للصلاح والكمال إذا ما تغيرت النظم السائدة ومقومات البيئة المحيطة ومن ثم اشتملت على برامج الإصلاح التي تضمن السعادة في الحياة دون اكتراث بما وعدت به الأديان الروحية من تحقيق السعادة في الدارين . وجاء صراعها فيما بينها نتيجة اصرار كل منها على أنه المذهب الصالح لا لقومه وحسب وإنما لغيره من الأقوام متخذًا الغزو وسيلة في الانتشار أما عن طريق الحرب أو التسرب . وقد زاد هذا الصراع تماديًا في مأساة الاعتقاد المعاصر أن قامت الدولة القومية الحديثة نحو هذه المذاهب الأرضية بما قامت به الكنائس نحو الأديان الروحية . فالدولة القومية أصبحت كنيسة مذهبية رغم حرصها منذ البدء على أن تفصل بين الكنيسة والدولة .

ومن الطريف أن مذهبًا مياميًا مستقرًا مثل مذهب الديموقراطية قد استعاد في المعترك السياسي الدولي حيويته وقدرته المقاتلة . فالديموقراطية الانجليزية والأمريكية تلين بمجنورها إلى الثورة الانجليزية في القرن السابع عشر وأهم خصائص تلك الثورة أنها كانت ثورة على الكنيسة بقدر ثورتها على الدولة^(٢) . ومن ثم طالب اليوريتان اليساريون بحق الانشقاق على الكنيسة وحق الحرية في اعتناق المذهب الديني المختار إلى جانب المطالبة العامة بحماية الفرد من تدخل الدولة وضمان حريته السياسية والاقتصادية . فأساس الديموقراطية الانجليزية كان إذن يقوم على الحرية بمعناها العام

"Twentieth Century : The Anti — Intellectual Attack". In Crane (١)
Brinton — Ideas and Men, London, Jonathan Cape, 1951.

"The Growth of English Democracy during the first forty years of (٢)
the seventeenth century". In Gooch and Laski — English Democratic Ideas
in the XVII century, Cambridge, 1927.

والحرية في الاختلاف على وجه خاص . ولذا كان حق المناقشة الحرة وحق المعارضة من الحقوق الأولى التي كفلتها الثورة الانجليزية كما أن حق الحرية السياسية انتفى من حرية الضمير الديني . وما الديمقراطية السياسية الا امتدادا لتأكيد الحق في تعدد الكنائس وتعدد المذاهب . ولقد أثرنا هنا أن نجمع بين الأصول المذهبية للديموقراطية الانجليزية والديموقراطية الأمريكية ورأينا أن نعيد لها لثورة الانجليزية في القرن السابع عشر لأن الثورة الأمريكية ليست سوى تطبيق للمبادئ التي ورثها المستعمرون الانجليز الأوائل عن وطنهم الأم حتى لنكاد نرى في مبادئ الثورة الأمريكية مبادئ جون لوك مترجمة ترجمة واقعية . وجون لوك هو فيلسوف الثورة الانجليزية المحيطة كما يسمونها . ولقد تطورت الديمقراطية الانجليزية الأمريكية وعدلت من مضمونها تعديلا كبيرا في إنجلترا ومحدودا في أمريكا ولكنها احتفظت بالتمسك بالأساس الذي صاغه جون ستوارت مل صياغة كلاسيكية بأن أكد حق الحرية لا للأغلبية وحدها وإنما للأقلية بل للفرد صاحب الحق المقدس في الحياة والتفكير والسلوك . فالديموقراطية الانجليزية قد وسعت مظاهرها تدخل الدولة الاشتراكي في شئون الاقتصاد والتعليم والصحة والخدمات العامة على وجه العموم كما أن الديمقراطية الأمريكية اضطرت تحت ضغط الأزمات الاقتصادية والحرية أن تطبق في ميدان الحكم كثيرا من مظاهر السيطرة السلطانية . وقد ضاق مبدأ الحرية وحق الاختلاف في اعتناق الرأي ضيقا محسوسا بعد الحربين العالميتين في القرن العشرين . ويكنى دلالة على ذلك أن الولايات المتحدة أصبحت تنظر الى من اعتنق الشيوعية يوما ما أنه شيوعي الى الأبد ولا يصلح من أمره تكفير ولا يلقي صفحا أو عفوا . كما أصبحت ترسم لنفسها معالم الطريق الأمريكي في الحياة وتجمده في قالب خاص كما حدثت الفاشية والاشتراكية قوالبها الخاصة وتعد الخارج عليه أو المغاير له في أسلوبه « غير أمريكي » لا حقوق له كمواطن المواطن الأمريكي . ولكن كل هذه القيود الفعلية على حق الانجليزي والأمريكي في حرية الرأي وحرية المعارضة لم تمنع الدولتين الأخذتين بالمذهب الديموقراطي من أن يعلن أن الحرية الفردية هي حجر الزاوية في نظامهما وأنها القيمة والمقياس الذي به تسمان الحياة الخاصة والعامة .

وعلى قدر ما كان حق حرية الفرد مجال اعتراز ومفاخرة من الديمقراطية الإنجليزية الأمريكية وراية قتال في الصراع القومي والدولي ، كان في الوقت نفسه هدف هجوم من اليمين واليسار سواء من الفاشية والاشتراكية . فالفاشية وخاصة اللون النازي منها قد رأت في هذا الحق الطريق الى سيادة المبادئ الرأسمالية والثقافية والسياسية التي تضع التماسك الاجتماعي والوحدة القومية والقوة العنصرية فدعت نتيجة لذلك بالعودة الى الحكم السلطاني الشعبي الذي هيأت الثورة الصناعية والسياسية أسبابه الأولى بأن جعلت من الجماهير قوة عظيمة في العصر الحديث يمكن استغلالها في استقطاب دكتاتورية الحكم القائم على تأييدها كما استغل ذلك لومس نابليون في القرن التاسع عشر . ولقد هاجمت الفاشية الحرية السياسية هجوما عنيفا خاصة في شكلها البرلماني التقليدي ووضعت انجيلها السياسي بدلا من انجيل الثورة الإنجليزية الديمقراطية مجدة فيه سيادة الشخصية والعنصرية والأمن الاجتماعي ومشيدة بالسلطة بدلا من الحرية أسوة بما دعا اليه هيجل ونييتشه ويرجن بل بما دعا اليه أفلاطون كما أشار الى ذلك « فيدر »^(١) في شرحه لبرنامج الاشتراكية الوطنية الألمانية : وكتب في ذلك مومولينى كما كتب هتلر كتابه المفضل « كفاحي » وذهب الاثنان مذهب الأنبياء لأوطانها في العصر الحديث ولمن شاء أن يسير على شاكلتهما . وقامت دولة الفاشية لتكون أيضا كنيسة للمذهب ايميني الحديد .

ولكن الديمقراطية الإنجليزية الأمريكية لم تلق تهديدا كما لقيت من الاشتراكية خاصة لونها الماركسي . فكارل ماركس الذي قام بتحليله الاقتصادي للثورة الصناعية وتنبأ بحدوث ثورة بروليتارية في مجتمع صناعي مثل إنجلترا التي اتخذ من متحفها البريطاني مركزا لدراساته لم يصدق في ذلك التنبؤ وانما وجدت فلسفته مجالا للتنفيذ في روسيا التي كان يربها بالانقطاع وذلك على يد البلاشفة في ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ . وحلت الثورة الشيوعية في روسيا تهديدا للديموقراطية من ناحية نظام الحكم ونظام المجتمع

"National Socialism". In Michael Oakeshott — Social and Political (١)
doctrines of contemporary Europe, New York, 1950 ch. V

بل ذهب الشيوعية الروسية الى أنها الديمقراطية الحقة فلا ديمقراطية سواها وذلك لأنها أولا حكم البروليتاريا وهم الأغلبية الشعبية الساحقة ولأنها تخدم في الوقت نفسه أهدافهم وهي أهداف الشعب . ولم تلتفت الثورة الشيوعية الى المنهج الديمقراطي البرلمانى بل عدته وسيلة الطبقة الوسطى الى بسط سلطانها على الشعب واستغلاله لصالحها الخاص . وقد أكدت قيام السلطة وهاجمت الحرية السياسية بمفهومها الغربى وذلك لأن الديمقراطية الشيوعية استندت الى الثورة الفرنسية في مبادئها لا الى الثورة الانجليزية . والثورة الفرنسية بالرغم من اعلانها مبادئ الحرية والمساواة والاخاء الا أنها تتضمن في الوقت نفسه نظرية روسو في سيادة الارادة العامة سيادة مطلقة وهي النظرية التي تسربت الى فلسفة هيغل التمييزية وفلسفة ماركس اليسارية واتفقت مع تجربة فيلوقى النازية والشيوعية في بروسيا وراث القيصريّة في روسيا .

ولقد خرجت النازية من المعترك السياسى الدولى الحالى بهزيمة المانيا وايطاليا في الحرب العالمية الثانية . ولا يزال الصراع مستمرا بين الديمقراطية الغربية والديموقراطية الشرقية . ومن الطريف أن الرئيس روزفلت والمارشال ستالين والمستر تشرشل اتفقوا في مؤتمر يالطا على أن ينسقوا سياسة بلادهم في مقابلة المشاكل السياسية والاقتصادية لأوروبا المحررة وفق المبادئ الديمقراطية^(١) . وحين وضعت الحرب أوزارها تبين البعد السحيق في مفهوم الديمقراطية بين حلفاء الأمس فلا يزال الروس يأخذون بالعبارة المشهورة التي قالها لينين وهي تأكيد الديكتاتورية الديمقراطية للعامل والفلاحين على حين أن الانجليز والأمريكيين لا يزالون يعارضون هذا النظام بنظامهم السياسى التقليدى .

وبين هاتين الجبهتين الشرقية والغربية ومبادئها التي تكاد تتعارض في نظام الحكم وان كانت قد أخذت تتقارب في أهدافه خاصة في ديمقراطية إنجلترا الناضجة بدأت تظهر فلسفة سياسية تحرص على أن تكون مستقلة

(١) "True Democracy" In the Manchester Guardian March 23rd, 1946.

وَألا تكون شرقية ولا غربية وإنما تنوحى مبادئها من حاجات البلاد الوسطى بين الشرق والغرب آسيا وأفريقيا . وليس من اليسير أن نذهب الى أن هناك عاطفة موحدة بين هذه الشعوب فى هذا المضمار لأنها متباينة فى الحاضر والماضى وإنما قد جمع بينها وجود أوروبا الاستعمارية فى آسيا وأفريقيا واشراكها فى الخضوع لسلطانها المفسد . ولذلك رأينا أندونيسيا^(١) الجديدة فى عهد استقلالها وعضويتها فى هيئة الأمم المتحدة تعلن خاصة فى عهد حكومة ناصر أنها فى مضمار السياسة الدولية تصر على أن يكون لها أثر ذاتى فاعلى لا موضوعى انتمالى ومن ثم فهى تؤثر سياسة الحياد « الإيجابي » لا « العقيم » بأن تأخذ الموقف المناسب فى الوقت المناسب حسب مصالحها الخاصة فى نطاق ميثاق هيئة الأمم المتحدة بما يحقق السلام العالمى ويخفف الصراع والاحتكاك بين الكتلتين . كما نرى أن شهرو يقود حركة الحياد الإيجابي فى الهند وبين الشعوب الآسيوية على وجه العموم وقد أكد ذلك فى مؤتمر « لكنو »^(٢) . وتوجت حركة الحياد الإيجابي فى مؤتمر « باندونج » الذى مثل مصر فيه السيد الرئيس جمال عبد الناصر وقد كان له فضل المساهمة فى توجيهه نحو تحديد سياسة داخلية ودولية فى الوقت نفسه . وبلغ بمصر حرصها على هذه السياسة الإيجابية وتأكيدا لانتهاها لدول « العامل الثالث » أن ضمنت دستور ثورتها مبادئ مؤتمر باندونج .

وهكذا لم يعد العالم مقسما بين جبهتين تضمان وحدات قومية وتمثلان مبدئين متعارضين وإنما دخلت دول « العامل الثالث » بمبادئ تنبئ بها حفظ الميزان الدولى والداخل . والعالم القلق ينتظر نتائج تفاعل هذه القوى فى صراعتها وبناءل أحو صراعات متفائل أم صراع يائس ؟؟

“Indonesian Politics and Nationalism by Mc.T. Kahin” In William (١)

Holland editor : Asian Nationalism and the West New York, 1953 Part One.

“Summaries of Lucknow Conference Discussions” In Ibid Part Four. (٢)

دولة سلاطين الممالك في الهند

(٦٠٣ - ٦٨٩ = ١٢٠٣ - ١٢٩٠ م)

أوجه الشبه بينها وبين دولة الممالك في مصر

للركنور الأصغر مختار العبادي

ترجع غزوات المسلمين في الهند إلى العهود الأولى في الإسلام ، فيروى البلاذري أنه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وجه عثمان بن أبي العاص الثقفى وإلى البحرين ، أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى خور الديبيل — على الساحل الغربى لبلاد الهند ويعرف الآن باسم كراچی — فلقى العدو وظفر به ، فلما ولي عثمان بن عفان الخلافة ، ولي عبد الله بن عامر العراق وأمره أن يوجه إلى الهند رجلاً يستطلع أخبارها ويصفها له ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي ، فلما رجع وصفها له . ولم يغرز أحد هذه البلاد حتى عام ٣٩ هـ حين وجه إليها على بن أبي طالب حملة بقيادة الخارث بن مرة فغنم كثيراً من الغنائم والأسرى ، ثم قتل سنة ٤٢ هـ بأرض القيقان من بلاد السند بمأبى خراسان . وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ، غزا عبد الله بن سوار العبدي الذى كان أميراً على ثغر السند ، القيقان مرتين قتل في ثانيتهما . وغزا المهلب ابن أبي صفرة الأزدي بلاد السند سنة ٤٤ هـ (٦٦٤ م) وامتدت فتوحه إلى الأراضى الواقعة بين كابل والمثلثان جنوب البنجاب .

ولم يصبح إقليم السند ولاية إسلامية إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى حينما قام محمد بن القاسم بن محمد الثقفى وإلى مكران ، بغزو بلاد الهند بعد أن جهزه قريبه الحجاج بن يوسف الثقفى بكل ما يحتاج إليه . فسار إليها عام ٨٩ هـ (٧٠٨ م) وحاصر ثغر الديبيل وفتحه عنوة وبني مسجداً ، وواصل ابن القاسم فتوحه حتى بلغ نهر السند وكان يعرف اذ ذاك باسم نهر

مهران ، وهناك التى بدهار ملك السند ، فاقطلا قتالا شديداً ، وانتهى الأمر بقتل داهر وهزيمة اتباعه . واستمر ابن القاسم فى الفتح والتوسع حتى دانت له جميع بلاد السند من الساحل الى اللتان (١) .

وعلى الرغم من أن ولاية المسلمين الذين تداولوا حكم ولاية السند زمن الأمويين والعباسيين لم يحاولوا توسيع نطاق تلك الولاية ، فقد ظل إقليم السند ولاية اسلامية قرابة قرنين من الزمان . على أن التوسع الحربى الذى قام به المسلمون فى سهول الهند الشمالية فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى - أو العاشر الميلادى - لم يكن مصدره إقليم السند ، وانما كان مصدره إقليم أفغانستان عند تخوم الهند الشمالية الغربية حيث قامت فى مدينة غزنة فى قلب جبال سليمان ، دولة تركية قوية هى الدولة الغزنوية (٣٥١ - ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ - ١١٨٦ م) .

وأول توسع قامت به الدولة الغزنوية فى الهند كان فى عهد ملكها ناصر الدين سُبُكْتِكِين الذى فتح بُسْت وقصدار عام ٣٦٨ هـ (٩٧٨ م) وهزم جيوش جَيَبَال راجا لاهور وشتت شملهم على حدود البنجاب ، ثم ما لبث أن أسر جَيَبَال نفسه - الذى يذكر أحيانا باسم هايتال - ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع الجزية .

وجاء بعد سُبُكْتِكِين ابنه محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ = ٩٩٨ - ١٠٣٠ م الذى غزا بلاد الهند اثنتى عشرة مرة مدفوعا فى ذلك بعمل الجهاد الدينى والرغبة فى نشر الاسلام بين الهنود الوثنيين . واستطاع السلطان محمود أن يسط نفوذه الى ما وراء قشмир والبنجاب وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية اسلامية يحكمها ولاية مسلمون من قبل الغزنوية (٢) .

(١) أنظر (البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٢٠ - ٤٢٣) . راجع كذلك : (الدكتور حسن ابراهيم حش : انتشار الاسلام فى الهند - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، ١٩٤٤)

(٢) راجع التفاصيل فى (Wolsey Haig : The Cambridge History of India Vol. III pp. 1 - 37 & H. H. Dodwell : India part I pp. A. 24 - 25 & Muir The Caliphate, Rise, Decline, and Fall p. 353 - 354 & Lane Poole : Muhammadan Dynasties p. 283 - 284 & Ency. Britannica, Art. India p. 401) و (البلاذرى : نفس المصدر ٤٢٠ - ٤٢٣) .

وكيفما كان الأمر فإن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم مدينة لاهور مقرا لحكمهم هناك ، مهّد السبيل أمام خلفائهم الغوريين ثم سلاطين المماليك الأتراك لتدعيم النفوذ الاسلامي في كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية .

وقامت الدولة الغورية (٥٤٣ - ٦١٣ هـ = ١١٤٨ - ١٢١٥) م على أنقاض الدولة الغزنوية ، وتنسب هذه الدولة الى مكان نشأتها جبال الغور وهي ولاية بين هيراة وغزنة . واستطاع الغوريون أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا ما كان يملكه الغزنويون من بلاد الغور وأفغان والهند . فالدولة الغورية هي ثاني دولة اسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية . غير أن سلاطين هذه الدولة الغورية لم يقيموا في الهند دائماً ، وإنما كانوا يقيمون في مدينة غزنة عاصمة مملكتهم ، وصاروا يحكمون الهند عن طريق مماليكهم الأتراك . وقد أكثر السلطان محمد الغوري من شراء المماليك واعتق بتربيتهم واعدادهم لمهمة الغزو والجهاد . ويؤثر عنه أنه كان كلما ناقشه أحد عن ضرورة الحاجة الى ابن ذكر يحافظ على ملك أسرته من بعده ، أجابه بأن لديه الوفا من الأبناء ، ألا وهم مماليكه الأتراك (١) .

وقد ارتفع بعض هؤلاء المماليك الى مناصب الحكم والقيادة : نذكر منهم تاج الدين يلدز Yildiz الذي حكم كرمان ، وناصر الدين كوباشا في السند ، وقطب الدين أيبك في دلهي وهو أقوى الجميع نفوذاً (٢) .

واستطاع محمد الغوري بفضل جهود مماليكه وعلى رأسهم أيبك أن يملك جميع البلاد التي في شمال جبال فندياس Vindhya حتى مصبات نهر الكنج ، فيعمها الإسلام وتتحول معابدها الهندوسية الى مساجد ، ويدفع راجاتها الجزية صاغرين .

(١) أنظر (Lane Poole : Medieval India under Mohammadan Rule p- 65)
وتذكرنا هذه العبارة بعبارة الملك المنصور قلاوون أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى في مصر ، وقد أكثر من جلب المماليك صغار السن والاعتناء بتربيتهم ، وكان يقول في هذا الصدد :
” كل الملوك عملوا شيئاً يذكر به ما بين مال وغنم ، وأنا عمرت أسواراً وعملت حصوناً مائة لى ولأولادى والسليين ، وهم المماليك ” راجع (المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢١٣) .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٧ .

وكان قطب الدين أيوبك رجلا مسلما متمسكا بشروط الاسلام ، ويظهر ذلك بوضوح في عدائه الشديد لنظام الطبقات الذي كان سائدا في الهند ، ومعاملة الناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التي ينص عليها الاسلام . وينسب لأيوبك في دلهي مسجد عظيم أسماه « قوة إسلام » وهو ذو منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدما وهي تعد أطول منارة في العالم ، ولا تزال قائمة الى اليوم وتعرف باسم « قطب منار » ، وتمتاز بنقوشها وزخارفها ذات الطابع العربي والهندي (١) ، وقد صدر حديثا أمر بعدم الاقتراب منها بعد أن كثّر عدد المتحرين الذين يرمون بأنفسهم من فوقها .

وفي مارس ٢٠٦ (٦٠٣ هـ) اغتيل السلطان محمد الغوري على ضفاف السند بيد أحد غلاة الأسمايلية ، وعموته اختفت غزته والغور من التاريخ وظهرت مدينة دلهي (٢) كعاصمة اسلامية في الهند .

لم يعيش أيوبك بعد موت ميده سوى بضع سنوات ، اذ انتهى حكمه كسلطان مستقل على هندستان في نوفمبر ١٢١٠ م (٦٠٨ هـ) وذلك على أثر سقوطه من ظهر جواده أثناء لعبة الكرة أو البولو - جوكان - فتوفي على الأثر (٣) .

(١) أنظر (Lane - Poole : Medieval India under Mohammadan Rule p. 68 — 69) ويقال أن السلطان التمش لوك أيه وزوج ابنته وخليفته على عرش دلهي هو الذي بنى هذه المنارة عام ١٢٣١ — ١٢٣٢ تكريما لول الله قطب الدين بختيار الكمكي الذي أقام في شرفة والمندان ثم استقر أخيرا في دلهي حتى وفاته ١٢٣٥ م . راجع : (رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٩ ، وعن سبب تسميته بالكمكي ، أنظر كذلك (Wolseley Haig : Camb - Hist. of India III, p. 55))
(٢) وتسمى أيضا دلهي ودلي (بالقلشني : صبح الأعشي ج ٥ ص ٦٨ — ٦٩) وتقع هذه المدينة في قلب سهول نهر الكنج في مكان أهلته الطبيعة ليكون عاصمة الهند الثانية . ومن يستعرض تاريخ الهند العام يجد أن مدينة دلهي كانت مسرحا لوقائع حربية حاسمة لأهمية موقعها الاستراتيجي . وقد زارها الرحالة الطنجي المعروف بابن بطوطة في القرن الثامن الهجري (١٤ م) ووصفها بقوله « وهي المدينة العظيمة الشأن ، الفخمة ، الحاضرة بين الحسن والحصانة ، وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير ، وهي أعظم مدن الهند قبل مدن الاسلام كلها بالشرق » .
(رحلة ابن بطوطة ، ج ٢ ص ١٦) راجع كذلك (H. Dodwell : India, I, p. 25 & Faey. Britannica, Art. India.)

(٣) أنظر (Ency of Islam, Art. Aibeg) .

سادت الفوضى بعد موت أيلك مدة من الزمان تولى فيها الملك ابن غير كفور يدعى أرام شاه ، وانتهى الأمر بأن خلعه أحد عماليك أبيه البارزين وزوج ابنته شمس الدين التتمش بمساعدة بقية الأمراء ، واستأثر بعرش دلي لنفسه عام ١٢١٦ م.

ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي للدولة سلاطين الماليك التي لم يعش أيلك مدة كافية ليدعم أركانها . فنيب الى هذا السلطان تأسيس مجلس من كبار أمراء الماليك عرف باسم « الأربعين » وكان الغرض منه هو تدعيم السلطان المملوكي في الهند . ومن حسنات التتمش أنه اشتد في رد المظالم وانصاف المظلومين ، فبوثر عنه أنه أمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغاً وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض ، فكان إذا قعد للناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ ، نظر في قضيتته وأنصفه من ظلمه (١).

وبما أن عصر هذا السلطان أيضاً يظهر المغول وزعيمهم جنكيز خان الذي حدد العالم الأموي بأجمعه . وأول نذير دل على اقتراب هذا الخطر من الهند ، هو فرار يلدز ، حاكم غزنه ، بجيوشه الى داخل الهند ، أمام ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة بدورها من الجيوش المغولية . أخذت هذه القوى الثلاث تتجدر جنوباً بسرعة عنيفة عابرة سلاسل الجبال الشمالية الى داخل الهند . غير أن هذه العاصفة سرعان ما زالت بنفس السرعة العظيمة التي جاءت بها ، إذ من حسن حظ الهند أن المغول اتجهت أبصارهم نحو الغرب فراجعوا منسحبين عن الهند . أما الجيوش الخوارزمية وقائدها جلال الدين منكبرتي آخر شاهات خوارزم ، فاتهم انسحبوا الى فارس بعد أن فشلوا في تأسيس إمارة لهم في البنجاب .

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان ، إذ أحدقت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه في الشمال أمثال يلدز وكوباشا ، وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات أستاذه أيلك في شمال الهند وأن يتخلص من منافسيه بالقتل والتشريد (٢).

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١ .

(٢) كان يلدز - كما سبق أن ذكرنا - قد استقل بحكم غزوة بعد وفاة سيده محمد النوري سنة ١٢٠٦ ، وكذلك قتل كوباشا في إقليم السند . وقد انتهى أمرها بأن قتل يلدز عام ١٢١٦ م وغرق كوباشا أثناء فراره عام ١٢٢٨ ، راجع (أبر انفا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ١٢٢ - ١٢٣) ، وكذلك (Felix Pareja : Islamologia I, p. 254 - 255) و (Wolsley Haig : Op. Cit III p. 52 - 55) .

وبلغ فوز الشمس أقصى مداه حينما اصترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسي ، سلطاناً على الهند ، وبعث له بالتقليد والخلع والألوية والبنود في أوائل عام ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) ، فأصبح الشمس بذلك أول ملك في الهند تسلم مثل هذا التقليد . ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان الشمس نقوداً فضية نقش عليها اسم الخليفة العباسي بجوار اسمه . ويعتبر هذا العمل شيئاً جديداً على نظام العملة الهندية ، إذ كان الغزاة المسلمون قبل ذلك يضربون نقوداً معدنية صغيرة على غرار النقود الوطنية ، تنقش عليها أشكال مألوفة لدى الهنود كثور سيفا مثلاً ، كما كانت أسماء الغزاة تكتب بحروف هندية في غالب الأحيان . فالشمس يعتبر أول من ضرب نقوداً فضية عربية خالصة في الهند (١) .

وتوفي السلطان الشمس سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) ولم تكن هناك شخصية قوية صالحة للملك من بعده سوى شخصية ابنته رضية الدين . كانت هذه السلطنة على حظ كبير من الذكاء ، حفظت القرآن الكريم وأملت بالكثير من التعاليم الإسلامية ، ولهذا فضلها أبوها على اخوتها الذكور لانغاسهم في الملذات ونادى بها ولىة لعهد . ولما آلت إليها السلطنة ، دلت على مقدرة عظيمة وعقل وافر وشماها مؤرخو الهند باسم « ملكة دوران بلقيس جهان » (٢) أي فتنة العالم .

جلست رضية الدين على عرش دلهي أربع سنوات تقريباً (١٢٣٦ - ١٢٤٠ م) (٦٣٤ - ٦٣٨ هـ) وقد بذلت جهداً لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم وخرجت أمام الناس سافرة تقود جيشها على ظهر فيلها .

وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها هذه الملكة في إدارة شئون الدولة فقد اصطدمت في النهاية بمجلس أمراء الممالك أو فرقة الأربعين الذين كانوا قد استأثروا بالنفوذ والثروة خصوصاً بعد موت الشمس

(١) أنظر (Lane - Poole : Medieval India under Moham. Rule p. 73 ; Arnold :

The Caliphate p. 85 — 87 ; Ency. of Islam. Art. Illtutmish) .

(٢) E. Blochet : Histoire des Sultans Mamlouks par Moufazzal Ibn Abil - Fazzil
Vol. I p. 375 Note.

وتقاسموا المملكة ووظائفها فيما بينهم بعد أن قضوا على جميع الأحرار في مختلف الوظائف . وأنف هؤلاء الممالك من رؤية امرأة على العرش ولا سيما بعد أن قربت إليها رجلا عباسيا يدعى جمال الدين ياقوت كان يشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة حاولت السلطنة رضية قمعها بشجاعة ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها في ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠ م - ٦٣٨ هـ (١).

في هذا الوقت ظهر المغول في إقليم السند من جديد واستولوا على مدينة لاهور في ديسمبر سنة ١٢٤١ م ودفعوا سكانها ، وفر حاكمها قراقوش إلى دلهي . فأصبح الموقف يستدعي ظهور شخصية قوية تقبض على زمام الحكم بيد من جديد ، وهذا مما ساعد على ظهور الأمير بليان أو بلن أحد ممالك التمش ، فاعتلى عرش السلطة بعد أن تخلص من السلطان القائم فيها من أبناء سيده وتلقب بغياث الدين .

وتضيف الروايات المعاصرة أن بليان كان ينحدر من أصل عريق وأن تحمسه للجهاد ضد المغول هو الذي جعله يرحل من تركستان منذ حدثه تاركاً أهله وأصحابه . ثم حدث أن سرق ويبيع في الهند فاشتراه السلطان التمش . وتريد الرواية أن السلطان المذكور رفض شراء بليان في بادئ الأمر لدمايته وقصر قامته ، فصاح به بليان : « ياخوند عالم .. (أي ياسيد العالم) لمن اشتريت هؤلاء الممالك الآخرين ؟ » فأجابه السلطان ضاحكاً : « اشتريتهم لنفسى » . فرد عليه بليان : « أذن فاشترنى أنا لله عز وجل » ، فأجابه السلطان إلى طلبه : « ثم سرعان ما ظهرت مواهبه فصار يتدرج في الرقي حتى اندمج في جماعة الأربعين مملوكاً (٢) .

اشتهر بليان بشخصية عسكرية صارمة عادلة . وأول عمل أهم به هو الحد من طغيان جماعة الممالك الأربعين ، فأعمل فيهم سياسة العنف والتفرقة حتى قضى على نفوذهم وسطوتهم . كذلك ضرب على أيدي المجرمين

(١) أنظر (Ency. of Islam, Art. Ridiyya & Camb-Hist of India Vol. III p. 60) ابن بطوطه ج ٢ ص ٢٢) وموقف هذه السلطنة يشبه تماماً موقف السلطنة شجر الدر التي حكمت مصر عام ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) والتي أثار حكمها أيضاً استياء الرأى العام الإسلامى . ويشمل ذلك في الخطاب الذى وجهه الخليفة العباسى المستنصر إلى أمراء الممالك في مصر يقول لهم فيه : " إن كانت الرجال قد عذمت عنكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً " وقد انتهى أمر هذه السلطنة بانقتل أيضاً . راجع (المفريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٨ - ٣٦٩) .

(٢) رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ٢٣ ، أنظر كذلك (Lane Pool: Mediev. India p. 18)

وقطاع الطرق الذين انتهزوا فرصة الاضطرابات الأخيرة وانبثوا في المسالك والطرق بين دلهي والبنغال يعيثون فسادا وتخريبا . فأزال بليان الغابات التي كانت وكرا لتلك العصيات ، وشيد مكانها القلاع وأبراج المراقبة وبذلك استتب الأمن وعاد الاتصال بين دلهي والبنغال لفترة طويلة من الزمان .

كذلك عنى بليان باقامة ادارة للمخابرات في جميع المدن المختلفة ، ويشرف عليها مخبرون من قبله يعرفون بأصحاب الأخبار أو ملوك البريد . وكان تعيين هؤلاء الأشخاص يتم تحت اشراف السلطان نفسه وبناء على اختياره الشخصي وذلك نظرا لأهمية الأعمال التي يقومون بها في كافة أرجاء الدولة ، اذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة ، ومياسة أولى الأمر فيها . ولهذا السبب حرص بليان على جعل سلطتهم مستقلة عن سلطة الولاة المحليين وخاضعة لسلطانه المباشر . ويروى المؤرخون كيف أن بليان أمر بأعدام أحد هؤلاء المخبرين لأنه تسر على حادث هام وقع في المدينة المكلف بأخبارها دون أن يحظره بذلك (١) .

وتجلبت مواهب بليان في انتصاره على قوات المغول التي اقتحمت اقليم السند عام ١٢٧٩ م - ٦٧٨ فاستحق بذلك لقب « القى خان » أى الأمير القوى . وترجع انتصارات بليان على المغول الى الاستعدادات الحائلة التي قام بها هذا السلطان لدفع ذلك الخطر الداهم اذ أعد مخازن هائلة للطعام بحيث يبقى الزرع بها مدة طويلة دون أن يفسد ، ويقول ابن بطوطة في هذا الصدد : « وقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود

(١) انظر (Wolsley Haig : Op. Cit III p. 74) راجع كذلك (رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢ - ٣) حيث يتكلم عن مهمة أصحاب الأخبار خصوصا اذا قدم غريب على الهند .. " واذا كتب المخبرون الى السلطان يخبرون من يصل الى بلاده .. يعرفوه أنه وزد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلطائه وخدامه ودرايه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته ، لا ينادون من ذلك كله شيئا " . وفي مكان آخر من نفس الجزء يقول ابن بطوطة : " وفي مدينة ملتان قدم علينا ملك البرية واسمه دهقان وهو حمرقندى الأصل وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وما يحدث بها ومن يصل اليها " .

ولكن طعمه طيب وكل ذلك من اختزان السلطان بلبان منذ تسعين سنة (١). هذا وقد اهتم بلبان بتحصين الثغور الهندية وتنجيد قبائلها تحت قيادة ابن عمه شيرخان مستقر ، كما أعد جيشاً قوياً سريعاً لصد أى هجوم خاطف يقوم به المغول فجأة - وذلك على حد قوله - حتى لا تتعرض مدينة دلهى لمصير بغداد العثم (٢).

وفقد بلبان ابنه الأكبر الشهيد محمد خان فى واقعة ضد المغول فى إقليم الملتان وذلك فى ٩ مارس ١٢٨٥ = ٦٨٤ هـ فحزن عليه حزناً شديداً ومات بعده بستين (٣).

يعتبر السلطان بلبان من أولئك الأشخاص الذين لا يتركون وراءهم خلفاء أقوياء ، اذ أن صرامته وقوته حالت دون ظهور شخصيات قوية بعده ؛ فقد قضى على جماعة المماليك الأربعة ونفى كثيراً من ذوى النفوذ والجاه من الحكام أو العلماء (تذكر منهم شاعره أمير خسرو) . وكانت كل آماله مركزة فى شخص ابنه الأكبر الذى مات فى عهده . ولهذا اضطربت شئون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة هى أسرة الخالجية (٤) التى استولت على عرش دلهى سنة ١٢٩٠ م - ٦٨٩ تحت زعامة جلال الدين قيروز شاه .

هكذا انتهت دولة المماليك الأتراك فى دلهى . ومن العجيب أننا نرى أوجه شبه عديدة بينها وبين دولة المماليك الأولى التى قامت فى القاهرة . فلقد عاصرت كل منهما الأخرى تقريبا ، اذ قامت دولة المماليك فى الهند

(١) هناك وجه شبه عجيب بين السلطان بلبان والسلطان سيف الدين قطز أحد سلاطين الدولة المملوكية الأولى فى مصر . فكلاهما ينحدر من أصل عريق ، وكلاهما يبيع الرقيق ، قاشترى الأول السلطان العيش ، واشترى الثانى السلطان أيلك التركانى ثم أخذوا يتدرجان فى الرقى حتى استأثرا بالملك بعد موت أسودهما . وكلاهما كان متحمسا للجهاد ضد المغول وقد استطاع كل منهما أن يثقل يده من ذلك الخطر المغولى الداهى الذى اجتاح بقية العالم الاسلامى ، فانصر عليهم بلبان فى السنة ١٢٧٩ هـ ، كما انصر عليهم قطز فى عين جالوت بفلسطين سنة ١٢٦٠ .

(٢) أنظر Wolseley Haig : Op. Cit p. 76 - 82

(٣) أسرة أفغانية نية لبلدة خالنج بأفغانستان وقيل أنها تركية الأصل ثم نزلت الى أفغانستان حيث أخذت عن أهلها عاداتهم وطرقتهم . أنظر (Wolseley Haig : Op. Cit p. 76 - 82).

عام ١٢٠٦ م - (٦٠٣ هـ) أربعاً وأربعين سنة قتيلاً قيام دولة المماليك في مصر (١٢٥٠) وظلت تلك الدولة المملوكية زمناً وعاصرت الدولة المملوكية في مصر حتى سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) .

وكان سلاطين الدولتين من المماليك الذين جلبوا من أسواق النخاسة وربوا تربية عسكرية إسلامية للحرب والجهاد ، ثم تمكنوا بقوة نفوذهم وضعف أسيادهم أن يتدخلوا في تولية السلاطين وعزلهم ثم يستأثروا بالملك لأنفسهم . هذا وقد كان العنصر التركي هو الغالب على مماليك الدولتين ، ونتج عن ذلك وجود تشابه في الأسماء أمثال أيلك وبلبان وسنقر وقراقوش وغيرهم . وحدد الخطر المغولي كلتا الدولتين ، ولولا قوة المماليك فيهما لا اجتاحتها كما اجتاحت بقية العالم الإسلامي ، بل وكما اجتاحت المند نفسها بعد زوال هذه الدولة المملوكية بمدة من الزمان .

وشاهدت كلتا الدولتين ظاهرة فريدة من نوعها في العالم الإسلامي وهي جلوس ملكتين على عرشيهما ، فعلى عرش دلمى جلست الملكة رضية الدين ، وجلست الملكة شجر الدر على عرش مصر بعدها بعشر سنوات (١٢٥٠) فكانتا مثليين للكفاءة النادرة والكياسة الممتازة ، وهناك وجه شبه آخر تلمسه في تقرب سلاطين الدولتين للخلافة العباسية (١) لأن اعترافها بهم ورضائها عنهم صرف يقوى من نفوذهم الأدبي وبكسبهم صفة شرعية للحكم ، ومحيطهم بسياج مكين ضد محاولات منافسيهم في انتزاع السلطنة منهم .

(١) ظلت دولة المماليك في المند على ولايتها لخلقة بغداد حتى بعد أن قتل المغول الخليفة المستنصر وتضرا على الخلافة العباسية ببغداد ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) ، إذ ظل السلطان بلبان ينقش اسم الخليفة المقتول على نقوده ويذكر اسمه في الخطبة كل المنابر طوال عهده (١٢٦٥ - ١٢٨٧) راجع (Arnold: The Caliphate p. 87) وهذه الظاهرة الفريدة نجدتها أيضاً بوضوح في اليمن حيث بقي ادعاء للخليفة العباسي المقتول المستنصر باقية إلى ما بعد سنة ٧٩٨ هـ . راجع (الخزرجي : العقود الزلزلية في تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ٦٩) ونجد هذه الظاهرة أيضاً في بلاد المغرب حيث يروي ابن خلدون أنه في عام ٦٦٢ ثار والي طنجة عن صاحب سبته وخطب للخليفة العباسي صاحب بغداد . أنظر (البيرج ج ٧ ص ١٨٦ ؛ السلاوي ج ١ ص ١٧) . هذا ومن المعروف أن سلاطين المماليك بمصر عملوا على إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد زوالها من بغداد وقد تم ذلك فعلاً في عهد السلطان بيوس البندقداري سنة ١٢٦١ م . واستمرت كذلك إلى أن زالت نهائياً عقب الفتح الثاني لمصر سنة ١٥١٧) .



الهند في القرن السابع الهجري (ثلاث عشرة للدي)

الشعر والفكر^(١)

للدكتور إبراهيم صبرى

يدور هذا البحث حول نوع من الشعر يرى بعض المتذوقين لصناعة الأدب أنه ليس من الشعر فى شىء وينكرون قدره لانطوائه على الأفكار التى تتدفق من رأس قائلها أكثر من احتوائه على عاطفة تتحقق مع خفقان القلب فى أعماق صدر شاعرها ، وذلك لأن أولئك الأدباء لا يعتبرون قيثارة الشاعر مهبطا للوحى الا اذا نزل الخامة فى القلب فقط .

ولكن لم يكن لحن العاطفة دائما طابع الشعر المترنم على قيثارة الانسانية وأن الأمم التى مرت بحياتها ظروف قاسية وحوادث دامية ضربت على أوتار الشعور القلبي حين عزفت أنشودة الحياة والممات وتغلبت على شعرائها نزعة استغراق الفكر فى هول ما سيؤول اليه المصير وطغت هذه النزعة على ميلهم الى الانصات لما يعالج فيهم من عواطف القلب . وقد أوشك أن ينضب منها معين الاحساس المزدهر فى رياض العشق والغزل وحل محله فى أحايين من الدهر كثرة ظلام اليأس والقنوط . واذا أشرق الضوء خلال هذا الظلام فهو انما يشرق من آفاق الفكر الذى لا يقل جوه حرارة عما هو عليه جو العاطفة فى القلب . فالاستغراق يحمل فى ثناياه اهتزاز ملكات الوعى ويكون من منابع الانعام الخصبه لدى الشعراء المفكرين الذين يقومون فى أشعارهم بتحليل عواطفهم العقلية تحليلا عقليا .

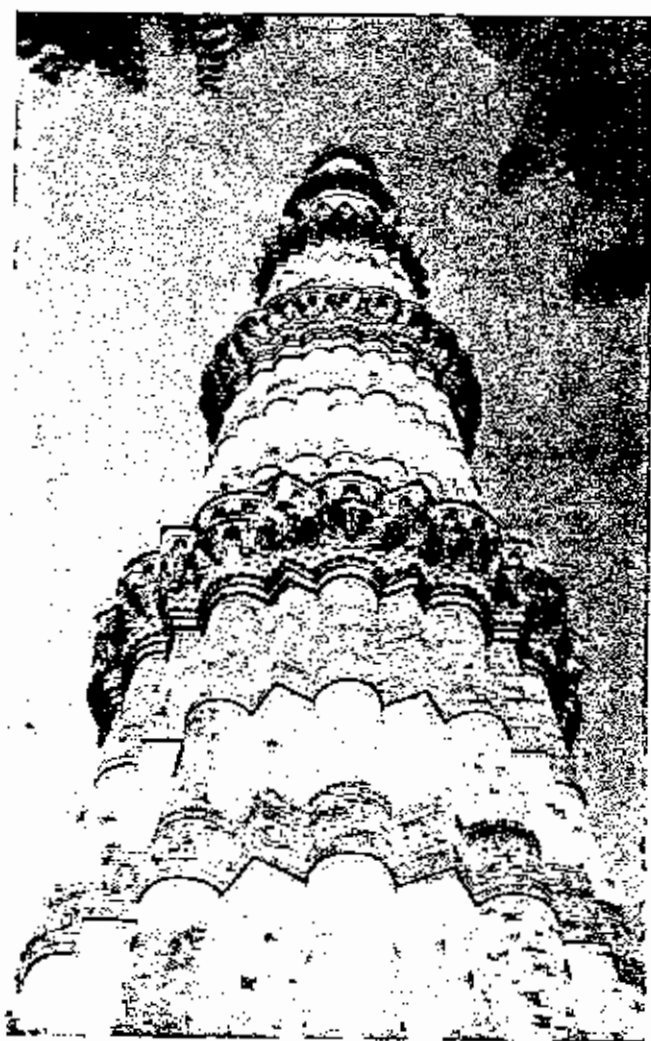
والانسانية قد التفت حول أنبياء الله الذين قاموا بمواسماتها وبشروها بأمانى حياة الآخرة الأبدية عندما ألقت البشرية نفسها أمام المسألة الكبرى المتعلقة بمصيرها فى الحياة الدنيا وما بعدها وتخطت فى عجزها عن ادراك

(١) ان من طبيعة هذا البحث أن يطول التكلام فيه وأن يكثُر عرض الآيات التى تدل على ما دُعِى الى التفكير بادىء ندى بدء فى القام سلسلة مخاضات لعرض الرأى الذى تكون عندي بصدده بدلا من أن أقصر الحديث فيه على ناحية واحدة ، ولكن الظروف اقتضت أن أقدم فية من موضوعاته فى مقالات .

سر الوجود ولم تطمئن لها الحامات هؤلاء الشعراء العاطفيين الذين لم يعيهم في آيات شعرهم إلا الترنم بما شكى منه البشر أيد الدهر دون أن يستطيعوا إلى تعزيزهم صيلا . فالشاعر الحكيم المستغرق في تأملاته الفكرية ليس هو — كما يقول بعض النقاد — الذى يحاول تخطى حدود الشعر بل هو ذلك الفنان الذى يعبر عما في القلب والعقل من الاحساس والفكر معاً ويصوغ ما للعاطفة من البيان في قالب الاعان ويمتلك مشاعر البشر بأسرها . ثم ان الشعر ليس لدى من يؤمن بأن الفن لا يسهه أن يظل بعيداً عن الأحداث الاجتماعية وسيلة للترفيه عن النفس والتعبير عن العاطفة فحسب بل هو فن غاية خلق الشعورق الأمة التى ينتمى اليها الشاعر كما هو شأن كل فنان يدرك رسالته حق الادراك نحو بيئته .

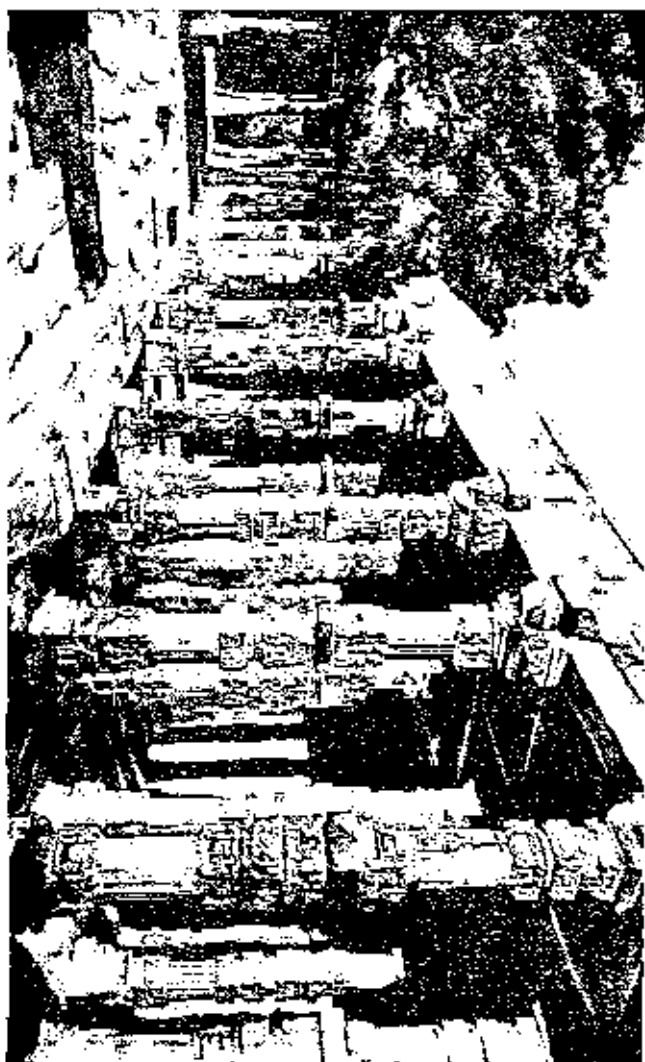
وهناك من الشعراء الذين يؤدون رسالتهم الفكرية في مضمار انساني بوجه عام وأكثرهم من طراز الشعراء العالميين نراهم خلدوا أسيادهم بآياتهم في تاريخ آداب الأمم وقد اشتهروا جميعاً بتأليفاتهم التى عالجوا فيها مشكلة من مشاكل الانسانية . منهم مثلاً : شكسبير ذلك الشاعر الانجليزي الأعظم الذى قدرته أمته بما لم يسبق له مثيل حيث فضله على امبراطورية بريطانيا الكبرى برمتها وذلك لاعتبارها الشاعر أكبر موسمى المجد البريطانى بقبض نفحاته الخالدة ، ومنهم مثلاً : (مولير) الشاعر الفرنسى الاجتماعى الشهير الذى خلف تحفا لا نظير لها يقتبسها العالم ويمثلها على المسرح القومى اعتقاداً منه بأن الموضوع الذى عالجه الشاعر هو من صميم موضوعاته الاجتماعية . ومنهم مثلاً : عبد الحق حامد الشاعر التركى المشهور بين شعراء العصر الحاضر المتجددين بتركيا الذى ألف أعظم قصيدة له المعنونة بالمقبر في أخطر موضوع فكرى شغل العقل البشرى من الأزل ألا وهو مشكلة الموت وحياة الآخرة . يقول المرحوم الفيلسوف رضا توفيق في كتابه المسمى (فلسفة درسلرى) (الدروس الفلسفية) ألفه باللغة التركية في استانبول عند قيامه بالتدريس في الجامعة ، يقول في دراسته التحليلية لقصيدة (المقبر) :

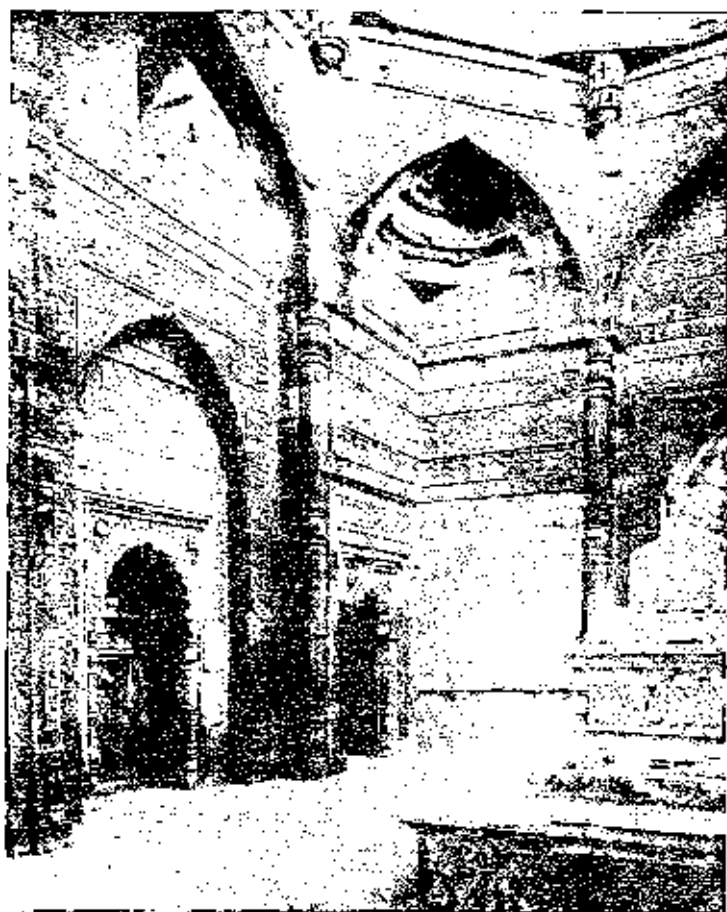
« على الذين يرفضون الاعتقاد الذى يقرر وقوع الحوادث بطريقة ضرورية وميكانيكية أن يفكر في خالق مدبر للكل لا يعيث بل يختار ما يريد ، ولا يظهر ارادته بدون غاية ولذلك يجب تفسير حوادث العالم بأميابه معقولة



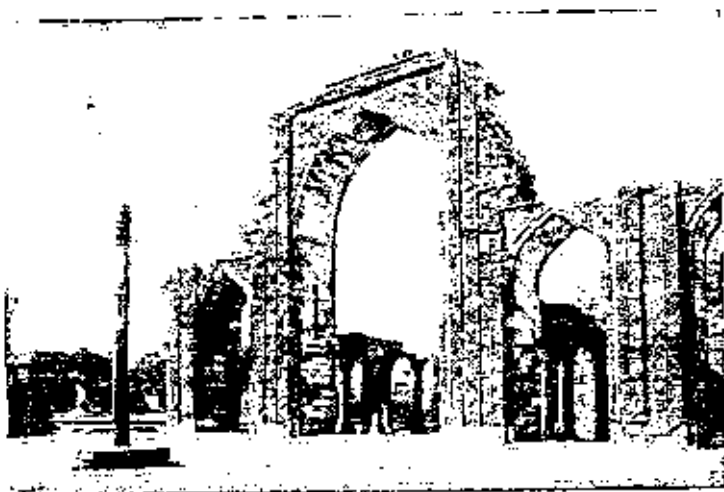
قلب منار

جانب من أعمدة مسجد قبة الصخرة

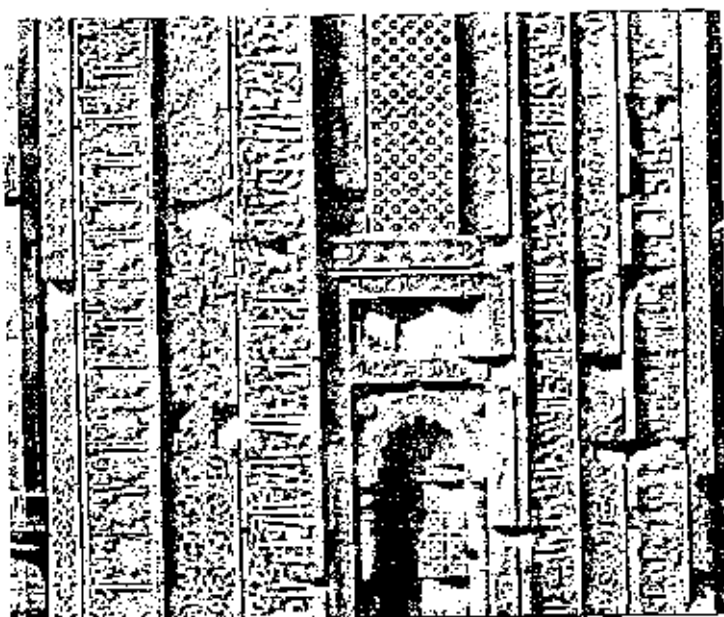




منظر داخلى لمقبرة السلطان التمش بدلى



بعض عقود و يوابات مسجد قوة إسلام الذي بناه
السلطان قطب الدين أيلك بدلي



بعض النقوش المزينة بها جدران مسجد قوة إسلام ويلاحظ فيها التأثير الهندي

بدون استثناء مع البرهان المنطقي على أن كل حادث لا يقع الا لغرض مضمّر ، والنقطة التي تركز عليها عقيدة الألوهية هي العلة الغائية (Cause finale) والفيلسوف الذي يتبع كيفية جريان الشئون في العالم ويعلق كل آماله على الاهتداء الى الحقيقة بهذا المنهج ، اذا انتهى في النتيجة بالميل الى نظرية فيزيقية وميكانيكية لابد من أن يترزّل اعتقاده في الله . لأن النظرية الميكانيكية تنكر العلة الغائية وبالجمعية الكائن المدبر . وان لم يزل يعلم بوجود الله لا بالبرهان وانما بالالهام الوجداني فليس له الا طريقة واحدة ليؤلف بين حكم العقل والميل العاطفي وهي البحث عن نية صائبة وحكمة بالغة في الحوادث بصرف النظر عن تعلّقها بأنفسنا من حيث الخير والشر ، أي الاهتداء الى العلة الغائية في حدوث كل أمر والا يلزم قبول نظرية تقلب الأهواء (caprice) بالضرورة (١) .

« والشاعر الحزين الذي ألف (المقبر) يتصور الله كطفل أكبر (تجاوز الله عن تصور الشاعر) عندما يجد نفسه أمام مثل هذه الضرورة أي أنه يتصوره كطفل يرى غير مسئول يجعل من العالم في يده لعبة يلدّذ بضربها وكسرها وان كانت لا نهاية لقدرة هذا الطفل الأكبر الا أنها بدون غاية كما تدل طريقة تحقّقها على أنها قوة جبارة صادرة من مزاج طفلي . على أن الشاعر يجب أن يعذر في تفكيره هذا إذ أن افتراض تقلب الأهواء ليس له ، بل هو عقيدة (حامد) الطفل ، تسيطر على عواطف الشاعر وتحكم في أفكاره . ولا يعنى هذا أن الشاعر ليس عارفاً كما يقول بعض العارفين الصوفية : « ان كل تفكير في الله تتمثل فيه النفس ولا تتمثل فيه حقيقة الله » ، ولكنه يعنى بأنّه يستطيع أن يفكر على هذا النمط في بعض الأحيان . بيد أنه يعرف جيداً تلك الحقيقة ويحسن قول ما يعرفه بحيث قد لا يكون من العدل أن لا ننوه بقدر بيانه . وان البيتين الآتيين اللذين نقلتهما من (ثولو) أي الميت (٢) لأنطق شاهد لما أوردته :

خدائك ايشلرني كندى ايشلرك صانما
سنك قياسكه او نماز بوحادثات وشئون

(١) من آثار عبد الحق حامد : فيه دوام الإنكار المرسودة في (المقبر) .

(٢) أنظر مبعث وجوب وجود الله تعالى في (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ، الجزء الثاني) .

اولورمى بويله مسائله جاي چون وچرا
بزي يوتورلو ياراتمن او خالق بيجون

(لا تخل شئون الخالق شئونك
ان هاتيك الحوادث لا تعلل بقياسك
هل فى مثل هذه الأمور محل لكيف ولم ؟
هكذا خلقنا الخالق وهو لا يسأل عما يفعل . .)

« أجل يعرف ويتقن معرفة دستور هذه العقيدة مثل العلماء الآلهيين ،
اذ الأقوال التى قالها هى تفسير لنصوص خطيرة مثل : (يريد ما يشاء ويفعل
ما يشاء) و (لا يسأل عما يفعل) .

« ان هذا التفكير الذى تضره عقيدة كل الأديان الأساسية خطير
ومن شأن الانسان أن يترع اليه . والعقل البشرى بعد أن يجد نفسه عاجزاً
حيال أسرار الكون ، يضطر أن يؤمن بارادات حرة مطلقة لقوة قاهرة .
مع أن هذا الاعتقاد لا يسعه أن يقود لمعرفة شيء فضلاً عن أنه مصدر
لتنقض المعتقدات فى مبحث الآليات لكونه منافياً لنظرية العلة الغائية .
ولولا أن هذه المسألة الغامضة ليست فيما نحن بصده لامتويت ايضاح
ما أوردته . ولكنى أضيف مقدراً التبعة التى ألقاها على شرح الأمثلة
التي أسلفتها ، أن تفسير حوادث الكون بنسبتها الى ارادة حرة مطلقة
ليس تفكيراً منطقياً . على أن العقل البشرى الذى يجهد فى بحث الحقيقة
لا يجد راحة الا فيه ، ونحن نسكت وجداننا بنظرية (الحرية المطلقة)
اذا نحن عاجزون عن الاهتداء الى تفسير منطقي معقول ، وان كنا لا نجد حلاً
لهذه المشكلة ، الا أن عقلنا المجهد يجد وسيلة للراحة على كل حال . .
ونفهم من هذا اننا اذا عاجزنا عن تفسير سر التكوين نحاول الخروج
من المشكلة بنظرية (الطفلية) وان هى الاحيلة أخيرة للعقل البشرى ،
ومؤلف (المقبر) يحذو هذا الحذو ، فعند ما يعجز الهام الشاعر ومنطق
المفكر عن معرفة مسألة التكوين يصبح قول (حامد) الأخير دستوراً لنظرية
الطفلية .

« ان الشاعر جرى وراء منطقته الانساني ووصل الى هذه النظرية .
ويجب ألا ننسى أن سبب تفلسفه هو الفراغ الذي فتح في ذهنه بموت زوجته
والقبر الذي حفر أمامه . ان المصيبة المؤلمة التي أصابته لا تتطوى في نظره
على عدل ولا معنى . ولعله لا يفكر تحت وطأة التأثير بأن تلك الكارثة ليست
راجعة الى طبيعة الوجود كله بل خاصة له ، فينوح قائلاً :

بي مقصد وبى كناه كيتدى .

(قضى عليها بدون غرض وهى بريئة)

« فهل يمكن أن نتصور بموجب هذا التفكير أية حكمة لذلك الحادث ؟ ..
ثم لا يلبث أن يخاطب تلك القدرة القاهرة :

وورمى ته دن اويله برغريبي ؟

حكمتريكك بوى نصيبي ؟

(ما الداعى لقتل ممكنة مثلها ؟

هل هذا من مبررات حكمتك ؟)

« ويعتقد أغلب الظن أن تلك القدرة حرمته من أحب الكائنات
إليه جزاء لما أسلف من المعاصي . على أن قبوله هذا الاحتمال يظهر رجوعه
الى اعتقاد العلة الغائية والعدالة المطلقة . ولكنه يحاول أن يرفض
ذلك الاعتقاد بعد أن يعيه أن يجد فيه تعليلاً منطقياً بقوله :

كورمك نه اعسن جزا او معصوم

بن ايندم ايسه اكر جنايت ؟ ..

(كيف يمكن أن تنال العقاب تلك البريئة

ما دمت أنا الذى ارتكبت جريمة ؟ ..)

« وعندئذ يضطر الى التسليم بأن انقلاب العالم يدل على ارادة جامعة مطلقة
وحقى يؤثر أن يسأل روح زوجته عن حقيقة الأمر ويقول :

بن زائرى سن دفين مقبر ،

برمش قيلالم بوئى براير ،

چققد کمی حضور کبریا به ،
ییلد کمی نه در او طفل اکبر ؟ ..

(أنا الزائر وأنت مدفونة في القبر
تعالی انسال معاً : .

هل مثلت بين يدي ذی الکبرياء ،
هل وقفت علی ما هو الطفل الأكبر ؟ ..

« ان التعريف الذى يدل به بعد سؤاله هذا وان كان موشحاً بتصويرات
وتشبيهات شعرية الا أنه دستور بليغ لنظرية الحرية المطلقة :

معصوم که رازدر بکاسی
معصوم که خنده در لقاسی
کهواره سی شادمان ماتم ،
بازیمجه سی انقلاب عالم . .
معصوم که یوقدر انتهای
صان کندیسى کندینک خداسی
ایتمشدى سنى اوخالتى ناز
فکرمدہ وجودینک ضیاسی
چانان یلیور اوطفلى جانلر
پرورده سیدر اوطفلك آنلر
أى روحى قیلان کوزمدہ یرواز
اولدکمی او آشیانله دمساز
اول یرده ناصل کچر زمانلر ؟
مرئیمی زمانلر ، آخمانلر ؟ ..

(ان المعصوم الذى ليس بكأثره الا برأ
ان المعصوم الذى ليس لقاءه الا ابتساما
ولا يسر مهدد الا المآثم والحداد

ولست لعبته الا انقلاب العالم^(١)
 ان المعصوم الذى لا نهاية له
 فاعلمى أنه هو نفسه آله نفسه .
 هو الله الذى أبدع الدلال
 وجعلك فى فكرى ضوء وجوده
 ان النفوس تتخذ ذلك الطفل حياً
 ويدنون له بحياتهم
 ألا يا أيها التى تطير روحك فى عيني
 هل وقفت من ذلك المنزل موقف الحى
 وكيف تمر هناك الأزمنة ،
 وهل يرى فيه الزمن والسموات ؟ ..

• ولكنه لا يسأل لكى ينال الجواب . . اذ يعرف أن البشر سيعجزون
 دائماً عن تلقى جواب ذلك السؤال . وبناء على ذلك يعلن الشاعر بأسه قائلاً :

كور دكه نه كوزك كوردك ايواه .
 سوراخ او نوردن نه آكلار ؟
 دتدان نه بيلير غداى روحى ؟
 مقبر نه بيلير صفای روحى ؟
 اول عقلدن استخوان نه آكلار ؟
 يلمزسه مكين ، مكان نه آكلار ؟ ..

(واذا رأيت بأى عين رأيت .. أوأه .
 ماذا يفهم المحجر من ذياك النور ؟
 كيف يبلغ الأسمان غدار الروح ؟
 ماذا تفهم العظام من ذلك العقل ؟
 وكيف يفهم المكان ، مادام المسكين لا يدرك ؟ ..)

(١) أعرف لماذا أذكرنا الشاعر العثماني المعروف الشيخ غالب ؟ انى أعتقد أن حامداً
 تأثر (فضول) والشيخ غالب أكثر من تأثره أى شاعر عثماني آخر . ولكن الذى أريد أن أقوله
 هنا ليس هذا . والشيخ غالب نفسه يشاطر حامداً فى اعتقاده بأن انقلاب العالم لعبة فى يد الألوهية .
 وأحسن بيت فى أبيات حامد التى ذكرناها هو البيت الرابع وهو تفكير خاص لحامد أى تفكير
 متفتح النظير . (المؤلف رضا توفيق)

« وواضح أن الشاعر لا يهتم بالوسيلة أيضا . ولا معنى لنظرية الوسيلة
بطبيعة الحال بعد رفض العلة الغائية . اذلك لتجد في البيت الآتي نصاً
يدل على أن الوسيلة من خصائص الاعتقاد الباطل :

أولكمه غرض ، مرض نه لازم ؟
أولسون . . فقط ايتمه سين تورم
(مادام الغرض هو الموت فما لزوم المرض ؟
فلتت . . ولكن دون أن تصاب بالسل . . .)

« والاعتقاد الذي رسخ في ذهن الشاعر ليس هذا مطلقاً . فاني أستطيع
أن أقول انه (تأثرى Impressioniste) في ميحث الاعتقاد ، وليست
له عقيدة مستقرة . الا أنه يؤمن بقدرة القاهرة ايماناً تاماً . وانه لخليق أن يؤمن
من قاسى مثله وتألّم . على أن صورة هذا الايمان لا تلبث أن تتغير تبعاً لاختلاف
احاس الشاعر . فما أوردته هنا من أمثلة كشاهد على أقواله لم يكن الا لأبين
كيف أن روح الطفل الذي يلزمه دائماً يؤثر بين الفينة والفينة على تفكيره
الفلسفى ، على أنى لا أعرف بين الشعراء العثمانيين شاعراً عبر بمثل بلاغته
عن الاحساس الدينى أو عن دستور الحكمة الندينية الأساسية . وسوف أبرهن
على ما قدمته عند ما يحين وقته . . . »

يرى القارئ فيما تقلناه عن الفيلسوف رضا توفيق كيف ينتقل الشاعر
حامد على جناح الهاماته بين طبقات السماء وحفرة القبر في طيات الأرض
وكيف يحاول أن يكشف الستار عن الغيب وهو يوجه مشاعل فكره
الى ما وراء الكون . والشاعر الذى يقول حينما يستولى عليه اليأس في بعض
القصرات :

دورور حقيقت أشياء تراب شكلنده
سؤال آخرت ايتدكجه بن بوتربندن ...
(وتظل حقيقة الأشياء في شكل التراب
كلما مالت هذا الصريح عن الآخرة ...)

لا شك أنه مشغول البال بالحالة الراهنة في الحياة الآخرة وأن عواطفه القلبية تبخر ثم تنهر كغيث غزير من الأفكار على دماغه . وقد ظهر هذا الغيث في سبل من الأبيات التي جرت على لسانه الذاهل . قالها الشاعر في أكثر الأحيان وهو يناقش نفسه في حياة الأرواح ولا يطمئن إليها في حالتها المجردة عن الجسم الذي اقترن به في الحياة الدنيا مثل قوله :

تجريد ايله روحم اولمايور شاد
برجسمه وار احتياجي مزداد ،
بن نيله به يم بقاي روحي ،
اولمازسه وجود ايله برابر ؟ ...

(لا تسر روحي بالتجريد
لأن حاجتها ملحة الى الجسم ،
وماذا يجديني بقاء الروح
ما لم تكن مقترنة بالوجود ؟ ..)

ولاستيفاء البحث في هذه المقالة أضيف الى ما أسلفته من الشواهد الأبيات الآتية من شعر (حامد) التي يعالج الشاعر فيها أعمق موضوعات فلسفية في بحث الألوهية . يقول الفيلسوف رضا توفيق في تأليفه السابق ذكره :

« ان فكرة واحدة فقط لا تتغير عند (حامد) وهي العقيدة التي يتضمنها دستور (اللا أدريّة Agnosticism) ^(١) التي لا تكاد تعتبر أملاً في التفكير حسب المعنى الاصطلاحي للتعبير . ولذلك اجترأت أن أقول أنه ليس لهذا الشاعر الذي ألف (المقبر) و (الميت) فكر مستقر في مباحث ما بعد الطبيعة . وفي الحقيقة لا يتردد هذا الشاعر أن يعترف بعجزه وجهله — مثل المفكرين الكبار — في موضوعي (مسبب الأسباب La cause des causes)

(١) كان الحكماء المسلمون يستعملون هذه الكلمة مقابل (الريبية Scepticism) وأما نحن فنستعملها بمعنى (Agnosticism) مما يظهر فرقاً خطيراً بين الاستمالين . لأن الفيلسوف الريبى يشك في احساس ذاته ويالتالى في كل ما يحيطه ، وأما الفيلسوف الذي مذهبه هو (Agnosticism) فهو يشك في احتمال مطابقة تصورات العلية على حقيقة الأشياء فحسب ، ولذلك هو يعترف أنه لا يستطيع ان يعلم ذاته بالرغم من أنه مسلم في شعوره بوجود الحقيقة المطلقة (ر.ت) .

و (حقيقة الأشياء La réalité des choses أو موضوع (الوجود المطلق)
l'être absolu بل يقوم ببيان هذا العجز في صيغة مبداً بليغة ،
اذ يقول :

بیلیری کوردیکنی خواب ایجنده کشی ؟
بیم جهانده کی حالم بوکا مطا بقدر .
بازیق ! خبر دکل یونده برحقته دل ،
اکرجه کوردیکمز مربر حقا تقدر .
آنی تجمه وار یزده آنجی امتداد
دیم که کنی (شیء) ک بو عقل : فارقدر .
کورب ده ییلنه مکی آکلامن دیرم محضا
فقط دیم : (بشرک شونده علمی لایق در .)

(هل يعلم الانسان بما يراه في نوم النوم ؟
ان ما قلته ينطبق على موقعي أنا في الكون .
يا للخسارة ! ان النفس لاتعرف في هذا الكون حقيقة ما ،
وإن كان كل ما نراه ليس الا حقيقة واقعة .
نحن لانملك الا خصيصة الملاحظة ،
فلا أقول ان هذا العقل يتخذ في كنه الأشياء
بل أقول انه أدرك فيها رأى عدم علمه به فحسب ؛
ولا أقول : (ان العلم البشرى يليق بذلك ..)

» فالشاعر في هذه الآيات يدعى أن العلم البشرى (اضافى relative)
و (ذاتى subjective) في الوقت نفسه وأن الحقيقة المطلقة
لن تنكشف للانسان كما هي tell qu'elle ، وهو على صواب فيما يدعيه ؛
ان هذه العقيدة ليست خاصة به بل هي كانت للانسانية بأسرها منذ الخليقة .
كما أن الأنبياء يشاطرون هذا الايمان . فعنى هذه الأقوال أمام (السر المطلق)
الذى هو لغز مغلق ليس الا الاعتراف بالعجز المطلق ، بل هو امتناع العقل
عن الادلاء برأى ناهيك . التفوه بقول . بل ان أصدق الردود على صوت
الحقيقة الذى يصل الى صماخ الوجدان هو اعتراف النبي صلى الله عليه وسلم

بقوله : (بامعروف ، ما عرفناك حتى معرفتك) ، والفلاسفة وأهل التصوف الكبار قد عيهم وحديثهم ابتداء من حكماء الهند ومصر حتى الحكم سقراط ومنه حتى الفيلسوف (سينسر) لم يقولوا فيها قالوا آخر الأمر سوى ذلك . وانا بمقتضى العجز الكائن فى فطرتنا الانسانية لا نستطيع أن نتعدى حدود أنفسنا الطبيعية حينما نقوم بالبحث عن الحقيقة ، فليس لهذا الرأس الضعيف أن يحترق الحصار الحديدى الذى يحيط به . ومن الكفاية بمكان فى أن نعرف أن لا سبيل الى المعرفة كما قاله الشاعر التركى البغدادى (فضولى) وردد فيه قول سقراط بنصه (١) .

« ان نظرية (اللاأدرية) قد تتضمن عقيدة عدمية Négatif كما هى تتضمن عقيدة وجودية Positif ، فعند ذلك تنقلب الى مذهب انكار الألوهية أى : الالحاد . وأما القول بأن ما يحتق فى وراء حجاب الحوادث هو (العلم) فيعنى العدمية أى : nihilisme . وقد سبق من الحكماء من قام بمجاهرة هذا الرأى ، كما استقر عندنا رأى الباطنية فيه . وفى القرون الوسطى لقد قرر بعض حكماء أوروبا أن الوجود المطلق هو العدم بدون اسم ، ومن المتأخرين الفيلسوف (David Hume) معروف بمذهبه الرأى نفسه ، والفيلسوف (Y. Stuart Mill) الذى يتبع رأى الأول فى فلسفته يقول : « ان الحوادث لا تسبقها حقيقة مطلقة ثابتة لا تتغير (immutable) وان ما يسبقها هو الحوادث أيضاً . . . » وهكذا يختار هو مذهب الحادثة (Phénoménisme) ، وأن الفيلسوف اليونانى القديم (هراقليت) سبق أن اعتنق هذه العقيدة التى خالفه فيها الفيلسوف (بارميندس) القائل بأن الشئون ظل زائل وأما الحقيقة الثابتة المطلقة فهى مسترة تحت ظل ذلك الظل .

« وقد تنطوى نظرية (اللاأدرية) على المعنى الوجودى وتقرر أن فيها وراء الحوادث وجوداً مطلقاً لا يمكن أن يتعلق العلم البشرى بكنهه حقيقته ، وان نظرية (حامد) اللاأدرية تنتهى اليها ، ان هى الا فلسفة مشهورة ،

(١) ان العالم (R. Flint) من أساتذة جامعة اكسفورد ألف كتاباً فصحاً فى (اللاأدرية) وذكر فيه أقوال كبار الحكماء والصوفية وأفكارهم كما فتنش أراهم بالتفصيل (ر.ت) .

قد يجد القارئ معالمها ظاهرة في آثار الشاعر . فان الوجود المطلق الذي لا يمكن الوقوف على حقيقة ذاته وقيل في تعريفه انه آله لا يخلو منه مكان في العالم فكرة للتوحيد تنور ليلي (حامد) المهجورة ويشعر الشاعر بوجود مثل البرق الذي ينتشر فوق رأسه ، اذ يقول :

ايدر ليائي هجراني كه بکه تنوير ،
 سرمده فکرت وحدت که برق صاعقذر ؛
 بوکائنانده ، هرشیده ، کوکلده ، قرآنده ،
 کوکلده ، جانده بر الله وارکه خالقذر .
 بزه کورونسه ده مظلم ، مثال جای غروب ،
 بوقبرلر ، هب اونک نورینه مشارقذر .
 دوشر او مرتبه انسان کریوه جهله ،
 نه مرتبه — بوکون — آرتارسه علم واذعانی .
 بوحال ایله اوکا کولونخی چهره مقصود ؟
 بوحال ایله قورور البته چشم کریانی .
 غریبدر ، فقط اول کبریای مطلقه تک
 بوحال ایله بویور ، آرتار جلال ایله شانی .
 بوجلوه کاه فناده بقاسیدر مشهود ،
 خدا ، وینیر ، او وجودک که کورمه یزآنی .
 بویوکلکک دخی یوقدر حدودی ، بیایانی ،
 کوجوکلکک دخی یوقدر حسابی ، میزانی .
 اولوب کیدر بویاکی قوته تلاقیگاه ،
 ویرن او حاله وجود ، اتضای فرمانی .
 کورنمه یور بزه شمس حقیقتک نوری ،
 فقط صباي عیاندن نقاب شکلنده .
 نه یولده برکونشک ظلی در بوکلشن عشق ،
 فاصلدر آنشی یارب ، بوکور دیکم شررک ؟ .

(ان فكرة التوحيد تشرق في رأسي
وتنور ليالى المهجورة بين الفينة والفينة ،
قائه موجود في الكون كله في السماء وفي القرآن
في القلب وفي الروح وانه لهو الخالق .
ولكنه مهما تراءى لنا فهو مظلم مثل المغرب
وهذه المقابر لنوره مشارق .
وأما الانسان فهما يزداد علمه يزداد جهله
وهل يتصور مع هذا الجهل أن يكشف هو الوجه الذي ينشد ابتسامه
يبد أن دوام حرمانه يؤدي الى نضوب دموعه لا محالة .
ولكن كبرياء الخالق - للعجب - يعظم عند المخلوق
ويزداد جلاله وهو في هذه الحالة .
وأما الذي نشهده في هذا الكون الذي يفنى
فهو خلود الوجود الذي نسميه الله ولا نراه .
ان العظمة التي ليست لها نهاية
وان الصغر الذي لا يمكن عده ولا وزنه
يلتقيان في ذاته وهو يوجد ما تقتضى ارادته .
على أن نور شمس الحقيقة وأن احتجب عنا
فسحابه ظاهر لنا في صورة الثمام .
ان روضة العشق هذه ظل أية شمس ؟
وما هي حقيقة نار الشر - يارب - التي أراها ؟ . .)

« ان الشاعر ينزع الى مذهب اللاأدرية بشهادة الأبيات السالفة الذكر
التي تبين في الوقت نفسه أنه مؤمن بالحقيقة المطلقة ، وقد تظهر عقيدته هذه
على مبدأ وحدة الوجود تارة : فبدلاً من أن يتصور الله سبحانه وتعالى
- حسب هذا المبدأ - فوق كل شيء يتصوره كجوهر قيوم (Substance
permanente) ضمن كل شيء ، كقوله :

بوتون مراثرى تدقيق ايديك : خدا ظاهر ،
بوتون مظاهري تعميق ايديك : خدا مضمون .
بيرونده قومله دفن ايتديكم اوكنج شباب ،
اونك اينجده ده باقدم ، بوكون اودر : مدفون .

(ان تمت بالبحث لدى الأسرار كلها فأنه ظاهر فيها ،
وان تعمقت في المظاهر بأسرها فالمضمون فيها هو الله .
وحق الكنز الأخير بالشباب الذي دفنته تحت الرمال في (بيروت)
لم أكد ألقى عليه نظرة في القبر حتى وجدت الله فيه)

« فالقبر اذن ليس فيه أيضا سوى الله ، ان حامدا يدون في آياته السالفة
مبادئ وحدة الوجود . فالذات الذي يتكلم عنه بضمير (هو) هو الحقيقة
المطلقة التي يشير اليه الصوفية به وهي نقطة الغيب وسر الأسرار . .
ومع ذلك أن الضمير (هو) قد استعمل للإشارة الى وجوده فقط
وليس لتعريف حقيقة ذاته . ومولانا جلال الدين الرومي يقول :

ذات باك حق تعالى هیچ کس
می نداند ای حکیم این شرح ، بس .
بعد ازیں کر شرح کویم ابلهیت ،
زانکه شرح این وراى آکبهیت . . .

(ما من أحد يستطيع أن يعلم ما هو ذات الله
إليك هذا الشرح أيها الحكيم ، وكفى !
وانه لمن العبث بعد ذلك أن يحاول البحث فيه
لأنه يتعلق بما وراء الإدراك . .)

« وأما الحكيم السفاني فهو أحسن ابتداء من مولانا في البيت الآتي :

آنکه فهم ترا درو ره نیست
غایت فهم تست ، الله نیست .

(ان الذي لم يستطع ادراكك اليه سبيلا ووقف عنده
ليس الله ، بل هو نهاية ادراكك . . .)

أما البيت الآتي فهو من أحسن أشعار (حامد) ان هو الالمة الهام
قد تظلل ما أجادته قريحته برمته في هذا الموضوع ، اذ قال :

الله که ضیای عزتم در ،
جانانله آنلیس وحدتم در . .

(الله الذى هو ضوء عزلى
ومع الحبيب أتيس وحدتى)

« وأما قراره الأخير فى مبحث الألوهية فقد أبلغه فى الآيات التالية :

ايتمكلك ايجين خدائى اذعان ،
(انمان نه ديمك) ييليرى انسان ؟
ممكنحى او كبرياى مطلق ،
محكوم خيال آدم اولقى ؟
نه عقل ييلير اوفى نه وجدان ،
توحيد جيقار ، نه دينه نقصان .
بز حكم ايدنه لم ، نه زعملر بو ؟
هيح محكمه يه كليرى يزدان ؟ . .

(ولكى يدرك الانسان ما هو الله ،
(هل يدرك الانسان) ما هو الله ؟
وهل يمكن أن يخضع الكبرياء المطلق
لأحكام مخيلة البشر ؟ . .
لا يدركه العقل ولا الوجدان
ومهما قيل فى ذاته فهو يفيد التوحيد والنقصان .
لنحكم نحن ونقرر ما هو ذاته ، أى زعم هذا ؟
فهل يعقل أن يأتى الله الى المحكمة ؟ . .)

هذا عرض سريع عن الشاعر (عبد الحق حامد) ضربناه مثلا فى طليعة
الآيات للشعر التكرى وقد برهن الفيلسوف رضا توفيق فى دراسته الطويلة
التي أجراها على تأليف حامد (المقبر) بتحليلات علمية ، على أن الشاعر عرض
فى شعره الى أبواب فلسفية ميثاقية يحاظر من الهامه الفياض وتعمق فيها
دون أن يكون له أى المام بتلك العضلات الفلسفية فى ثقافته الأدبية .

ابراهيم صبرى

سياسة مصر العربية

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

ثورة العيسير^(١) (١٨٦٤ - ١٨٦٦)

للككتور محمد محمود السروحي

مدرس التاريخ الحديث بالكلية

كانت ثورة العيسير إحدى الثورات العديدة التي قامت ضد الحكم العثماني والسيطرة العثمانية نتيجة لضعف سلطة الباب العالي واضطراب الأمور في اليمن والحجاز . وقد استعان السلطان العثماني بوالى مصر في اخفاء تلك الثورة ، ووجدت تلك الدعوة ترحيباً كبيراً من قبل والى مصر اسماعيل أملاً في احياء السياسة العربية التي سارت عليها مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

فاشترك مصر في القضاء على تلك الثورة يعتبر من وجهة نظر مصر تامة لسياسة العربية التي وضعت أسسها من قبل . ولذا فلا يستطيع الباحث أن يتفهم سياسة مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اذاء ما جرى في شبه الجزيرة العربية من أحداث ما لم يرجع الى الوراء بضع قرون ليلم المامة سريعة بالسياسة التي اتبعتها كل من مصر والدولة العثمانية اذاء تلك المنطقة العربية من العالم .

بدأ اهتمام العثمانيين بالسيطرة على سواحل البحر الأحمر بعد احتلالهم لمصر مباشرة عام ١٥١٧ . وكان مرد هذا الاهتمام يرجع - الى حد كبير - الى محاولتهم معالجة أهم المشاكل السياسية والاقتصادية التي واجهتها مصر منذ أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح في أواخر القرن الخامس عشر .

(١) جميع الوثائق العربية المشار اليها في هوامش البحث منقولة عن قسم المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى . أما الوثائق الفرنسية فنقولة عن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ومحفظة بالقصر الجمهورى أيضا .

كان على الدولة العثمانية إذاً أن تدافع النفوذ البرتغالي المتغلغل في المحيط الهندي والجزء الجنوبي من البحر الأحمر . ووجد العثمانيون أن من واجهم القيام بعمل حاسم لوقف التيار البرتغالي ، لاتقاذ العالم الاسلامي من هذا الخطر الصليبي المتعصب ، حماية للقوى الاسلامية في الهند من أن تحطم ، ومحافظة على الولايات العربية الواقعة على سواحل البحر الأحمر من أن تشزع السيطرة على التجارة الشرقية من أيديها . هذا فضلا عن الفائدة الكبيرة التي تعود على الدولة العثمانية من القضاء على قوة البرتغاليين ومن يسط سيطرتها على الطريق التجاري القديم ، واستعادة أهميته السابقة كطريق تجاري هام بين الشرق والغرب .

ومن ثم بدأ الأتراك العثمانيون يتطلعون الى الاستيلاء على السواحل الغربية لشبه الجزيرة العربية ، ووضع أيديهم على المراكز العربية التجارية الواقعة على سواحل البحر الأحمر الغربي مثل هرر وسواكن ومصوع حتى لا يمكنوا البرتغاليين من توطيد أقدامهم في تلك المناطق .

وكان الحجاز أسبق هذه الأقطار الى الدخول في حظيرة الدولة العثمانية بعد أن دالت دولة المماليك في مصر . ولم يجد شريف مكة غضاضة في أن يتقدم بفروض الطاعة والولاء للسيد الجديد (السلطان سليم) بمصر ، ليضمن بذلك بقاءه في منصبه ، وليتمتع بالحماية العثمانية ضد اعتداء البرتغاليين .

وإذا اتجهنا الى الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية نجد أمارة اليمن حيث كانت خاضعة لحكم الأئمة الزيديين ، وكان أمراء المماليك في مصر يدعون لأنفسهم شيئا من اليادة على اليمن نظراً لسيطرتهم على اقليم الحجاز . وقد وجد هؤلاء المماليك في الضغط البرتغالي على اليمن فرصة سانحة لتدعيم نفوذهم في تلك البلاد ، فأرسلوا بقوة حربية كبيرة اليها بحجة الدفاع عن كيائها ضد الغزو البرتغالي . وظلت تلك القوة الحربية قائمة الى سقوط دولة المماليك فأخرجت منها بالقوة . وبذلك أصبحت اليمن مطمعا لقوتين جديدتين هما : العثمانيون والبرتغاليون . الى أن تمكن العثمانيون من أن يكون لهم الغلبة في النهاية وأن يسيطروا على اليمن بعد حملات متعددة وتضحيات شديدة . وبالرغم من ذلك لم يستطع الأتراك العثمانيون البقاء فيه فاضطروا الى الانسحاب عنه في سنة ١٦٣٥ .

كما استطاع الأتراك أيضا من بسط سيطرتهم على الإمارات الواقعة على الخليج الفارسي . ولكنها كانت في واقع الأمر سيطرة اسمية ، وظلت السلطة الفعلية في أيدي أمراءها ومشايخها المحليين .

من هذا العرض الموجز لحركة التوسع العثماني في شبه الجزيرة العربية لمواجهة الضغط البرتغالي نجد أن العثمانيين قد اضطروا إلى الاهتمام بالعالم العربي وبالمشاكل العربية ، وبأن يكونوا لأنفسهم سياسة عربية خاصة إزاء تلك المناطق .

وباستيلاء العثمانيين على الحجاز اتخذوا من جدة قاعدة لحكم هذا القطر العربي ، وأطلقوا عليه اسم ولاية الحيش ، وأقاموا بها واليا تركيا برتبة الباشوية ويخضع لسلطته شريف مكة . وظلت الصلة التي تربط مصر بالحجاز تتمثل في بعثة الحج المصرية وفي الأموال والغلال التي ترد سنويا إلى الأراضي المقدسة . واستمر الحجاز خاضعا لحكم الأتراك العثمانيين إلى أن استولى عليه الوهابيون في عام ١٨٠٢ م .

وعندما عجزت الدولة العثمانية عن استرداد الحجاز من أيدي الوهابيين ، التجأت إلى محمد علي وإلى مصر ، للقضاء على الحركة الوهابية وانتزاع معظم الجزيرة العربية من أيديهم . واستطاعت مصر بعد جهود كبيرة من السيطرة على الحجاز في عام ١٨١٩ ومن وضع سياسة عربية خاصة بها في شبه الجزيرة العربية . وتهدف تلك السياسة إلى الاستقلال بحكم تلك البلاد ، وبذلك أصبح لمصر منزلة مامية لدى الشعوب الإسلامية نتيجة لسيطرتها على الحرمين الشريفين .

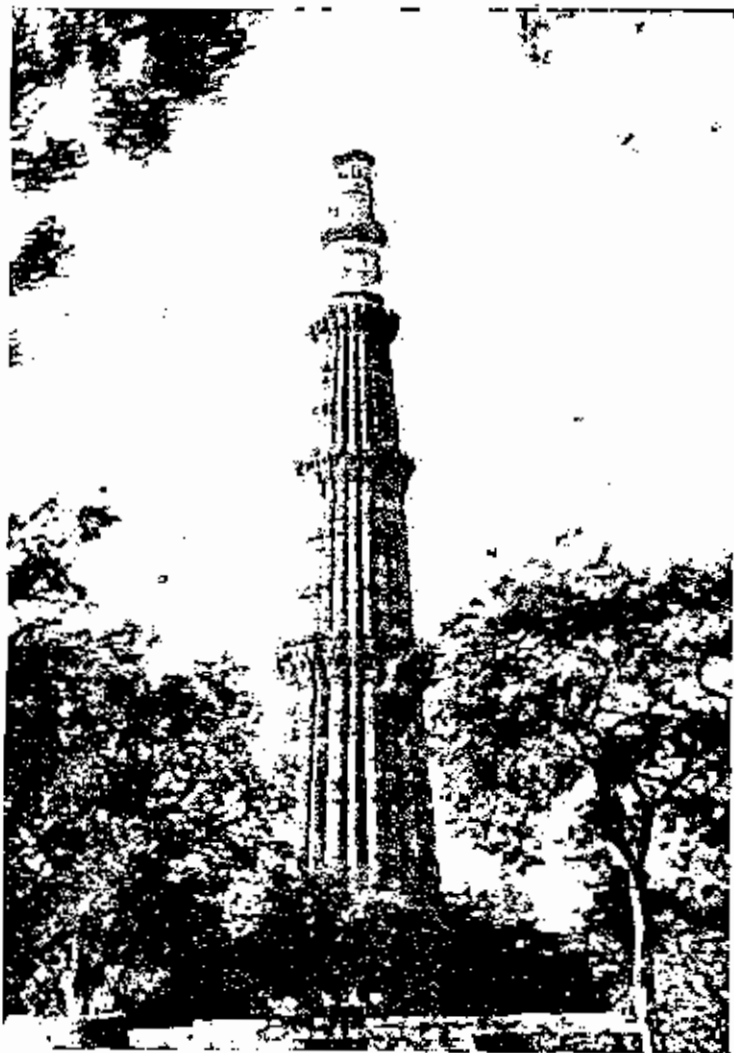
وقد حاول محمد علي بعد أن استتب له الأمر في شبه الجزيرة العربية أن يتجه بفتوحاته شرقاً نحو الخليج الفارسي وجنوباً إلى اليمن ، ولكن الحكومة الانجليزية أنذرت من المضي في هذا السبيل ، وبادرت باحتلال عدن سنة ١٨٣٩ . فلم يجد محمد علي بدا - تحت ضغط الحكومة الانجليزية - من الانكماش داخل شبه الجزيرة العربية ، إلى أن استطاعت إنجلترا في عام ١٨٤٠ من القضاء على الحكم المصري في شبه الجزيرة العربية وأن تعيد إليها الحكم العثماني مرة أخرى ثانية .

وكان لفشل حركة محمد علي في تكوين امبراطورية عربية والاستقلال عن الباب العالي صداه العميق في الحكومة العثمانية التي لم تتردد في استغلال تلك الفرصة في تشديد قبضتها على البلاد العربية الخاضعة لحكمها ، فأقامت بالحجاز الى جوار الوالي العثماني وشريف مكة قوة عثمانية كبيرة لتوطيد النفوذ العثماني في تلك البلاد . ونجح العثمانيون - الى حد كبير - في تدعيم سلطانهم على الحجاز نتيجة لانتهاجهم تلك السياسة الجديدة .

وظلت مصر منذ الفترة التي أعقبت عام ١٨٤٠ بعيدة عن مسرح السياسة في الحجاز ، ولا يربطها بهذا القطر الشقيق سوى ما سبق أن أشرنا اليه من ارسال الصدقات والغلال الى فقراء الحجاز كل عام . واستمر الوضع على هذا النحو الى عام ١٨٦٣ حيث حدثت بعض الاضطرابات في اليمن والحجاز ضد الحكم التركي وتجمعت قبائل العسرة تحت راية أميرهم محمد بن عائض محاولة الاستيلاء على منطقة تهامة وتهديد الأراضي الحجازية . وقد شجع النجاح الذي أحرزته تلك القبائل على مقاومة السلطات التركية الحاكمة التي أزعجها هذا الانتصار . وتخرج موقف متصرف الجديدة التركي (على ياور باشا) ، وطلب النجدة من عزت حتى باشا حاكم عام الحجاز . وكان مجيء القوات التركية كافياً لانحساب القبائل الثائرة عن الجديدة واعتصامها في المناطق الجبلية المجاورة لها والتي تبعد عنها مسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة فراسخ .

ولم ينته خطر الثوار بهذا الانحساب ، اذ مازالوا يسيطرون على بعض المناطق الحصينة على الساحل والتي مكنهم من مطاردة السفن التجارية المارة بمحازاة ساحل عسير ، والاستيلاء على ما بها من متاجر (١) . وكان على السلطات التركية الحاكمة في الحجاز والتي تمثل في عزت حتى باشا الوالي العثماني والشريف عبد الله حاكم مكة أن تقضي على تلك الثورة . ولكن نظراً لعدم تحديد اختصاص كل من الرجلين المسؤولين تحديداً دقيقاً ، حاول كل منهما أن يفتئت على سلطة الآخر ، فكثر الاحتكاك بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين . وساعد على ذلك الكراهية المتبادلة بين الطرفين .

(١) Douin ; Hist. du Règne du Khédive Ismaïl. T. I P. 316.



قطب منار أطول مثنفة في العالم بمدينة دلهي

تم بحمد الله ، طبع المجلد التاسع من مجلة
كلية الآداب ، بتطبعة جامعة الاسكندرية ،
في يوم الخميس ٣٠ من جادى الثانية
سنة ١٣٧٦ هجرية ، الموافق ٣١ من يناير
سنة ١٩٥٧

على محمد الهوارى
مدير مطبعة جامعة الاسكندرية

فمرت باشا كان يمثل العصبية التركية الحاكمة ، والشريف عبد الله يمثل العصبية العربية المحكومة . وأدى ذلك في النهاية الى عدم القيام بعمل إيجابي مشترك لاحتداد تلك الفتنة .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تخرج موقف شريف مكة عندما كلفه الباب العالي بالقضاء على ثورة قبائل عسير ، وذلك لأن تلك القبائل كانت من أهله وعشيرته . بل انه كان على انعكاس من ذلك يحرضهم سراً على الثورة ضد الحكم العثماني .

لهذه الأسباب مجتمعة لم تستطع السلطات التركية الحاكمة في الحجاز من القيام بعمل إيجابي حاسم للقضاء على الثورة . فنجأ الباب العالي الى والى مصر (اسماعيل) للاستعانة به في اخضاعها . ولما كان والى مصر يسمى في ذلك الوقت للحصول على فرمان من الباب العالي يجعل ولاية مصر وراثية في أكبر أبنائه ، وحب بتلك الدعوة ارضاء للسلطان العثماني من جهة ، وأملاً في احياء سياسة مصر العربية من جهة ثانية . ومن ثم فقد أعدت مصر قوة حربية قوامها ٥٤٤٤ جندياً من المشاة والفرسان الباشبورق (الغير نظاميين) مزودة بأربعة مدافع جبلية تحت قيادة اسماعيل صادق بك . وتمثل تلك القوة طليعة القوات المصرية المرسلة للاراضي الحجازية . وأبحرت تلك القوة في ٣ يونيه سنة ١٨٦٤ من ميناء السويس على الباخرة الحديدية متجهة الى جدة .

على هذا النحو كان تدخل مصر في المعامل العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهو يشبه - الى حد كبير - تدخلها في شئون شبه الجزيرة العربية في عهد محمد علي ، حينما استعان به السلطان العثماني على اخضاع الثورة الوهابية . ولكن والى مصر (اسماعيل) لم يكن على استعداد لأن يقدم تضحيات كبيرة كلك التي قدمها محمد علي ، ثم يكون شأنه في النهاية شأن جده من قبل . ولهذا فقد أثر سياسة اللين ، وعدم المخاطرة بالدخول في حرب ضد الثوار بأية حال من الأحوال ، مع بذل كل المساعي الممكنة للوصول الى تسوية سلمية بين الطرفين المتنازعين .

وقد حرصت مصر على اقناع رجال الحكومة بالامتنان برجعة نظرها في حسم النزاع بالطرق الودية . ونجحت في الحصول على موافقة الباب العالي على تلك السياسة^(١) ، وخصوصاً بعد أن أظهر الثوار ميلاً للتفاهم والدخول في طاعة الدولة العثمانية حقناً للدماء وحفظاً للأموال والممتلكات^(٢) .

كما حاول الشريف عبد الله من جهة أخرى ، أن يسير على مياسة خاصة تحظى برضاء الطرفين المتنازعين ، وتلألم — في نفس الوقت — مع مركزه الدقيق كحاكم عربي . فهو من الناحية الرشيدة يعتبر أحد موظفي الحكومة العثمانية ، ويدين بالصراحة والولاء للسلطان . ومن جهة أخرى فهو يرتبط بصلة الدم بقبائل عسير إذ أنهم أهله وعشيرته . فازاء هذا الموقف الدقيق ، حاول الشريف عبد الله أن يحتفظ بتوازنه بين الطرفين ، وبألا يقوم بأي عمل يعرضه لغضب الباب العالي ، أو لاتهمه بالخيانة من قبل أهله وعشيرته^(٣) . ولهذا السبب أخذ الشريف عبد الله يسوف في اتخاذ موقف حاسم ازاء الثوار ريثما يستطيع الوصول الى اتفاق مرض مع أمير عسير عن طريق المفاوضات .

كان هناك اذن اتفاق في الهدف بين سياستي كل من والى مصر وشريف مكة ازاء الثوار ، وإن اختلفت الشخصيتان في الغاية التي يسعى كل منهما الى الوصول اليها . فكلما الرجلين كان يعمل جاهدًا من جانبه لاطهار نفوذه وسيطرته على الموقف في الحجاز . ومن هنا نشأت المنافسة الشديدة بينهما .

ومما زاد الثورة اشتعالاً انضمام ثلاث قبائل عربية كبيرة كانت تقيم بالقرب من الطائف الى الثوار بعد أن خضعت تلك القبائل فترة طويلة من الزمن لحكومة الحجاز ، فأصرت السلطات التركية على عودتها . واتخذت التدابير اللازمة

(١) حفظة سايرة " تركي " من الجتاب العالي الى صاحب الكزة قومندان العساكر المصرية بالحجاز . وثيقة بدون رقم في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٢ (أغسطس سنة ١٨٦٥) .

(٢) دتر ٢١ عابدين من الجتاب العالي الى كامل بك القبركمتخدا . وثيقة رقم ٣٧ في ٢٠ ذو الحجة سنة ١٢٨١ (مايو سنة ١٨٦٥) .

(٣) Aff. Strang. Corr. polit. S. Marie au Ministre. No. 7 Djeddah 12 Oct. 1865.

للقيام بعمل حاسم ، فاجتمع مجلس عسكري ضم كل من اسماعيل صادق بك والشريف عبد الله وعزت حتى باشا : وبعض الضباط العظام لبحث الموقف ووضع الخطط الحربية الكفيلة بقمع الفتنة . وقد استقر رأي المجلس العسكري على إيفاد القوات المصرية والعثمانية الى بلدة قنطرة لاتخاذها مركزا آمنا للعمليات الحربية^(١).

وفي ١٢ أغسطس سنة ١٨٦٤ خرج شريف مكة على رأس ٢٥٠٠ من الفرسان الباشبورق والمشاة والمدفعية متخذة الطريق البري المؤدى الى قنطرة من ناحية الشرق حيث تتجمع القوات المصرية والعثمانية قبل بدء الهجوم . ولحقت به أيضا قوة أخرى من فرسان الباشبورق قوامها ١٨٠٠ فارس^(٢) . بينما سارت قوة حربية أخرى تحت قيادة أخى شريف مكة للدخول قنطرة من ناحية الغرب . فأصبحت حملة القوات الزاحفة على عسير حوالى ٨٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريطين ؛ منها ٢٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريف عبد الله و ١٨٠٠ مقاتل تحت قيادة أخيه و ٤٢٠٠ جندي مصري تحت قيادة اسماعيل صادق بك^(٣).

ويقابل هذا العدد من جانب الثوار عشرون الف مقاتل مزودون بأربعين مدفعاً ، ويعدد كبير من البنادق ، ويعتصمون بمناطق جبلية حصينة . فكانت قرصة الفوز أمام القوات المصرية والعثمانية ضئيلة جداً . وهذا ما دعا شريف مكة الى التروى وعدم القيام بأية عمليات حربية ضد الثوار ، وخصوصاً وأن أهل عسير قد أستطاعوا من قبل الاستيلاء على مكة وجدة^(٤).

(١) اسماعيل سرهت : حقائق الأخبار ج ٢ ص ٢٩٤

(٢) Aff. Strang. Corr. polit. S. Marie au Ministre. No. 212 24 Oct. 1865. 12 Oct. 1865.

(٣) Aff. Strang. Corr. polit. S. Marie au Ministre No. 212 Djeddah 24 Oct. 1865.

(٤) Aff. Strang. Corr. polit. S. Marie au Ministre. No. 7 Djeddah 12 Oct. 65.

وإذا كان شريف مكة حريصاً على عدم خوض معارك حرية ضد قبائل
عسير ، فقد كان وإلى مصر أشد منه حرصاً على ذلك ، ويبدو هذا من الكتاب
الذى أرسله وإلى مصر إلى اسماعيل صادق بك قائد الحملة المصرية في أواخر
أغسطس سنة ١٨٦٥ حيث يقول :

« وإذا صلح اليكم تنبيه بالسفر إلى جهة ما أو بالهجوم ، ورأيتم
« في ذلك خطراً ، فلا تعيروهم اذنا صاغية وتمهلوا في تنفيذ
« طلباتهم . واعلموا جيداً أن أمراء وضباط الجانب الآخر
« (يقصد العثمانيين) أناس غريبو الأطوار ، لا يهتمون قيد
« شعرة إذا ما هلكتم جميعكم ، ولا يسألون عنكم . فكونوا
« على حذر وبصيرة واجتنبوا انلاف الجنود واتعابهم » (١).

ويحذره في نهاية الكتاب أيضاً من الدخول في حرب جديّة مع قبائل عسير ،
وأن يتجنب القتال قدر المستطاع .

كما أرسل بكتاب آخر إلى شريف مكة يلفت نظره إلى ضرورة إبعاد
القوات المصرية عن ميناء قنفذه ، لأن جوه لا يتلاءم مع الحالة الصحية
للجنود المصريين ، وطالب بسحبهم في الحال إلى منطقة أخرى أكثر
ملاءمة لطبيعتهم (٢).

ويبدو من كل ما تقدم أن وإلى مصر أراد أن يوفق بين مصلحته وبين
تنفيذ بنود فرمان سنة ١٨٤١ الذى نص على اعتبار الجيش المصرى جزءاً
من الجيش العثمانى ، وعلى وجوب مساعدة مصر للدولة العثمانية ، إذا ما طلب
منها ذلك في أى وقت من الأوقات . أى أنه أراد أن يحافظ على نصوص

(١) حافظة سائرة . من الجانب العالى إلى اسماعيل صادق ، وثيقة بدون رقم في ٦ ربيع آخر
سنة ١٢٨٢ (أواخر أغسطس سنة ١٨٦٥) .

(٢) دفتر ٢٢ عابدين من الجانب العالى إلى سيادة الشريف أمير مكة المكرمة . وثيقة رقم ٨٢
في ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٨٢ (سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

هذا الفرمان من ناحية الشكل ، لا من ناحية الجوهر . ولذا حرصت مصر على مساعدة الدولة العثمانية في مختلف المناسبات دون أن تكبد نفسها خسائر كبيرة ، كان في مقدورها تجنبها وتلافيا .

ولما كان شريف مكة — كما سبق أن ذكرت — قد اتخذ من سيامة التسوية والمأطلة هدفاً يسعى لتحقيقه ، حتى لا يدخل في قتال مع الثوار فقد احتج بقلة عدد ما لديه من الجنود . وطلب من والى مصر تزويده بأورطين سودانيين علاوة على ما لديه من جنود . فرفض والى مصر اجابة هذا الطلب لأنه لم يشأ أن يذهب في مساعدته الباب العالى في مسألة عسير الى أبعد من هذا الحد . كما أنه كان يخشى على الحالة في السودان من جراء سحب هاتين الأورطتين ، نظرا لقلة ما لديه من القوات المصرية . ولذا يشتر على قائد قواته بالحجاز بتجاهل طلب شريف مكة « وبأن ينفذ التعليمات السرية حرقا وبكمال الدقة والعناية ، وألا يهتم بتعليمات الباب العالى اذا ماتعارضت مع تلك التعليمات »^(١).

وفي ١٤ ربيع ثانى سنة ١٢٨٢ (سبتمبر ١٨٦٥) أرسل والى مصر محمد بن عائض كتابا^(٢) يوضح له فيه ماتأمر به تعاليم الدين الاسلامى الحنيف من اطاعة ولى الأمر ، ويعده — في حالة استجابته لنصحه — بأن يسعى لدى الباب العالى للحصول على عفوهِ وموافقته على تعيينه أميراً على عسير ، بعد أن يتنازل عن الأراضى والقبائل التى ضمها اليه . وفى ختام كتابه هذا يحذره من عاقبة تماديه في العصيان بقوله :

« واذا لم تقبلوا النصيحة الحزينة في الدين ... فتكونون السب »
« في سوق الجيوش المتكاثرة من أرض مصر القاهرة الى تلك »
« البقاع ، وخراب تلك الديار وسفك الدماء ... فالأولى الانقياد »
« والطاعة قبل وقوع تلك الساعة »^(٣).

(١) مخططة سائرة من الجناح العالى الى اسماعيل صادق بك . وثيقة رقم ٩٣ في ١٣ ربيع ثان سنة ١٢٨٢ (أوائل سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

(٢) ، (٣) دفتر ٢٢ صادر هابدين من لدن الجناح الأعظم الى محمد بن عائض أمير عسير . وثيقة رقم ٩٠ ص ٢٥ في ١٤ ربيع ثان سنة ١٢٨٢ (سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

وقد أظهر أمير عسير بعد أن تلقى هذا الخطاب ميله الى السلم والرجوع الى حضرة الباب العالي .

وعند ما وجد والى مصر أن دعوته الى السلم وجدت قبولا لدى أمير عسير بعث اليه بكتاب يبشره بقرب صدور فرمان سلطاني بمنحه رتبة أمير الأمراء والباشوية كما وعدد من قبل^(١) .

ويقابل هذا المسمى من جانب والى مصر معنى آخر متافس له من قبل شريف مكة الذى كان يحاول التقليل من شأن الدور الذى قامت به مصر ، مظهرًا للدولة العثمانية مدى ما يستع به من نفوذ روحى كبير وما له من سلطة قوية مكنته من حل مسألة عسير دون حاجة الى تدخل عسكرى ، ليرتفع بذلك شأنه لدى الباب العالي . ولذا حفلت تقاريره التى كان يرسلها تباعًا الى الاستانة بالأمل التوى في أن تنتهى تلك المشكلة بما يتفق ورغبات الباب العالي بفضل ما يبدله من جهود^(٢) .

وقد رأت الحكومة العثمانية - بناء على تلك التقارير - ايضاد الأمير لواء جرى باشا (أحد أعضاء لجنة الشورى العسكرية) الى مكة لتداول الرأى مع الشريف عبد الله بشأن ما يجب عليه اتخاذه من تدابير^(٣) . وقد أساء تصرف الحكومة العثمانية هذا ، الى والى مصر ، وخشى أن يسبقه شريف مكة الى حل هذا النزاع ، وبذلك تتفوق دبلوماسية الشريف عبد الله على سياسته مما يؤدى الى ضعف النفوذ المصرى في الحجاز . ولذا يضج والى مصر بالشكوى لدى السلطان العثمانى ، موضحاً له بأن أفضل حل لتلك المشكلة دون

(١) دفتر ٢٢ عابدين من الجتاب العالي الى محمد بن عائض أمير عسير . وثيقة بدون رقم وبدون تاريخ .

(٢) دفتر ٢٢ صادر عابدين من الجتاب العالي الى كامل باشا . وثيقة رقم ١٢٢ في ٥ جماد أول سنة ١٢٨٢ (أواخر سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

(٣) دفتر ٢٢ صادر عابدين من الجتاب العالي الى كامل باشا . وثيقة رقم ١٢٨ في ٥ جماد أول سنة ١٢٨٢ (أواخر سبتمبر سنة ١٨٦٥) .

سفك دماء أو أضاعة الكثير من الأموال ، أن يترك له وحده أمر التفاوض مع أمير عسير . ويعبر والى مصر استماعيل عن المرارة التى يشعر بها نتيجة لتصرفات شريف مكة بقوله :

« ولكن ما الحيلة وشريف مكة - مع الأسف - لا يرى »
« هذا رأى ، ولا يحبذ هذه الفكرة ، وانما يبحث على التوالى »
« بتلك التقارير المشحونة بالمعسول من الكلام والأمانى ، »
« أملا فى نوال المزيد من الاحترام والاكرام . وكلما وجد »
« هناك (أى فى الاستانة) من يصغى لقوله ، أمعن فى خطته »
« وأساليبه ، الأمر الذى لا يستطيع معه أن يكتم امتعاضه »
« منه ولا يستطيع كذلك أن ينسب خطة سيادته الى غير »
« الأغراض الشخصية »^(١).

وبلغت والى مصر نظر الحكومة العثمانية الى الاختلاف البين بين أعمال شريف مكة وبين آرائه وتذبذبه بين الاقدام والاحجام ، ويقرر بأن مثل هذا الرجل لا يصلح لمعالجة أمثال تلك الأمور الخطيرة^(٢).

وفى نفس الوقت أرسل والى مصر مندوبا من قبله ويدعى يمى احمد افندى الى شبه جزيرة العرب لمقابلة أمير عسير والتفاوض معه سرا بشأن الوصول الى اتفاق فيما بينهما ، على ألا يعلن عن نتيجة تلك المفاوضات الا اذا أسفرت عن نجاحها^(٣). حتى لا يضعف مركزه أمام شريف مكة وأمام الباب العالى .

ورغم جنوح أمير عسير للمسلم ، فإن الباب العالى لم يسمح للقوات المصرية بالانسحاب من الأراضي الحجازية ، بل أصدر أمره بأن تظل تلك القوات

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عنيفة سايرة بدون رقم . من الجناح العالى الى استماعيل صادق بك . وثيقة بدون رقم فى ١٩ جاد أول سنة ١٢٨٢ (أكتوبر سنة ١٨٦٥) .

مرابطة في قفذه وبها يحسم الأمر بصفة نهائية ، فربما تتطور الأمور فجأة .
فلا مناص إذن من بقاء القوات المصرية فترة أخرى من الزمن ، فلم يجد
والى مصر بدا من الرضوخ لهذا الأمر^(١).

وقد خشى والى مصر من قيام اضطرابات أخرى في قلب شبه الجزيرة
العربية - وخصوصا وأن الأحوال في اليمن كانت غير مستقرة . وكانت العلاقة
بينها وبين الدولة العثمانية سيئة - مما قد يتعذر معه سحب القوات المصرية
من الأراضي الحجازية . فانتظر الولى فرصة تجمع تلك القوات في ميناء
جدة ، وأخذ يلح على الباب العالى في سحب قواته بعد أن استقرت الأمور
محتجا بأن بقاءها خارج مصر في مهمة حرية يحمل الميزانية المصرية أموالا
إضافية وخصوصا وأن حملة تكاليف الحملة قد بلغت حتى ذلك الوقت
(أكتوبر سنة ١٨٦٥) أربعين ألف كيسة (٢٠٠٠٠٠ جنيه)^(٢) .

وفي ٧ شعبان سنة ١٢٨٢ (أواخر ديسمبر سنة ١٨٦٥) تلقى قائد القوات
المصرية بالحجاز الأوامر من القاهرة بأن يشرع فوراً في ترحيل الجنود
النظامية الى مصر أولاً ، ثم تلوها القوات غير النظامية^(٣) . وقد تم
انسحاب القوات المصرية من الحجاز في يناير عام ١٨٦٦ بعد أن أمضت
حوالى السنتين دون حرب أو قتال .

وتقديرًا لما قام به والى مصر من خدمات لفض هذا النزاع ، أرسل الباب
العالى حيل باشا (أحد معاونين العسكريين في الديوان السلطاني) الى مصر
يحمل خطاً شريفاً يسجل فيه السلطان العثماني شكره لاسماعيل على ما بذله
من مساع موفقة لحسم مشكلة عسير دون اراقة دماء^(٤) . كما تبودلت التهاني
أيضا بين الباب العالى وشريف مكة^(٥).

(١) دتر ٢٢ عابدين من الجتاب العالى الى الباب العالى . وثيقة رقم ١٤٦ في ١٩ جماد أول
سنة ١٢٨٢ (أكتوبر سنة ١٨٦٥) .

(٢) دتر ٢٢ عابدين من الجتاب العالى الى كامل بك القبكوتخدا . وثيقة رقم ١٩٥
في ١٠ جماد ثاني سنة ١٢٨٢ (أكتوبر سنة ١٨٦٥) .

(٣) محفظة سائرة ، من الجتاب العالى الى اسماعيل صادق بك وثيقة بدون رقم في ٧ شعبان
سنة ١٢٨٢ (أواخر ديسمبر سنة ١٨٦٥) .

(٤) الوقائع المصرية . العدد رقم ٦ في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٦٥ .

(٥) A ff. Etrang. Corr. Polit. S. marie au ministre no. 212 Djeddab 24 Oct. 1865 .

CONTENTS OF THE EUROPEAN SECTION

		PAGE
1 —	<i>M. KHALAFALLAH</i>	
	Early Stages in the Development and Standardisation of Arabic Literary Language	3
2 —	<i>NUR SHERIF</i>	
	George Gissing : a Biographical Note	23
3 —	<i>ALY A. ISSA</i>	
	Individualism in its Relation to Social Structure ...	45
4 —	<i>MUSTAFA EL-AMIR</i>	
	An Introduction to the Study of Ancient Egyptian Law	57
5 —	<i>ABDEL HAMID HAMDY MAHMOUD</i>	
	The Significance of Abelard's "Dialogue Between a Philosopher, a Jew and a Christian"	67
6 —	<i>HILDE ZALOSCHER</i>	
	La Femme au Voile dans l'Iconographie Copte	69

EARLY STAGES IN THE DEVELOPMENT AND STANDARDISATION OF ARABIC LITERARY LANGUAGE

By

M. KHALAFALLAH

Introduction

Arabic literary language has been academically standardised since the third and fourth centuries A. H., (9th and 10th A. D.). Its grammar, syntax, vocabulary and literary usages were clearly defined after systematic and laborious research. Since that time until the present, its life has been continuous and uninterrupted. Although every Arabic-speaking country has developed its own colloquial language for everyday life, they all have continued to use that same literary language.

The scholars of the early centuries of Islam—who were responsible for that remarkable achievement of linguistic standardisation—made their starting point the historically authentic text of the Kur'an, which described itself as a «Clear Arabic Book», and which was recorded, put together and officially circulated in the first century A. H. (7th A.D.). Collections of the traditions, epistles and speeches of the Prophet; sayings and speeches of the Caliphs and the famous orators of the early Islamic period, and anthologies of Islamic poetry were also used as references and textual examples of the literary language. But the greatest efforts of the scholars in the second, third and fourth centuries A. H. were directed towards the collecting, reviving and verifying what was still kept in the memories of *rawis*, and bedouins of pre-Islamic literature. The poetry as well as proverbs and speeches of the last hundred and fifty years of the Djahiliyya period were collected, studied and commented upon, and were used as explanations of Kur'anic usages and as proofs of linguistic and literary correctness.

The assumption on which that work of reconstruction and standardisation was built was the identity of pre-Islamic and post-Islamic literary language. This assumption is borne out by many historical and literary data. The Kur'an claimed to have spoken to the Arabs in their own tongue as was God's way with every Divine mission (We have never sent any messenger except in his people's tongue — Kur'an, ch. 14, verse 4). When the Arabs heard the Kur'an they understood it, appreciated its literary excellences, and were greatly struck by its superior eloquence (Ibn Hisham *Al-Sirah al-Nabawiyya*. Cairo 1914, part I, pp. 201, 216—217).

Some of the Djahiliyya famous poets, such as, Labid and—according to some authorities—al-A'sha witnessed the rise of Islam, and some of them were reported to have composed poetry in honour of its founder (Ibn Qutayba, *Al-Shi'r wa-l-Shu'ara*. Cairo 1364 A.H., p. 212). Poetry was used on both sides in the struggle between Muhammad and the Quraysh. Arrivals of tribal delegations to submit to Muhammad were the occasions for literary exchanges on either side (Ibn Hisham, *Al-Sirah*). The Prophet and some of his leading companions showed knowledge and appreciation of Djahiliyya poetry. The Prophet was reported to have asked for the poetry of Omayya ibn Abi-s-Sult to be recited for him and he showed his appreciation of it. The Caliph Abu-Bakr used to prefer al-Nabigha to the other poets and say: «he is the best in poetry, the sweetest in rhythm and the deepest in thought» (*Al-Muzhir*- part II, p. 479). On being asked: «who were the most poetical tribe?» the Mokhadrum poet Hassan answered: «the tribe of Buthayl.» The Caliph 'Omar was a connoisseur of Djahiliyya poetry and an admirer of the poet Zuhayr. He is reported by many authorities to have given the following piece of information about the rescuing of a portion of pre-Islamic poetry from perishing: «Poetry» — he said — «was the achievement (knowledge) of people who had no better type of knowledge». When Islam came, the Arabs busied themselves with the religious struggle and the invasion of Persia and Rum, and had no time for the narrating and keeping of poetry. As Islam spread, and conquests multiplied, and the Arabs became settled in cities, they tried to revive their poetical heritage. But as there were no recorded collections, nor written books, and many of the Arabs had died or had been killed, the larger proportion was lost and the lesser only was retrieved. The family of al-No'man ibn al Munthir used to have a collection of the poetry of famous poets and of their panegyrics about him and his family. This, or part of it, came into the hands of Bani Marwan". (As Suyuti, „*Al-Muzhir*, New Cairo ed. part II pp. 309, 473—474, 479, 483). Abu 'Amr ibn al-'Ala', and Ibn Sallam reported on this matter in a more or less similar fashion (Ibn Sallam, *Tabaqat al-Shu'ara*, pp. 22—23). Ibn Faris's version of this is instructive, he says: «Poetry was the public register of the Arabs, by which genealogies were kept and deeds were known, and from which the language was learnt. It is a guide in whatever is difficult to understand of God's Book and the Prophet's traditions, and the sayings of his companions and followers. A poet may be a better one than another, and some poetry may be sweeter and more elegant than another. But old works of poetry do not differ in

excellence to a marked degree. Each can be used as a guide, and each is needed. (Al Muzhir, part II, pp. 470—471). The Djahiliyya poet — in the words of a modern scholar — was the press agent and the journalist of his days. His poems committed to memory and transmitted from one tongue to another, offered an invaluable means of publicity. He was at the same time the moulder and the agent of public opinion... Besides being oracle, guiding orator and spokesman of his community, the poet was its historian and scientist, in so far as it had a scientist" (P. K. Hitti, *History of the Arabs*, 3rd ed: London, 1946. p. 95).

Thus many references could be quoted to strengthen the claim to authenticity of what was retrieved of the Djahiliyya poetry, and the identity of its construction, style and language with the text of the Kur'an and the manner of composition of post-Islamic poetry.

The second fact upon which historical references are agreed is that the Djahiliyya poetry, as has been collected and handed down to us, was recited and appreciated all over Arabia. The poetic language heard in the courts of the Lakhmids in Hira and the Ghassanids in Syria was the same as that heard and applauded in Najd and Hedjaz.

I

How did that literary language develop in a country so widely scattered as pre-Islamic Arabia? And in what relation did that language stand to the tribal dialects which no doubt existed in the Djahiliyya, and traces of which were to be found in the variants of Kur'anic readings, and in the reported usages by the later grammarians and lexicographers? These questions in their modern formulation were not clearly conceived by the early Muslim authors. The information we get from them on this subject of the development of the literary language are fragmentary and inconsistent. Claims for priority in evolving the literary language have been advanced by different tribes. A statement often quoted in Islamic books advances the theory that pre-Islamic poetry began in Rabi'a at the hands of al-Muhalhil; then shifted to Qays where the two Nabighas and Zuhayr flourished, and finally it turned to Tamim where it remained till the days of Islam, (Al-Muzhir, vol. II, pp. 467, 477). Taha Hussein,

in modern times tried to refute this line of development (*Fi-l-Adab al-Djahiliy*, 3rd ed., Cairo 1933, second and fourth books). A glimpse of light on the subject may be sought in the many attempts at explaining the Prophet's tradition "The Kur'an was revealed in seven *ahruf* (tongues or languages)." According to Ibn 'Abbas those were the seven dialects of Upper Hawazin and Lower Tamim. This may be taken to mean that these seven dialects, being the clearest and the most eloquent, contributed largely to the formation of the literary language. (As-Suyuti *al-Itqan*, 2nd ed. Cairo 1935, p. 47). Al-Tabari in his *Tafsir* raises the question as to whether the Kur'an was revealed in all or some only of the Arab tongues, and uses the tradition referred to above to argue that the Kur'an was revealed in some only (seven) as the Arab dialects were too numerous to count, (al-Tabari *Tafsir*, 1st ed. Cairo 1323 A.H. vol I, p. 15).

Ibn Faris claims that the Kur'an contained the representative characteristics and features of Arab tongues so that the Kur'anic argument will be the more binding, and the inability of the Arabs to surpass or equal its excellence will be clearly demonstrated, (*Al-Muzhir*, vol.II, p.321). But the prevailing notion however in Islamic books seems to be that the various localities or districts of the Arabian peninsula, were divided into two categories : those which exemplified correct speech and literary usages and those which did not do so, owing to contamination by foreign influences. The first category, that of pure Arabic, can be marked geographically by two lines : one stretching from a few kilometres south of Makka to the Gulf of Bahrayu, the other running north from the surroundings of Madina to Hira (R. Blachere, *Hist. de la Litt. Arabe*, Paris 1952).

The Quraysh tribe is without doubt, included in this domain. Several Islamic authorities, however, would have this purity limited to the Quraysh. Ibn Qutayba, for example, denies that the Kur'an was revealed in other than the Quraysh tongue. Thus the seven *ahruf* according to him are those of the clans of the Quraysh. The idea that the Quraysh was the cradle of pure and literary Arabic was expressed in positive terms by two eminent authorities : ibn Faris and al-Farabi. The first (in his *Fiqh el-Lughah*) says : "Authorities on the speech of the Arabs, rawis of their poetry, and specialists on their dialects, wars, and localities, have agreed that the Quraysh had the purest and most eloquent tongue. God has chosen them from among the Arabs, and chosen Muhammad from among the Quraysh. He made the Quraysh the guardians of his Ca'ba. Delegations from all over Arabia went to Makka for pilgrimage, and other purposes (commerce and literary competitions). They used to seek arbitration at the hands of the Quraysh. And although eloquent and elegant

in tongue, the Quraysh used to select the best and purest of what they heard in those meetings in speech, poetry, and dialects, and incorporate all that into their own. In this way they became the most eloquent among the Arabs. Al-Farabi tries to advance what seems to be an answer to our question when he says : (in his *al Alfaz wa-l-Huruf*) : "The Quraysh were the best critics of the clearest words, the easiest in pronunciation, the most pleasing to hear and the most expressive of inner thought. The tribes from whom the 'Arabiyya was taken, and who were responsible for the development of (literary) Arabic were Qays, Tamim and Asad. Most of what was adopted came from them. Next to them come Huthayl, some clans from Kinana and Tayy. None was taken from other tribes". (*Al-Muchir*, vol. I, p. 211). A statement reported by As-Suyuti suggests that the Kur'an was revealed first in the language of the Quraysh and its neighbours of eloquent Arabs, and then the rest of the Arabs were allowed to read it in their own dialects.

There are so many such statements by Islamic authors which may indicate one of three possible answers to our inquiry. Literary Arabic which was developed in the pre Islamic period may have originated in one particular language, that of the Quraysh for example. Or it may have originated in a definite group of dialects, probably that of the pure localities. Or finally it may have come about as the results of intermixing between the dialects of pre-Islamic Arabia. An interesting explanation is suggested by the 19th century Egyptian author H. al-Mursafi (d 1307/1889). He says that the Arabic(literary) tongue passed through four stages (three in pre-Islamic time, and one after Islam) of polishing and selection. The first was that of the ancient Arabs who used to take words from other (Semitic) tongues, abbreviate them and modify their forms to become sweet and elegant. The second stage was the selection by Isma'il and his early sons who — as the Prophet Muhammad testified — had a clear Arabic tongue. As a result of wars and migrations, this Isma'iliite tongue changed and became diversified. The third stage was the selection by the Quraysh who were the inhabitants of Makka and its neighbourhood. The Arabs used to come to them annually in the pilgrimage season and remain with them about fifty days, during which these pilgrims used to present to the Quraysh their poetry for criticism and their disputes for settlement. They also used to transact business and conclude dealings which necessitated discussion and argument. The Quraysh made a practice on those occasions of selecting from the various Arab tongues whatever was pleasing to hear and elegant to use. They would hear for example "*al-howjam*" or "*al-Howjama*" and "*al-ward*" or "*al-warda*", (meaning the rose) and they would avoid the first and use the latter two.

The last and fourth stage came when Islam spread its mission and called for a general and universal social life. It was then that the intelligent from among the Arabs and non-Arabs used the process of final selection when they took up the task of systematising the Arabic language. They divided themselves into three groups : those who sifted the words and distinguished the good from the bad, the obscure from the clear in the different dialects; those who divided constructions into clear and not clear; and those who undertook the narrating of poetry and speeches, drawing attention to excellence in literature and to the Arabic ways of expression. In this way several sciences were created. This work was necessitated by the dispersion of the Arabs in the Islamic territories and by the appearance of solecism in Arabic as a result of the mixing of Arabs with other races. (H. al Mursafi, *Al-Wasila al-Adabiyya ila-l-'Olum al-'Arabiyya*. Cairo 1289 A. H., part I, pp. 23- 25).

Whatever the explanation may be of the emergence of a recognised general literary language in Pre-Islamic Arabia, there is no doubt that some unifying processes were already at work before the advent of Islam.

Arab historical sources provide us with many references to such early unifying processes.

There seems to have been a continuous movement to and fro between the various tribes. One form of this movement was the dispersion of the Azd tribe from Ma'rib to Hamadan and Himyar, and then to Tihama and Hidjaz, where some settled in Makka and its neighbourhood, and others branched off to Iraq, Syria, 'Oman, Yamama, Bahrayn and the borders of Persia. Other examples are the migration of the Ansar tribe to Yathrib and of Ghassan to Syria. Arab groups from Rabi'a and Mudar are known to have settled in Mesopotamia, had abodes and pastures there and enjoyed the protection of Persia in the East, and Byzantium in the West. Some, like Taghlib (ibn Rabi'a) in Mesopotamia, and Ghassan, Bahra', and Tanukh (from Yaman) in Syria adopted Christianity. A useful account of these migrations, based on historical references is contained in a recently published research in Cairo, (which supported the view that such migrations tended to drive the scattered tribes towards a unified literary language and a select conversational medium), by S. Faysal, *Al-Mujtama'at al-Islamiyya fil-Qarn-el-Awwal* (A. H.), Cairo 1952, vol.II.

Attempts at answering this question of the origin of literary Arabic have been made by past and present Orientalists, and presented almost the same picture as we drew above from Arabic sources. (See articles in Encyc. of Islam). Noldeke and Brokelmann were on the side of a common

literary language to which all — or most — dialects contributed. In the opinion of the former, the differences between dialects spoken in the main part of Arabia were small, and the literary language was based upon all of them equally. The latter favours the assumption that literary Arabic arose gradually as a result of the reciprocal relations between the different tribes, which followed from their annual migrations in search of pastures, as well as from the pilgrimages to common places of worship, such as Makka and 'Okaz; the vocabulary probably was drawn from many dialects. Most of the other Orientalists are on the side of a definite group of dialects, or one special dialect, being the origin of literary Arabic. A. Schade, for example, although realising that a correct answer to this question must depend on the complete study of ancient dialects, suggests, however, that a comparison with other languages such as English, French and German might give more weight to the idea of the dialect of a special tribe having been — perhaps for political reasons — adopted as a common literary language. Kamfmeyer located the favoured dialect in the Eastern part of central Arabia. Nallino thought it was the colloquial of the Nadjd tribes united in the state of Kinda.

A bold attempt at a modern treatment of the subject was recently made by C. Rabin, on the basis of the study of ancient dialects. In his book (*Ancient west-Arabian*, London 1951), he gives a summary of Muslim and European views, and then proceeds to reconstruct the dialects of the Himyar, Azd, Hudhail, Hidjaz, and Tayyi tribes. The basic idea behind his book is the discovery that the schematization of all dialect differences into Hidjaz and Tamim which we find in Arab works corresponds to a real cleavage of the ancient dialects into an Eastern and a Western group. He does not claim to give a definite opinion on the question of the origin of classical Arabic. But he offers what he calls a working hypothesis, namely that classical Arabic is based on one or several of the dialects of Nadjd, perhaps in an archaic form. Nadjd was an area where East and West Arabians met and mingled. In the west of the region the Ghatafan and Hawazin dialects were strongly West Arabian, in the East those of Ghani and 'Uqail clearly Eastern... this area was thus neither purely East nor purely West-Arabian. It was the scene of various attempts to transcend the tribal organization: the empire of the Kinda and Qays confederation. Here, apparently Arabic poetry came into being. Just as in Spain lyrical poetry carried everywhere the idiom of its Galician cradle, so the new Arabic poetry spread together with the language in which the first poems had been composed. In view of the mixed character of the area it is likely to have been a compromise between Eastern and Western Arabic right from the outset. It was widely employed before Islam by poets whose spoken language differed strongly from that of the Nadjd. Some local varieties developed

which admitted, to a very limited degree features, especially vocabulary of non-Nadjdi dialects. The unity of the poetical language was assured by the close cultural links which developed at the same time, and the meeting of poets from many tribes at the courts of Hira and Ghassan and at commercial and religious centres. Such a local type of classical Arabic was employed in the Hidjaz for poetry and perhaps also for writing in general. This is the idiom in which the Kur'an was spoken and recorded". (v. Rabin, *Ancient West Arabian*", London 1951, Chapter 1.).

Another promising modern attempt to study Arabic dialects through their relics in Kur'anic variants and in recorded linguistic and grammatical constructions, and through their lingering features in modern dialects is made by I. Anis of Cairo. He does not dwell much on the question of the origin of classical Arabic. But, he starts from the supposition that the Peninsula was composed of several units represented in the tribes, and in spite of common social systems, this separation resulted in different dialects with distinguishing features. Cultural and political factors, however, which preceded the rise of Islam, led to the emergence of Makka as the centre of Arab unity, and to the adoption of a common literary language. This language, by necessity avoided the peculiarities and idiosyncrasies of the different dialects and became a model vehicle used and appreciated by the specialists in the art of expression. This was the language which the Kur'an used and helped finally to establish. (I. Anis, *Al-Lahajjat al-'Arabiyya*". Cairo 1946, Introduction).

II

In the preceding section of this paper we tried to give a representative account of the various theories and hypotheses, advanced—by Arabic and Western scholars—for the explanation of the emergence of classical Arabic during the fifth and sixth centuries, A. D. Our main concern here, however, is to follow the course of the development and spread of literary Arabic in the early centuries of Muslim history. The second stage in that development began with the rise of Islam. The new religion chose to make its challenge to the poetically minded Arabs through literary composition. The new Holy Book, by its excellence, proved to the Arabs as miraculous as the turning of a stick into a snake, or the healing of the sick was to former peoples. The whole revolution in the life, belief and practical philosophy of the Arabs was embodied in the chapters of this new Book. From the beginning of its revelation it was

being learnt by the Muslims and recorded in writing by the special scribes employed by the Prophet. (Al-Jahshari, *Al-Wuzara' wa-l-Kuttab*, ed. Saqqa and others, Cairo, 1938).

The Arabs understood the meanings of the Kur'an and appreciated its excellent qualities in the normal way in which any people would understand and appreciate a work of literature in their literary language.

The general practice was that a Muslim would learn a few verses (ten for example) and would not exceed them until he knew their meanings and followed their precepts in practical life (Al-Tabari, *Jami' al-Bayan*, vol I, pp. 27, 28). It was not long before a group of companions (e. g. Ibn 'Abbas, Ibn Mas'ud, 'Ikrimah, and 'Aly) became specialists in the interpretation of the Kur'anic text. Thus a new branch of literary and linguistic learning started which became later an important reference in the standardization of literary Arabic. But there was another important aspect of Kur'anic reading which had some bearing on the development of literary Arabic, namely the variants which caused concern to many a faithful believer. When some companions noticed different readings on the part of others, and brought the matter to the notice of the Prophet, he reassured them by saying „The Kur'an was revealed in seven *ahruf*” (literally letters which was taken by different commentators to mean languages, dialects, tongues, or ways of pronunciation). The discussion of this tradition occupies prominent place in every book on Kur'anic interpretation. It raises many problems connected with Kur'anic usages in their relation to linguistic and grammatical standards which were established later.

The danger of this variation in the reading of the Kur'anic text reached its climax in the time of the third Caliph, 'Othman when it led to serious quarrels among the fighting Muslim forces in the Byzantine and Persian Empires. To stem this, 'Othman took the bold step of ordering a standard copy to be compiled by the famous revelation scribe, Zayd ibn Thabit and others. The compilers were told to follow the Quraysh dialect when they could not agree on the reading to adopt. Five such authorised copies were sent, each to an important centre. All others were ordered to be destroyed or burnt (Al-Qastallani, *Fath al-Bari*. Vol. VII, p. 534). Thus the first and foremost Islamic literary book of the Arabic language was edited and circulated, and for this and other reasons, became the most authentic model for literary usage. Wherever the Islamic faith went in its rapid spread, it carried with it this religious and literary constitution. Every believer learnt part, or all, of it by heart, and was influenced in his literary activities by its diction and modes of expression.

Many of the different readings of the Kur'an, however, were preserved to us through the *Qira'at* or variants and they proved valuable in the reconstruction and study of Arabic dialects.

The Kur'an had, yet, another aspect in which it influenced the course of the literary language, namely its miraculous unsurpassable excellence. The literary Arab celebrities admitted impotence before its challenge, and Muslims down the ages looked up to it as their literary guide and linguistic authority. The study of secrets and signs of Kur'anic eloquence and inimitable superiority has given Arabic literary criticism a special approach and a wealth of material (See, M. Khalafallah, *Kur'anic Studies as an Important Factor in the Development of Arabic Literary Criticism*, Faculty of Arts' Bulletin, Alexandria, Vol. VI, 1953).

During the Prophet's life-time, and some time after, pure poetical activities among the Arabs gave way to the propagation of the new faith by word and by sword. Some devout Muslims found better occupation in learning the Kur'an and pondering on the beauty of its style, others joined the invading Muslim armies in Syria, Iraq and Persia. The art of public speaking, for a period, took the place of the art of poetry. The literary language now was turning more and more into a language of religious guidance, moral uplifting and legislation for the new order. New shades of meaning and literary usages began to develop within the framework of the pre-Islamic literary language. "The Arabs in their Djahiliyya days", says ibn Faris, had inherited from their ancestors a heritage of dialects, literature, rituals and sacrificial practices. But when Islam came, conditions changed, religious beliefs were discarded, practices abolished, some linguistic terms were shifted from one usage to another, because of matters added, commandments imposed, and rules established. (Examples of these changes are given by Al-Syuti, Ibn Khalawayh, Al-Tha'alibi and Ibn Durayd. See, *Al-Muzhir*, part I, pp.v 249, 295, 296, 298, 301, 302.).

Thus the second stage in the development of the Arabic literary language has brought in new important factors, religious and social, and introduced many necessary linguistic changes. But that was not all. The scene was considerably widening and shifting. The Arabs were no longer contained in their Peninsula, but they were spreading north, north east, and north west with the rapidly sweeping conquests of Islam. Wherever they went they carried with them not only their new Arabic Holy Book with its polished and appealing language, but they carried also their tribal linguistic characteristics, and their traditionally inherited literature (poetry, proverbs, narratives, and oratorical speeches) which they stored in their memories.

These conquests were an important factor in the process of Arab linguistic unification. Several of the big invading armies were composed of mixtures of tribes, many of whom were accompanied by their women and children. Thus a good deal of intermixing and intermarriage between the tribes took place in the conquered cities... Newly established settlements — such as *al-Kufa* — had in them elements from north as well as from south Arabia, and from Hidjaz as well as from Nadjd.

The Arabs were now passing from the tribal stage to the stage of cities and countries. Their social units were no longer the tribal units only of Asad Kinda, Muzayna, Tamim, etc, but the peoples of Busra or Kufa, and the peoples of Syria or Egypt. This new regrouping of the Arabs must have reduced considerably the linguistic differences of the dialects and must have helped the unifying processes which we met earlier in pre-Islamic times.

All through their early Islamic wars and victories the Arabs then were heading not only towards religious, but also towards linguistic and literary unity. They never ceased, even in their war camps to recite pre-Islamic poetry and to argue about the merits of famous poets.

With those conquests, Arabic was now spreading to new non-Arab territories. Its fortunes in the different units of the vast Islamic empire were varied. In some countries like Syria and Egypt it became — and is still at the present time — the national language of the country. In others like Persia it remained for a few centuries the language of culture, but with time it gave way to the native Persian language. The story of the spread in its early stages, and the emergence of the colloquial languages in the Arabic-speaking countries is a long and interesting one. (See, S. Faysal *Al-Mu'jam'at al-Islamiyya*, Vol. II). The spread and establishment of Arabic in some countries as a national language was aided by various factors. In Syria, for example Arabic did not find itself a stranger as Arab elements had already settled there, Arabic poetry had been welcomed at the Ghassanids' courts, and many of the original inhabitants spoke Aramaic which was a kindred language to Arabic. In Iraq, apart from the great numbers which came with the conquest, Arab tribes from pre-Islamic times had already settled there, and an Arab state had established itself in Hira. In those regions of Iraq where Persian was prevalent, Islam and the long established neighbourhood of Arabs and Persians paved the way for the conquering language. Some Persian kings — such as Bahram Four — were even known to have been brought up in the Arabic courts and to have composed Arabic poetry. This along with the fact that Arabic was the language of the governing classes, and of the new religious and social values, all combined to secure for Arabic an official position in Persia.

If we leave the Eastern provinces and turn westward to Egypt and North Africa we find other factors which helped to establish Arabic as a permanent language. Since Ptolomaic times, Greek has been in Egypt the language of Culture, politics, administration, and later of the Church, while Coptic was the vehicle for daily intercourse among the population. When Islam conquered Egypt, the governing Arab classes spoke only Arabic, and it was natural that those who came in contact with them showed a great desire to learn Arabic. For the rest of the people, a form of Arabic dialect was developed for the practical needs of everyday life. The adoption of classical Arabic as a state language, and of colloquial Arabic as a conversational medium among the Egyptians was accomplished within a century after the conquest. Authorities state that Coptic disappeared almost completely after that period from most parts of Egypt, and could only be found among the scholars who specialised in studying it (A. Amin, *Fajr el-Islam*, 3rd ed., Cairo, 1935, p. 259).

In North Africa Arabic became the dominant language in the cities through the spread of the new religion and the arrival of wave after wave of Arab settlers. The Berber language showed the most resistance to the new language in its strong holds in the interior. But Arabic went on spreading, and was later strengthened by the Arab conquest of Spain.

These conquests, then acted as carriers of Arabic both as a literary and as a colloquial language in many different lands. As many Arabs migrated to these new territories, taking their language with them, so did great numbers of non-Arabs migrate in the opposite direction; many as slaves and clients, and they settled in the big Arab centres of Makka, al-Madina, al-Basra and al-Kufa. They naturally adopted Arabic as their medium of intercourse, and some of them mastered literary Arabic and became famous writers, and poets. Some of the Persian clients found in the two capitals of Hidjaz a fertile soil for their music and singing. Thus a movement of interaction between Arabs and non-Arabs was taking place all through the Islamic empire during the first century A. H., This movement produced a great civilisation which became known as Arab-Islamic civilisation. The ancient Aramaic and Iranian cultures, under the aegis of the Caliphate, were woven into a new pattern and expressed through the medium of the Arabic tongue. Arabic was thus invigorated by new elements of ideas and images, stimulated with fresh conceptions of excellence and eloquence, and enriched with a new vocabulary. Persian, in particular, was responsible for the introduction of new terms in the fields of luxury, ornaments, handicrafts, fine arts, government administration, and public registers (A. Amin, *Fajr al-Islam*, Section III).

Under the Umayyad rule, the capitals of the empire began to settle down to some form of activity and specialisation. In Hijaz lack of political power, combined with increased wealth and luxury from war booties, produced a leisurely life of poetry, music and singing. It was the combination of these religious, political, and economic factors which made of Hijaz in the first century A. H., a centre of amorous poetry. This new development in the life of Makka and Madina gave the classical language a new field and fresh material. The two schools of love-poets, the Bohemian under the leadership of 'Umar ibn Abi Rabi'a, and the Platonic under Jamil Buthayna made extensive use of the narrative style, and helped to give Arabic literature one of the finest literary encyclopaedias of the world, the Book of „*al-Aghani*“, by Abu-l-Faraj -l-A'safahani. In Syria and Iraq where political strife and tribal feuds were at their highest, partisan and tribal poetry flourished and kept alive the pre-Islamic spirit of literary rivalries. Jarir, al-Farazdaq, al-Akhtal and scores of other poets took part in these public controversies and provided the classical language with another wide field, „*al-Naq'id*“.

On the prose side, public speaking and epistle writing made great strides. The spread of the new order which Islam preached depended largely on persuasion. Weekly religious sermons and public directions from the Prophet, the Caliphs, their deputies and governors produced a wealth of eloquent speeches and a number of first-class orators. (Al-Jahiz, *Al-Bayan wa-t-Tabayin*). The expansion of the Islamic empire and the increase in matters of general policy and administrative organization necessitated the establishment of state registers and the employment of expert writers. (Al-Jahshiyari, *Al-Wuzara' wa-l-Kuttab*).

From the second century A.H. onwards a group of epistle writers — mostly non-Arabs — began to distinguish themselves by their literary prose productions. They introduced into Arabic literature new literary techniques and ways of expression inspired by their original non-Arabic cultures. At the hands of ibn al-Muqaffa', Abd-el-Hamid and their school, Arabic briefness gave way to long works of prose, and Arabic rhetorics began to be enriched by the fruits of Persian, Indian, and Greek rhetorics (Al-Jahiz, *Al-Bayan wa-t-Tabayin*). Thus the Arabic language became the religious, literary and administrative instrument of a rapidly growing and developing community. It was not long before that language was called upon to express the intellectual energy of that vast Islamic empire. Islam with its new liberating and stirring influences seemed to have released strong currents of intellectual activity which applied itself

deligently to the search after knowledge. Early Muslim efforts bore fruits in the fields of Kur'anic and religious studies, and then in those of history, language and literature. With the transference of power from the Umayyads to the 'Abbasids, the intellectual achievements of the Muslims found new scope in translating foreign philosophy and science. In the fourth century A. H. Islamic centres of learning in the East as well as in Muslim Spain were at the height of their scholastic activities and were making valuable contributions in the Arabic language to the advancement of knowledge. (P. Hitti, *History of the Arabs*).

III

So much then for the second stage in the development and spread of literary Arabic, which accompanied, coincided with, and was influenced by the rise of Islam and the establishment of a vast Islamic Empire. But this in turn led to the third and important stage in the life of literary Arabic and that was the stage of linguistic and literary researches which led to the solidification and fixing of its principles and characteristics. The need for this began to be felt from the first century A.H. Grammatical and linguistic mistakes in the use of the classical language made their appearance even at the time of the Prophet and the Caliph 'Omar (Al-Balathuri, *Futuh*). Alarmed by this the Arab Caliphs of Omayya started a campaign for purification and correct usage of the Arabic classical language. They began to observe this in their own circles and in the education of their children. 'Abd-u-l Malik ibn Marwan used to warn his sons against solecism by telling them that in the speech of a nobleman, it was uglier than small pox in the face or a rent in a precious garment. 'Omar ibn 'Abd-el-'Aziz, who ruled towards the end of the first century A. H., used to be very critical in linguistic matters, and could not suffer to hear any incorrect utterance around him. But this incorrectness in matters of construction and vocalization was not confined to any particular group or class of the new community. Some Bedouins could — and did — deviate sometime from the recognised and approved usages, as they did not have rules and laws to keep them to the right path. (As-Suyuti, *Al-Muzhir*, vol. II, pp. 494 and after). Some Arab governors of the provinces — e.g. Khalid al-Qasry the governor of Iraq — were known for their solecism, a weakness of which satyrists made use against them (Johann Fuck, *Al-Arabiyya*, Section 2.). Even *rawis* — such as Hammad, and poets — such as al-Farazdaq — were not immune from such weakness. (Ibn Sallam, *al-Tabaqat*, p. 15). More Serious—however—were the deviations introduced by the non-Arab Muslims in sound and construction as well as in matters of meaning. The vocalization system of Arabic and its variation of case

endings proved a stumbling block to the non-Arabs whose languages were simpler in these matters than Arabic. The effect of this showed itself in two ways : in the creation of local colloquial dialects, and in the spread of solecism in the classical language. These symptomatic phenomena were observed at a time when progress of the Muslim state began to stimulate interest in knowledge and research. This interest — driven by the strong urge to keep pure the language of the Kur'an and the cultural vehicle of Muslim literature and thought — prompted the scholars of Islam to launch their campaign of purification which reached its climax and bore its fruits in the third and fourth centuries A.H.

A— The first line of attack was the creation of a science of grammar which early in its evolution found its master mind in Sibawaih (d. 180 A.H.). His work— known in Arabic sources by the name of the Book — presents a coherent and logical system built apparently on the established usages of Hijaz and Tamim. It remained the main authority for Arabic grammarians all through the centuries, and became the centre of their critical discussions and commentaries. During the life-time of Sibawaih two grammatical schools of thought developed : one in Basra of which Sibawaih was the leader, and one in Kufa under the leadership of al-Kisa'i (d. 189 A.H.). The story of development of that science, the pedigree of its great masters and the viewpoints of its schools is told in many Arabic and European sources. (See e. g. : 1- Ibn-Al-Anbari, *Al-Insaf* ; 2— Al-Suyuti, *Bughyat al-Wu'at* ; 3— M. al-Ra'i *Tarikh Adab al-'Arab* ; 4— Howell, *Arabic Grammar* ; 5— Nicholson, *Literary History of the Arabs*).

B— The second line in the stabilization of literary Arabic was the creation of a science of language. The early founders of the science were al-Khalil ibn Ahmed (d. 160 A.H.), the author of the first Arabic lexicon (*Kitab-al-Ayn*), and Ibn Durayd (d. 223 A.H.), the author of "*al-Jamhara fi-l-Lughah*". Later lexicographers such as Ibn Manzur (d. 711 A.H.), and Fayruzabadi (d. 817 A.H.) gave classical arabic its greatest standardised dictionaries "*Lisan-al-'Arab*" and "*al-Qamus*".

C— Yet another important branch of study contributed in no small measure to the standardizing processes of literary Arabic -- namely the line of literary criticism which built itself on the excellences of the Kur'anic style and the essential features of classical poetry. Critical writings, from the beginning of the third century A.H. took different forms. At the hands of Abu'Obayda (d. 210 A.H.), a-Farra' (d. 207 A.H.) and Ibn Qutayba (d. 276 A.H.), they appeared in the form of a treatment of Kur'anic literary and linguistic usages. Ibn Sallam (d. 232 A.H.) al-Amidi (d. 371 A.H.), al-Jurjani (d. 392 A.H.) occupied themselves with the classifi-

cation of the poets, the analysis of their art, or the comparative study of some of them. Al-Jahiz (d. 255 A.H.), Abu Hilal al-Askari (d. 395 A.H.) tried to build up a science of rhetorics and literary criticism which was later brought to a mature stage at the hands of Abd-al-Qahir al-Jurjani (d. 471 A. H.).

These three principal lines of standarization were part of a general Muslim intellectual movement which bore fruits in several directions, and originated or developed many fields of knowledge. It is to the credit of the early Muslim Humanists of the first and second centuries A. H. that they realized the necessity of a developed and standardized classical language. Before this could be accomplished a ceaseless search among the desert Bedouins for correct and pure linguistic usages and for memorised poetry of the classical period was undertaken by a group of rhapsodists or rawis, chief among them being Hammad al-Rawiya (d. 156 A. H.), Khalaf-al-Ahmar (d. 180 A. H.), Abu 'Amr ibn el-'Ala (d. 154 A. H.) and al-Asma'i (d. A. H.). (See Ibn al Nadim, *al-Fihrist*.).

Thus by the end of the fourth century A. H. the chief and radical characteristics of Literary Arabic were finally and academically fixed. As an instrument of literature and science, of philosophy and of human culture in all its aspects, the Arabic language proved a ready and efficient vehicle. It spread with Islam and invigorated itself with all the cultures which Islam incorporated, but always within the norms and standards exemplified in the Kur'an and classical poetry, and systematized in various sciences by the humanists of the third and fourth centuries after Hidjra.

BIBLIOGRAPHY

- Abu, 'Obayda, *Majaz Gharib al-Kur'an* (manuscript).
- A. Amin, *Fajr-al-Islam*, (3rd ed. Cairo, 1935).
- I. Anis, *Al-Lahajat al-'Arabiyya*, (Cairo 1946).
- Al-Balathuri, *Futuh al-Buldan*, (Cairo 1901).
- R. Blachere, *Histoire de la Litterature Arabe*, (Paris 1952).
- S. Faysal, *Al-Mujtama'at al-Islamiyya fi-l-Qarn el-Awwal. A. H.* (vol. II, Cairo, 1952).
- Johann Fuck, *Al-Arabiyya* (Ar. trans. Cairo, 1951).
- M. S. Howell, *A Grammar of the Classical Arabic Language*, (Allahabad, 1883).
- P. K. Hitti, *History of the Arabs*, (3rd. ed. London, 1946).
- T. Hussayn, *Fi-l-Adab-el-Djahili*, (3rd. ed. Cairo, 1933).
- Ibn-al-Anbari, *Al-Insaf fi Masaa'il-el-Khilaf*, Cairo, 1945).
- Ibn-Faris, *Mu'jam Maqayis al-Lugha*, Cairo, 1947).
- Ibn Hisham, *Al-Sirah al-Nabawiyyah*, Cairo, 1947).
- Ibn-Jinni, *Al-Khasa'is*, (part I, Cairo, 1913).
- Ibn Qutayba, *Al-Shi'r wa-sh-Shu'ara'*, new ed. Cairo, 1364 A. H.).
- Ibn-al-Nadim, *Al-Fihrist*.
- Ibn Sallam, *Tabakat Fuhul el-Shu'ara'*, (new ed). Cairo, 1952).
- Al-Jahiz, *Al-Bayan wa-t-Tabayin*, (new ed. Cairo, 1948).
- Al-Jahshiyari, *Al-Wuzara' wa-l-Kuttab*, (new ed. Cairo, 1938).
- H. al-Mursafi, *Al-Wasila-al-adabiyya ila-l-'Olum al-'Arabiyya*, (part I, Cairo, 1289 A. H.).
- R. N. Nicholson, *Literary History of the Arabs*, (Cambridg, 1930).
- Al-Qastallani, *Fath al-Bari*, (vol. VII).
- C. Rabin, *Ancient West-Arabian*, (London, 1951).
- M. S. al-Raf'i, *Tarikh adab al-'Arab*, (2nd ed. part I, Clairo, 1940).
- Al-Suyuti, — *Al-Itqan fi-'Olum el-Kur'an*, (2nd ed., Cairo 1935).
- Al-Suyuti, ii— *Al-Muzhir fi-'Olum al-Lugha*, (new Cairo edition, 2 vols.).
- Al-Tabari' Jami' al-Bayan fiTafsir-el-Kur'an, (1st. 3ed. Cairo, 1323. A. H., vol. I).
- Tha'alibi *Majalis Tha'lab*, (Cairo, 11948).

(M. Khalafallah)

خلاصة باللغة العربية

المراحل الأولى في تطور اللغة الأدبية العربية وتثبيت مقاييسها

يقع هذا البحث في مقدمة وثلاثة أقسام : فأما المقدمة فقد أشارت الى الحقيقة التاريخية ، وهي أن اللغة الأدبية العربية قُربت معاييرها بشكل علمي في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فوضعت قواعدها النحوية والصرفية وحددت أوضاعها اللغوية والأدبية بعد دراسة جادة وبحث منظم . وقد استمرت حياتها منذ ذلك اليوم الى العصر الحاضر دون انقطاع ، واستمرت الأقطار العربية تتخذ منها لغة أدبية موحدة ، وإن اصطنع كل قطر منها لهجة عامة لحياته اليومية .

هذه الحركة العلمية استندت الى فروض ومبررات ، منها اتحاد اللغة الأدبية قبل الإسلام وبعده ، ومنها انتشار الشعر الجاهلي واستقرار أوضاعه اللغوية والاسلوبية في كثير من أنحاء شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام .

ويلخص القسم الأول من البحث محاولات العلماء من شرقيين ومشرقيين في تحليل نشوء تلك اللغة الموحدة ، وفي بيان الصلات بينها وبين اللهجات التي كانت منتشرة في شبه الجزيرة .

وأما القسم الثاني فإنه يتبع تطور اللغة العربية وانتشارها في المرحلة الثانية التي بدأت بظهور الإسلام ، فيشير الى أن معجزة الدين الجديد جاءت في صورة كتاب عربي مبين ، وجه الحياة العربية وجهة جديدة وسن لها دستوراً شاملاً ، ولم يلبث هذا الكتاب أن جمع ونشر في صورة رسمية وأصبح محور دراسة أدبية ولغوية كان لها أثرها بعد في تقنين اللغة الأدبية ، كما كان لفكرة اعجازه أثرها في إبراز مقاييس الجودة الأدبية . فلما اتجه الإسلام الى خارج شبه الجزيرة في فتوحه ، صاحبه اللغة العربية فانتشرت بانتشاره ، وتأثرت بعوامل الامتزاج بين الجيوش الفاتحة التي جمعت بين أفراد وكتائب من قبائل

مختلفة ، ومخروج العرب من المرحلة القبلية الى مرحلة بناء الأمصار وانشاء الدول . وبذلك امتد ظل العربية الى الشام والعراق وفارس والى مصر وشمال افريقية . وحين استقر الحكم فى الدولة الأموية أخذت عواصم الامبراطورية الاسلامية تخصص فى نواح من الثقافة والنشاط الفكرى ، فازدهرت الموسيقى والغناء وشعر الغزل فى أمصار الحجاز ، ونشط شعر السياسة والعصية فى الشام والعراق ، وظهر كتاب الرسائل من الموالى والعرب . وبذلك كله أصبحت اللغة العربية الفصيحة لغة دين وأدب واجتماع وإدارة فى مجتمعات متطورة ناهضة ، وأظهرت كفايتها لمطالب النشاط الذهني فى تلك الامبراطورية الواسعة . وبقيام الدولة العباسية اتجه ذلك النشاط وجهة جديدة فأخذ فى ترجمة التراث العلمى والفلسفى للأهم القديمة . ولم تلبث المراكز الاسلامية فى الشرق والغرب أن بلغت فى القرن الثالث والرابع المجريين ذروة الازدهار ، وأن أخذت بنصيب اللغة العربية فى تقدم المعرفة الانسانية .

ويتناول القسم الثالث من البحث شعور العلماء المسلمين فى المرحلة الثالثة من تطور اللغة العربية بضرورة تقنين أوضاعها اللغوية والأدبية ، والعوامل التى أثارت هذا الشعور ، والتى كان من بينها ظهور اللحن وتسرب العناصر الدخيلة الى جسم اللغة . وقد ظهرت جهود هؤلاء العلماء فى جهات ثلاث : الأولى خلق علم النحو ، والثانية خلق علم اللغة ، والثالثة خلق الدراسات النقدية والبلاغية . وقد نشأت هذه العلوم ثمرة لحركة علمية قامت على الجمع والنقد والتصنيف ، وهى حركة جديدة أن تأخذ مكانها بين الحركات العلمية الكبرى فى التاريخ الانسانى .

محمد خلف الله

GEORGE GISSING; a Biographical Note

By

NUR SHERIF

The ghost of Gissing's family haunted him both during his lifetime and after his death. It is this ghost that still stands between the biographer and Gissing the man. There is no better evidence of this than the expurgated volume of his letters and diaries edited by his brother and sister, Algernon and Ellen Gissing. In the preface written by his son, Alfred, there is an emphasis on the maturer judgments of the older Gissing who had come to regard the "intelligence of the heart" as far more important than the "intelligence of the brain". Here Alfred refers to a book similar in character to *The Private Papers of Henry Ryecroft* which Gissing had contemplated writing and in which he was to "set forth his ideas as further modified by experience".¹ His son regrets that "such a project was never carried out". "It is indeed unfortunate" he says, "for we know comparatively little of his mental development in later days".² Alfred goes on to point out why the extracts from the diary inserted in this volume are so few: they are introduced mainly with the idea of furnishing such details of his movements and occupations as are not contained in the letters.³ Describing the diary, he says that

the entries are, as a rule, short and hurried; they were intended either to recall to the writer's mind the principal events of each day, or in a few words to summon up before his vision certain impressive scenes which he had looked upon during his travels on the continent. Except in the case of his foreign travel there are but few detailed descriptions or expressions of opinion; consequently the entries contain little that would be of interest to the public".⁴

Thus the diaries are dismissed in an attempt to put the biographer off the track.

1. Letters of George Gissing to Members of his Family, (1927) p.v.

2. p.v.

3. p.vi.

4. p.vi.

This indicates that there is a feeling of shame of the younger Gissing and a strong desire to efface the views of the "immature" young man by stressing the maturer views of the older and more experienced person; while the description of the diaries is an attempt at self-justification based on unconvincing arguments. It is difficult to believe that a writer like Gissing would have kept a diary without trying to get to the bottom of his own character, for Gissing was nothing if not honest, and it would not be wrong to assume that this diary would contain his innermost thoughts and feelings. Where there is reticence it would be unconscious, and his very silence would be significant. His own conception of the value of a diary is expressed in a letter to his sister Margaret :

By the by, do you keep a diary? If not. I should certainly advise you to do so, now that you have more time to spare. Put in it all the main events of each day, and, at the same time, every book you read, with remarks upon them. Likewise jot down special thoughts that come into your head. To say nothing of the pleasure it gives you to look over such a book in future days, you benefit much by the careful thought it necessitates, thoughts about yourself as well as other people. I have found it a very good exercise to try to *learn* myself, asking myself whenever I do a thing of some importance Why do I do this? Would it be better to leave it undone? and so on.¹

On April 7th, 1902 he writes in his own diary :

Yesterday started to open the first volume of my diary, and found it such strange and moving reading that I have gone on, hour after hour. Who knows whether I may not still live a few years; and if so, I shall be sorry not to have a continuous record of my life and I resolve to begin journalising once more, after all but a year of intermission.²

It is evident then that Gissing desired to have, and presumably to leave a continuous record of his life which would serve as a justification of his actions to anyone who would be interested to know something about them.

1. *Letters*, p. 76, June 25, 1880.

2. *MS. Diary*.

That he did not fully trust his family to tell the whole truth about him is clear from what Gabrielle Fleury says in one of her letters, where she points out that Gissing was not very happy in leaving his papers in the hands of his family and would have left them to her had he lived longer.

There is still further evidence of the family's desire to whitewash his memory in the volume of published letters where they insert, as an appendix, a letter sent to Gissing's sisters by the Reverend Theodore Cooper who had visited him on his death-bed. This letter suggests that Gissing had at last expressed a belief in God :

I leaned over him and said 'My friend, you are going home' Distinct and clear came the words 'God's will be done.'¹

In *The Private Life of Henry Maitland*, Morley Roberts denies that Gissing died "in the fear of God's holy name, and with the comfort of the Catholic faith."² It is difficult for anyone who has read his books to believe that he had. What is significant, however, is first the fact that the Reverend Theodore Cooper should have stressed this point, feeling that it would comfort the family, and second that they should have deliberately inserted this latter in the published volume.

Knowing how much the family had suppressed of Gissing's life by merely comparing the volume of letters with Morley Roberts' biography, it is with a feeling of expectation that one opens the three volumes of unpublished diaries in the Berg Collection of the New York Public Library. But even here, before reading a single word, one is again haunted by the ghost of his family : a number of pages have been cut out of volume I. The first entry is dated 27th December, 1887 although Gissing's letter to Margaret³ indicates that he had started to keep a diary in 1880. This does not necessarily mean that the missing pages are those covering the whole period from 1880 to 1887. It is possible that there was a fourth volume

1. *Letters*, Appendix A. p. 399

2. Ch. XII

3. See above p. 24.

which has either been destroyed or is still in private hands. We are more inclined to believe that there were more than three volumes as volume I (December 1887 - May 1889) is written in ninety seven pages; volume II (May 1889 - March 1895) in one hundred and thirty four pages; and volume III (March 1895 - November 1902) in one hundred and thirteen pages. That is more than fifty pages a year during the early part of his life and twenty during the latter period. If we add twenty pages to volume I, which is about the number of the missing pages, that would bring us no earlier than the latter half of 1886. As Gissing implies that his diaries are a complete record of his life, and if we accept "complete" as meaning his life as an adult, that would leave at least six or seven years unaccounted for in the diaries.

All this is mere conjecture and we will, therefore, leave it at that and concentrate on the concrete evidence we have of the missing pages. Who is responsible? Was it Gissing or his family? Gissing re-read the diaries in 1902¹ and felt he would like to have a complete record of his life; he, therefore, began journalising once more "after all but a year of intermission". This makes it clear that there was nothing that he wished to suppress. There is still further proof that he was not responsible for destroying these papers. The pages of the three volumes are numbered and the present volume I starts on page one which is sufficient proof that Gissing did not number them when he first started to write; and there is no obvious reason why he should have done so later on. The most likely explanation is that they were numbered by Algernon and Ellen Gissing for purposes of editing and that they did this after they had read the diaries and cut out what they wished to suppress.

What exactly was in the early pages we may never know, but there is little doubt that they referred to Gissing's early life with Nell, his first wife, the broad outline of which may be reconstructed from the collection of unpublished letters at the library of Yale University and the New York Public Library. Our interest in these pages, however lies mainly in what their absence implies: the attitude of the family to Gissing's early life. This, in its turn will help us to form an idea of their influence on him during his lifetime.

A quick perusal of the unpublished diaries reveals that the only reference to Nell that has been left in is to her death. On the other hand, no pages have been cut out or passages deleted where Gissing

1. See above p.24.

describes his wretched life with Edith, his second wife who finally ended in an asylum. The most plausible explanation of this attitude would be that whereas the family objected to Nell on moral grounds, they were not so opposed to Edith who, despite her other drawbacks, conformed to their idea of respectability. Gissing's mother never forgave him for marrying Nell whom she refused to recognise.¹ It was a blot on his life which the family would do its best to efface; hence the missing pages. This conspiracy of silence started soon after the marriage :

Mother told me the girls knew nothing of Nell.
Will there not be a danger of Mrs. Pickford talking
about her to Madge? [writes Gissing to Algernon].²

It is true that Madge was only fifteen at the time, but as Gissing himself says, there was always the danger of her hearing about Nell from a different source. A broad-minded mother might have sought a better solution than mere silence. Gissing's mother, however, was very strict in the way she brought up her children. The girls grew up in an atmosphere of strict religious conformity, not unusual in those days in English provincial towns. Their Sundays at home were cheerless and depressing. Away on holiday Gissing records the annoying changes that had to be made in meal times for his sister's churchgoing on Sunday. Madge goes twice, both in the morning and in the evening. In the afternoon, while Gissing reads Ovid she reads some pietistic work.³ When he finds her reading *Les Misérables* one Sunday he can hardly believe his eyes and regards it as a fact worth recording in his diary.⁴

Gissing never forgets his dreary Sundays at Wakefield; they are constantly recurring in his novels. In his description of Sunday at Banbrigg the memory of his own gloomy Sundays at home is present.⁵ The rigid religious atmosphere of Wakefield is substantiated by Ellen's objection to *The Emancipated* where she sees too much of herself in the character of the narrow-minded puritanical Miriam. That her indignation was well-founded is apparent in Gissing's letter to Algernon on the subject :

1. Writing to Algernon, Gissing says : "Nell wishes to be kindly remembered. How I wish I could say to Mother, as well as to you" (Feb. 28, 1880, Yale University Library).

2. July 11, 1879, Yale University Library.

3. MS. Diary, August 25, 1889. September 1, 1889.

4. Ibid.

5. *A Life's Morning*, Ch. XII.

But such indignation could only be felt by one who was actually in that very slough (religious imbecility); nothing is satirised in the book but the meanest exaggerations of ignoble puritanism ... To pass from habitual intercourse with provincial pietism to *The Emancipated* is too abrupt, the air is too strong... They live in their remote corner of the earth and the great tide of human progress never touches them. ¹

Connected with this religious atmosphere is the intellectual sloth and dullness which Gissing also associates with his home. Whenever he goes back to Wakefield the intellectual barrenness appals him and he fears that the place will make him a complete dullard. ² In 1889 he stays there for a little under three months. Five days after his arrival the atmosphere begins to weigh down upon him : the paltry talk at meals, the discussion of nothing but local facts and the absence of any attempt at tackling abstract subjects. ³ Gissing, always hypersensitive, seems, even as a boy, to have sensed a lack of intellectual and aesthetic response from his mother. In a letter to her describing a walking tour in North Wales, every minute of which he thoroughly enjoyed, he checks his enthusiasm whenever he directly addresses her. The opening sentence runs as follows :

I have to write you a very long letter today, which I hope will interest you ⁴.

The same note returns at the end of the letter :

When I come home again I hope to have the pleasure of going over this with you on a map ⁵

There is a formality and a feeling of uneasiness here which never completely disappears after Gissing grows up. On the occasion of his mother's visit to him in later years, we recognise the same suggestion of a strained relationship :

1. April 2, 1890, Yale University Library.

2. MS. Diary, September 2, 1888.

3. Ibid, May 30, 1889.

4. Letters, April 19, 1873, p. 9.

5. Ibid. p. 11.

My mother is here on a visit from Wakefield, for a month. Strange companions, she and I with sadly little to say to each other. My tumultuous mood does not make my situation easier¹.

In the few references Gissing makes to his mother one is struck by an unusual reticence and lack of ease. When Mrs. Gaussen, looking over his album of photographs, remarks on his mother's "strikingly handsome face... extraordinary full of character", he amazes her by saying that he "was really quite unable to say whether the character was in reality there or not"; and he goes on to explain:

So utterly a stranger, on reflection, do I find our mother to me. A curious state of things; one which, I fancy, would have been pretty much the same under any circumstances.²

It is clear, then, that the rift between them was not due to one particular incident in Gissing's life, such as his expulsion from Owen's College and his first marriage. It had begun much earlier, when he was a boy and his attitude to her had not changed since. She was for him then,³ and remained to the end, the mother whom he associated with discipline and intellectual narrowness.⁴ The tight hold that she had on Gissing is apparent from the fact that not until after his second marriage did he have a separate banking account. Up to the age of thirty four he deposited whatever money he earned with his mother at Wakefield. Whenever he needed any he would send home asking for the sum of five or ten pounds at a time. On December 1, 1891 he receives £ 12.10. from his mother, the last of his money in her hands. A few days earlier he had deposited £ 105 in his own name in the National Provincial Bank of England. This is the first banking account he ever had.⁵ He even has to write to Algernon "asking him how to fill up cheques payable to self"⁶ The whole history of Gissing's

1. Letter to H.C. Wells, Unpublished MS.

2. October 26, 1834, to Algernon, N.Y. Public Library.

3. Gissing sends his son Walter to be "tamed". "Walter", writes Gissing, "always speaks of Wakefield discipline with much respect" letter to Margaret, August 7, 1896.

4. See below pp. 30 and 33.

5. MS. Diary, November 23, 1891.

6. MS. Diary, December 12, 1891.

relationship to his mother and his position at home may be read between the lines of these entries in his Diary. His mother's iron grip had not loosened its hold on him all these years. With her principles and severity she must have been a stern judge of whatever he did or said. This was largely responsible for his shyness, and lack of confidence, both of which clearly come out at an Omar Khayyam dinner when he is asked to give an account of his first meeting with Meredith as reader of Chapman and Hall. "Got through the speech somehow" he writes in his diary. The next entry, the day after, runs as follows :

Tormented to death with thinking of my speech
last night. This retrospective shyness a dreadful thing.
In vain tried to read a little.¹

This is not the self-consciousness that suddenly appears after a set-back such as that connected with his first marriage, although, no doubt, it would be intensified by it. The fact that Margaret complains of the same shyness² and lack of self-confidence indicates that it is more likely the outcome of their upbringing and early environment.

In those days Gissing allied himself to his father as Emily does in *A Life's Morning*, where there is a secret understanding between them unconsciously directed against the mother. Gissing's idolisation of his father after his death is itself an expression of resentment against his mother. He admires in him the very qualities that are absent from her :

The more I think of father . . the more I admire
his . . perfect lack of prejudice and openness to all truths³

What strikes him about his mother is the absence of intellectuality and he finds it strange that his father had exercised no influence over her⁴. One may discern a hidden note of contempt at her inferiority. It seldom happens, however, that a man, no matter how great a worshipper of the intellect he may be, is alienated from his mother for the absence of intellectual qualities. Therefore we are inclined to see his attitude to her as a result rather than a cause of his alienation.

1. MS. Diary. July 14 1895.

2. See letter to Madge, November 2, 1883, N.Y. Public Library.

3. Letter to Algernon, May 9, 1890, Yale Library.

4. Reminiscences of my father, Yale Library.

Further light is shed on his relationship to his mother in a letter from Gabrielle Fleury to Morley Roberts. Here there is a reference to a certain Mme. S.M. to whom Gissing had spoken in confidence.

and told her that he *hated his mother*, that she was a bad woman, that she had killed his father by the misery she gave him¹

Gabrielle is appalled at this and dismisses the woman as mad: for "Gissing could not have said these things, which were not true". She is, however, prepared to admit that :

he may have told her simply that he had not at all the same ideas that his mother and sisters, but not more².

That there was a difference, that Gissing resented the general atmosphere of his home and that he allied himself to his father there can be no doubt. The idealised relationship between father and son in *Workers in the Dawn* and father and daughter in *A Life's Morning* and *The Nether World*, compared with the more strained and reserved relationship between mother and son in *Demos*, suggests that there was a hidden tension between Gissing and his mother, such as might easily have led him in an unguarded moment of confidence to attribute his father's misery, if not his actual death, to his mother.

Although he had not openly tried to break away from his mother until his forties, Gissing unconsciously attempted to do so at a much earlier date. This took different forms, all somehow associated with his father who had himself been in silent rebellion against his wife³. The intellectual eagerness which Gissing had shown as a boy and which his father had encouraged, became more and more marked with time. His mother's lack of understanding of what he had come to appreciate, and, possibly her secret resentment against what she could not fully grasp, helped to form his interests into a weapon which he could brandish against her narrow outlook. Thus they developed into a worship of the intellect which, in Gissing's less worthy moments, became an intellectual snobbery. This worship of the "intelligence of the brain",

1. Gabrielle Fleury to Morley Roberts, April 19, 1910, N.Y. Public Library.

2. Ibid

3. Reminiscences of my father, Yale Library

which takes an aggressive shape surprisingly out of keeping with his shyness and retirement, gave him a feeling of superiority over others, particularly over his family. It was a means of breaking away from his mother and asserting his personality.

Gissing refers to his lack of decision as "a hateful fault in his character"¹ and yet when we go over the circumstances of his three marriages we note a remarkable doggedness in the manner they were carried out. They meant much more to him than they would to an ordinary person. The affair at Owen's College and his second marriage which have puzzled biographers have been explained in terms of his sensuality². This, however, is hardly a quality one would associate with Gissing. Judging from his novels, one would rather be inclined to think that he showed an unusual shrinking from anything that may be described as sensual. He himself writes :

The majority of men have little time to think of matters sensual. It is only a few strong brained men who are at once busy and preys to passion or even to persistent desires³.

Gissing was very young when he first knew Nell — he was only eighteen. His idealism and lack of experience were partly responsible for his consequent behaviour at College; but there was also a hidden urge to break away from the family, to assert his own individuality which so far had been suppressed beneath a weight of narrow provincialism and lower middle class respectability. Thus he tried to tear himself away, doing violence to himself, it is true, but also shocking his people as he had unconsciously meant to do. The family then intervened and got him shipped off to America, with the help of friends. Although often accused of running away from trouble he came back to England to face it. His mother was largely responsible for sending him away and his return may be explained as an act of defiance : he was not going to have others determine his life for him. Gissing came back and did the very thing his family had wished to prevent; he resumed his relationship with Nell although he did not actually marry

1. MS Diary, February 10, 1889.

2. See *Private Life of Henry Maitland*.

3. Letter to Morley Roberts, November 3, 1895, N.Y. Public Library.

her until October 1879¹ There is no doubt that he had a deep affection for her, for in all his letters to Algernon and Will, written at that time, she is spoken of with gentleness. It cannot be denied that he married her against his better judgment. Before the marriage he had all but finished writing *Workers in the Dawn*. In this novel, which he refers to as "a singular piece of detailed prophecy", he foresaw what would happen to Nell in the pathetic Carrie. Yet Gissing, a free thinker with no orthodox views on marriage, went through with it in a spirit of defiance.

Time proved Gissing wrong and his mother right, a fact which seemed to increase his resentment. This is given expression in the husband-and-wife relationship in *A Life's Morning* and the son-and-mother relationship in *Demos*. In the later novel, *Mutimer*, like Gissing, is represented as a rebel who comes in conflict with his mother. This resentment also appears in Gissing's more direct references to his mother² and her narrow outlook. The following is a passage from a letter to his sister comparing the attitude of his sister-in-law with that of his mother :

Never do I hear a word in Worcestershire about household concerns; never is a meal discussed; never is the servant referred to in our conversation. Everything of that nature comes to pass merely; it is not wearisomely laboured over... Now is it worth sacrificing this human progress and peace for the sake of making sure that there is nothing in the kitchen that might not be better?.... No, but then, of course, the inhabitants of a house must unite in recognizing that the mind is of more account than the body. Mother would grant you that hypothetically, but we know sadly enough that her paradise is in precisely the opposite direction. It is a sad, sad thing that anyone should be rendered incapable of spiritual activity by ceaseless regard for kitchen-ware and the back-door steps.³

1. See George Gissing, *Grave Comedian*, Mabel Donnelly p. 35.

2. See above p. 30.

3. September 13, 1883, *Bulletin of the Boston Public Library* December 1947, p. 376.

In quoting this passage Dr. Mabel Donnelly points out that it comes after Nell's death, and indicates that Gissing, having rid himself of his shame, had also rid himself of his mother the reminder of his shame. She also claims that his changed attitude towards his mother permitted him more self-confidence in his relations with women. It is impossible to accept this explanation as he chose for his second wife the very type of woman to whom he could feel superior. Furthermore, the note of resentment in the above quotation and the inability to view his mother more tolerantly show that he had not completely broken away from her. She is still the mother he had known as a boy, the mother who had insisted on order and discipline in the home.

It was not yet possible for Gissing to break away from Wakefield. In fact, after the death of Nell, the hold that the family had on him seems to have increased. As far as numbers are concerned, the odds were against him; now he had to contend not only with his mother but with two grown up sisters as well, all of whom were closely allied in their acceptance of middle class values.

After Nell's death, Gissing, at different times made the acquaintance of three women. In each case this might have developed into a more serious attachment had he been slightly more confident. Finally at Wakefield he met Connie Ash, a friend of Margaret's. In three days he forms a strong attachment, admits having fallen in love and even writes to his sister Nelly about her,¹ a fact which indicates that this time he meant to act. But Nelly's support and approval were still essential to him. On August 16, he receives a letter from his sister, presumably in answer to his own. After this there is no further mention of Connie Ash; on August 20, he leaves Wakefield and is back in London the next day "feeling very shaky and hopeless"². Here he spends his time wandering about the streets in a state of utter despair³. His loneliness all but drives him mad and he feels that he will not produce any more good work unless he gets married.⁴ On September 28, the first reference is made to Edith Underwood who was to become his wife on February 25, 1891. Had Nelly anything to do with this unusual behaviour? Had she brought up the old scandal, or had she drawn his attention to the fact that no

1. MS. Diary, August 11. 1890.

2. *Ibid.*

3. *Ibid.* August 29, 1890.

4. *Ibid.* September 16 1890.

middle class woman would marry a poverty stricken author? Or had either Connie herself or her family rejected his suit? It is difficult not to conclude with so autobiographical a writer as Gissing that what happened in Wakefield before he so unexpectedly returned to London, was closely connected with the central theme of *New Grub Street*—that of the writer of integrity who, in a world of commercialised art, is unable to earn a decent living and keep, in reasonable comfort a wife of his own class. In this novel Gissing gives us a moving study of the outcome of such a marriage as he had learnt to see it. He identifies himself with Reardon but tries to avoid his mistake, and therefore, seeks an uneducated wife, with no social pretensions. Such a woman will, he thinks, provide him with the physical comforts of a home, thus enabling him to prove his worth at least as an author and once more to establish his superiority over Wakefield.

Gissing went through with his second marriage with his eyes open; the idealisation of his youth had disappeared. Not once in his diaries or letters is there any mention of love for Edith. This is a loveless marriage. The affection he had had for Nell and the love he had expressed for Connie Ash have turned to a cold calculation with regard to marriage:

Unfortunately my circumstances forbid me — and always will — to think of any educated person. I dare not face the possibilities of a life requiring an income of more than a couple of a hundred a year. On the other hand, I shall not make a disreputable choice. It will merely be a matter of continuing to live with as little social intercourse as at present. It is not my destiny to become a member of society, that is abundantly clear¹.

Gissing had already made his choice and knew its consequences; he even went out of his way to make it clear to others. He wrote to Mrs. Harrison saying that from then onwards he could not mix with educated people.² Earlier in December, 1890, after he had made up

1. To Algernon, October, 1890, Yale Library.

2. MS. Diary, April 21, 1891.

his mind about marrying Edith, he received an invitation to dinner from Edith Sichel¹ and in order to resist the temptation of accepting it he went so far as to sell his dress suit; he felt that he would never again sit at a civilised table.² The temptation of turning to society is still strong, but as his recent experience at Wakefield had served to intensify his feeling of inferiority he shuns it, deliberately choosing a wife who will keep him away from society.

Gissing's description of her is strangely reminiscent of his mother :

Edith, as you know [he writes to Algernon], is uneducated but I am more than satisfied with her domestic management.³

The marriage as a whole, in its early stages reminds one of his father's marriage. There is the same intellectual gap between him and his wife as there had been between his parents. The similarity must, at some point, have occurred to Gissing, bringing out the old resentment he felt against the narrow outlook of his mother. In yet another attempt at breaking away from her, he indirectly attacks her through his wife with whom he has unconsciously come to associate his mother. Gissing now identifies himself with his father employing the intellect, the very weapon he had taught him to use, to establish his superiority. Thus, instead of trying to make a success of his marriage, he unconsciously works for its failure.

This explains the shocking change in Edith's character some months after the marriage and the domestic misery that follows. Writing to Algernon, Gissing says that she possesses "the virtue of extreme quietness and docility"⁴. He refers to her in the same favourable manner in a letter to Ellen :

I quite believe that in a year's time there will be no great fault to find with her demeanour.⁵

1. She is one of the women about whom Gissing thought a great deal after Nell's death.

2. MS. Diary, December 5, 1890.

3. November 6, 1891, Yale Library.

4. January 11, 1891, Yale Library.

5. January 24, 1891, Yale Library.

It is difficult for us to believe that the novelist who has given us so many penetrating psychological studies of women should have been utterly mistaken about Edith's character when he first married her. We are, therefore, inclined to accept this description of her as a fair estimate of her character at the time. The change that follows is as much Gissing's fault as it is her own.

There are indications in the Diaries that, as the day of the marriage approached, Edith became more hesitant and would have withdrawn her consent had he been less determined. Gissing, probably with an eye on the family, had made up his mind and would tolerate no dallying. He had fixed 10th February for the marriage¹ but on 3rd February he receives a letter from Edith asking him to put it off because of her sister's illness.² This does not come as a complete surprise; but he writes back to say that he will put it off only for a week, till 17th. February.³ On 9th February, Edith is still holding back; Gissing, however, is adamant and he writes to say that if the marriage does not take place within a fortnight he will put it off altogether.⁴ There is something feverish in all this. Why this urgency where there was no love? Gissing would have felt it as a slight had even the daughter of "a working sculptor" refused him. He had already written about her to Ellen who sent him a "dolorous" answer lamenting his decision.⁵ The very feeling that they were all watching his next step "shaking their heads and viewing [him] rather gloomily"⁶ goaded him on. This marriage was another attempt at asserting himself by doing the very thing to which his family objected :

It gets more and more difficult for me to believe that people regard me indulgently.⁷

And, after all, was not the Wakefield mentality partly responsible for the marriage? And had he not chosen his wife for the very qualities which his family appreciated?

1. MS. Diary, January 15, 1891.

2. Ibid.

3. Ibid, February 3, 1891.

4. Ibid. February 9, 1891. See also February 13, 1891.

5. MS. Diary, October 6, 1890, October 7, 1890.

6. To Ellen. February 1, 1891, Yale Library.

7. Ibid.

In the early months Edith lived up to Gissing's expectations. More than eight months after the marriage he writes to his brother :

She has many good qualities, and most distinctly improves. I feel sure katie [his sister-in-law] would not find it impossible to see a little of her now and then.

My health at present is very good. I can work tremendously and have my head full of projects.¹

and again :

Am writing with extraordinary ease just now. Scarcely remember a like period.²

Gissing, however, still refers to her lack of education in a painfully self-conscious and apologetic manner. *Born in Exile*, the novel that he wrote during this period with apparently more ease than any other — a fact for which we have to thank Edith — is concerned with Godwin Peak, a man frustrated through his inability to marry his social and intellectual equal. Gissing could never forget the disparity between him and his wife, and we are inclined to believe that he himself made her feel it as it was uppermost in his mind. In a letter to Ellen, written only three weeks after his marriage, he says :

Edith is reading 'A Village Hampden'. She is able to understand it fairly well. My own books will of course be for ever out of the question for her.³

Commenting on one of the letters she had written to him before their marriage, he says that it "really surprised" him, as it was "so well written and expressed".⁴ The very fact that it had "surprised" him indicates that he was contemptuous of her intelligence and never expected much of her. Edith must have found this attitude exasperating. With time it led to an uncomfortable situation, for no woman wishes to be reminded of her inferiority, least of all by her husband. If this happens she is bound to seek revenge somehow. Thus, after the birth of her first child, the gentle docile woman who had satisfied Gissing

1. November 6, 1891, Yale Library.

2. MS. Diary, October 20, 1891.

3. March 7, 1891, Yale Library.

4. To Ellen, January 24, 1891, Yale Library.

with her domestic management, turns into a quarrelsome shrew who neglects her home and drives her husband out of the house in search of peace and quiet. From this point Gissing's diary is scattered with references to his wretched domestic life. Every day there is wrangling and uproar in the kitchen.¹ When things become so bad he rents a room at Eaton Place where he can work in peace.² The year 1892 is "on the whole profitless. Marked by domestic misery and discomfort".³ Edith was making it impossible for him to carry on his work. She was preventing, in the most effective manner, the exercise of the intellect which she had felt was directed against her. Now Gissing openly laments her intellectual inferiority and the fact that he is condemned to associate with unintelligent inferiors who talk about nothing but the mean every day business of the household.⁴

It is the old tragedy of his parents reenacted. He experiences the same loneliness which he imagines his father had felt :

Never a word to me, from anyone, of understanding
sympathy — or of encouragement.⁵

The situation gets worse as the child grows up and begins to understand the discord at home using it for his own purposes.⁶ The absurd quarrels between husband and wife over a lost tin-opener and a shaving-brush⁷ indicate that their nerves were so taut that the slightest occurrence provoked anger. Once again Gissing had to admit that he had failed and to endure the humiliation of sending his son to his family in order to have him "tamed".⁸ Yet even in his failure he had scored a point against his mother : a marriage, such as his mother's and his own, based on intellectual disparity, could never lead to happiness. The only way out was a separation from his wife.

1. MS. Diary, October 4, 1892.

2. Ibid, December 15, 1892.

3. MS. Diary, December 31, 1892.

4. MS. Diary, January 24, 1893. Cf. reference to his mother p. 33 above.

5. Ibid.

6. Ibid, August 9, 1896.

7. See MS. Diary, August 24 and 25, 1897.

8. Ibid. April 10, 1896.

Gissing leaves the country, as he had done after the death of his first wife, in search of the freedom he had sought but failed to find in England. There is something significant in his visits to Greece and Italy, for each time they come at a critical point in his life. His two marriages had, in different ways, been a bid for freedom away from the family and Wakefield; both attempts had failed and, in binding him to an even narrower world than the one from which he had wished to escape, had caused him considerable suffering. After his release with the death of Nell and then with the decision to separate from Edith, Gissing takes an intellectual and spiritual holiday. These flights to Greece and Italy are symbolical actions denoting his actual breaking of the chains; they give his newborn freedom a physical reality and their healing power helps him to regain confidence.

Less than three months after his return from abroad Gabrielle Fleury is mentioned in his Diary:

Letter from a French woman wanting to translate
*New Grub Street*¹

A correspondence between them ensues and she visits him several times at Dorking. It is not difficult to realise what comfort this "sweet and intelligent creature"² must have brought Gissing. They read poetry together³; she talked to him of his novels; she told him about her friendship with Mme. de Musset, Alfred's sister, and brought him a photograph of Daudet.⁴ So far Gissing had had to separate his domestic from his intellectual life. Now, in one person, he discovered all the qualities he had dreamt of in a woman. She was of a good family, moved in literary circles, had intellectual interests and was "sweet and dignified"; but above all, she loved Gissing. This is the one thing that he had missed most in his life, the love of a woman who was in every respect his equal. Only such a woman could help him to regain his self confidence and enable him to overcome his obsessive concern with the narrowness of Wakefield. Within three months of his first meeting with Gabrielle Fleury they decide to live together.⁵

1. June 23, 1893.

2. MS. Diary, July 26, 1893.

3. Ibid October 9, 10, 12 1893.

4. Ibid, July 26, 1893.

5. MS. Diary, October 15, 1893.

In spite of the difficulty of the situation — his second wife was still alive — Gissing, who always accused himself of indecision, never for a minute wavered. There is no mention in his Diary of his having written to Ellen¹ or anyone of his family concerning his decision, as he had done on his previous marriage. He no longer needs the sanction of the family. Morley Roberts is one of the few people he informed of his private plans, and that is mainly because Gissing had asked him to seek legal advice on the possibility of a divorce from Edith. Gabrielle, however, had quite made up her mind; she was not going to risk waiting for a divorce which might never come off. The following passage from a letter to Gissing reveals the strength of the bond between them :

Plus je réfléchis et plus la lumière se fait dans mon esprit, plus je suis assurée que mon impression est juste. *Il vaut mieux renoncer à se lancer dans cette voie d'une issue si lointaine* même en admettant que cette issue soit favorable. En un mot je crois fermement qu'il ne faut rien faire, et laisser les choses en l'état où elles étaient, et tout comme si cet incident singulier ne s'était pas produit — Le hasard, le risque est trop grand, le résultat douteux et, en tout cas, trop lointain. Nous nous marions parce que nous nous aimons, parce que nous sommes sûrs l'un de l'autre, non par convenance mondaine.²

Commenting on her character, Gissing says :

This woman has moral genius. I never imagined her like to exist... She is a woman to go through fire for... an incredible woman to one who has spent his life with such creatures.³

After Gissing's death, she writes heart-breaking letters to Morley Roberts expressing her loneliness and desire for death and mentioning three attempts at suicide. As late as 1910 she writes :

1. See above p. 37.

2. A quotation from Gabrielle's letter to Gissing which he sends to Morley Roberts, February, 1889, N.Y. Public Library.

3. Ibid.

I do not feel life has still something for me. On the contrary I feel my life is closed entirely and my one desire is to escape out of it, I will most certainly end by killing myself. ¹

Such affection must have overwhelmed Gissing. The fact that he meant so much to a woman like Gabrielle gave him the confidence he badly needed. He began to go about much more; the shrinking from people particularly noticeable after his second marriage, tended to disappear; the resentment he had felt against the world diminished. The serenity of *The Private Papers of Henry Ryecroft* is remarkable; it is a quality one never associates with the younger Gissing who wrote to relieve the tension produced by the conflict between his intellectual and domestic life. Now the two are perfectly fused and the tension relaxes; there is nothing to rebel against, neither wife nor family. He still laments, as always, the waste of time, but the old incentive to work has weakened. The novels he writes during this last phase of his life are of little literary value. The entries in his diary are fewer, and he even stops journalising for more than a year. There are no longer any secret thoughts that he wishes to disclose, no rebellious mood to which he urgently wishes to give expression. Having asserted his personality through the love of an equal, he comes to terms with life, and Gissing the private individual supersedes Gissing the novelist.

1. To Morely Roberts, April 19, 1910. N.Y. Public Library.

BIBLIOGRAPHY

Yale University :

Reminiscences of My Father 1884.

Letters to the Gissing Family.

New York Public Library, Henry W. and Albert A. Berg Collection:

Diary 1887 — 1903, vols I, II and III.

Letters to the Gissing Family and Friends: Berg, Howe
and Pforzheimer groups.

Thanks for Permission to quote are due to Mr. Alfred. C. Gissing, to the
Henry W. and Albert Berg Collection of the New York Public Library and to
the Yale University Library.

I have been unable to quote from Gissing's letters to Eduard Dertx as they
are in the process of being edited for publication by Mr. Arthur G. Young.

INDIVIDUALISM IN ITS RELATION TO SOCIAL STRUCTURE

By

Dr. ALY A. ISSA

INTRODUCTION

Small homogeneous societies which are labelled primitive do not show diversification of any kind. The institutions within these societies were formulated by the whole group, that is collectively. When science and technology invade such societies, diversification of phenomena begins to take place, and individuality gradually replaces collectivity. The purpose of this paper is to trace the individual character both in the formulation of scientific theories and in the will to accept a new scientific appliance.

Western civilization, which is basically scientific, is, with its impact on primitive and less advanced societies, responsible for the social change occurring therein. It does seem appropriate to start with a determination of its place of origin together with a definition of its nature,

I

Western, white, or European civilization, and like terms are ones by which the Wilsons and other scholars of African sociology explain the facts of social change in Africa.¹ Neither geographical nor social attributes such as are often appealed to, make any real sense or help in understanding what civilization really means. Benjamin Kidd hits the nail on the head when he states that "although the systems of civilization to which we belong has a clearly defined place amongst the peoples of the earth, it has really no definite racial or national boundaries".² He continues: "It is not Teutonic or Celtic or Latin civilization. Nor is it German or French or Italian or AngloSaxon".³

1. Godfrey and Monica Wilson, *The Analysis of Social Change*, Cambridge, At the University Press, 1945.

2. Benjamin Kidd, *Social Evolution*, London, Macmillan & Co. 1895, p. 131.

3. Loc. cit.

But after finding that to describe it as European civilization is still incomplete if not inaccurate, he presently goes on to say that he accepts the expression in general use, viz. "Western Civilization"¹, and thus leaves the problem partly unsolved.

The general tendency among writers is to add a temporal epithet to the geographical description of western civilization. They maintain that it began to display its characteristics in Europe throughout the eighteenth century, the age which has been regarded as the "complete antithesis to the Middle Ages".² That was the epoch when materialism triumphed "chiefly in the sciences of rational dynamics, physics and chemistry; and philosophy acted for the locomotion of ideas."³ In the nineteenth century western civilization began to take definite shape. What is peculiar and new to the century, differentiating it from all its predecessors, is its technology".⁴

To regard western civilization as completely autonomous and to distinguish its features sharply from previous centuries seems to be based on a somewhat prevalent idea, of which a certain Leon Robin may be taken as a representative, that the history of science is not science.⁵ To him, the history of science is an effort forgotten once the aim is reached.⁶ As it stands, Robin's view with regard to the history of science does not seem to be sound. It has been admirably refuted by such thinkers as Henri Berr and particularly by Professor Abel Rey, who is a great authority on the subject. The latter, dealing with the history of science, conceived the subject as a study of the growth of human mind.⁷ One wonders whether western civilization can be properly understood without our going back to the Chaldeans among whom the passage from practical to disinterested curiosity was effected⁸; or to the Egyptians, in spite of the fact that their "science" was simply technique.⁹ The Chinese astronomy, which was an ordered image

1. Loc. cit.

2. Cf. A.N. Whitehead, *Science and the Modern World*, Cambridge, At the University Press, 1946. p. 71.

3. Op. cit., p., 73.

4. Op. cit., p. 120.

5. Cf. Henri Berr, in Abel Rey, *La Science Orientale avant les Grecs*, Paris, La Renaissance du Livre, 1930. Avant-propos, p. iv.

6. Ibid.

7. Henri Berr, op., p. viii.

8. Cf. Abel Rey, op. cit., pp. 146, 147, 196, 199.

9. H. Berr, in op. cit., Avant-propos, p. ix.

or logical representation of the universe, can be regarded as a sort of mythological physics, while India, with her stupendous metaphysics and her mysticism expressed science through the institutions of a primitive geometry and an atomism still completely qualificative.¹ These stages of human progress appear to no small extent responsible for the emergence of western civilization and even, one might venture to say, for its final form. It was out of technique that craving for knowledge proceeded, and out of religion, myth, and magic that the need to understand stepped into the wider sphere of science.² The foregoing point of view has been well summarized by Henri Berr who, basing his judgment on Abel Ray's arguments, states :

"... dans cette diversité des civilisations, il y a bien une civilisation intellectuelle qui se dessine ; il y a une orientation générale ; il y a une route royale de la connaissance, avec des grands tournants. Les réalisations contingentes, spécifiques, ne masquent pas à Ray un mouvement dirigé : partout ce mouvement fraye à sa voie à une raison qui paraît, comme la définira Aristote, porter la marque de l'humanité ; en s'accroissant et s'organisant, il accentuera du même coup la civilisation hellénique et occidentale."³

Other writers on the history of science such as Mieli hold the same opinion as Ray. Mieli's view is that science is not simply a mechanical photography of the external world.⁴ It cannot be explained except by ancestral attitudes of the mind in its relation to the phenomena of nature.⁵

If it is true that the basic element in western civilization is science and that this evolves from the simplest scientific discovery and the factory system by means of scientific appliances to the heaviest industrial plants, we must then find out what similarity or dissimilarity science will show in regard to the original social usages, seeing that it has become a significant factor in social life. We know that society, without intervention by outside influences, is able to form its

1. Op. cit., pp. ix, 358, 395, 400, 403, 425.

2. Op. cit., pp. x, 6, 12, 14, 15, 162, 536 — 9.

3. Cf. op. cit., pp. ix, 400, 401, 403, 406.

4. Cf. Aldo Mieli, *La Science Arabe et son Rôle dans l'Évolution Scientifique Mondiale*, p. 8.

5. Loc. cit.

own usages of kinship, law, and religion and back them all up with the necessary sanctions to ensure its existence. These spontaneous social institutions have rather a "conservative" character; and they came into existence simultaneously with society itself. Anthropologists themselves do not know how these came to be formulated and accepted. *Western science, on the contrary, is not a strictly social product.* It did not start as an integral part of human life, and no doubt society is able to go on without it as it did in the past. Besides we know how scientific theories (we are here referring to the genuine or major scientific theories which have changed the phase of social life in modern times) have come to be formulated, and how scientific appliances have come to be accepted.

II

We would now put forward the assumptions on the basis of which we suggest to understand the processes of African social change:

First, that a technical appliance which becomes a social necessity was invented and is being accepted individually; and in this respect it differs from other social habits and institutions in that these were originally formulated and accepted collectively.

Second, that the desire of all human beings to raise their material standards of life is universal, and that the mentality of all men, irrespective of the races to which they belong, is moulded in such a way as to make them believe in the possibility of realizing this desire through reliance on science and scientific appliances. This will apparently reduce the study of social change to that of a sort of social progress. Although the evaluation of facts is no concern of the social scientist engaged in the pure side of his discipline, still he has to study the facts of social progress as they are envisaged by the people among whom they occur.

Third, that science, developing as it is through individual minds in the formulation of its theories, and through individual wills in the way how its appliances are accepted, ends in becoming a significant factor in social life, ready to compete with genuine social institutions and will thus have a recognized place and function in the social scheme.

Fourth, that the natives of the primitive and less advanced societies, on being faced with the miracles of science and the usefulness of technology, develop a definite feeling of inferiority towards the

white man. This felling can be seen in the desire of the natives to adopt the moral, intellectual and in some cases the spiritual features of western civilization. This, of course, does not prevent the persistent tendency of the senior members from amongst the natives, each of them by temperament *laudator temporis acti*, to keep unaltered at least some feature of their old culture in token of their personality.

Fifth, that the barriers separating different cultures are being loosened by the impact of science, and that there are signs that the world is moving towards a unified culture.

III

In what follows the individualistic element lying behind the appearance and diffusion of western civilization will be sketched as it manifests itself in Europe where this civilization crystallized. It is with that element, we are inclined to imagine, that the change taking place in less advanced societies can be interpreted.

A. N. Whitehead writes that the greatest invention of the nineteenth century was the invention of the method of invention.¹ By this statement he refers to the appearance of modern technology, which was first in practice realized in England, by the energy of the prosperous middle class.² He further points out to the part played by the Germans in abolishing haphazard methods of scholarships.³ In the Germans "technological schools and universities progress did not have to wait for the occasional genius, or occasional lucky thought."⁴ This should of course apply to modern technical invention which "is fundamentally a set of directions for behaviours addressed to certain persons who wish to obtain a certain end. It is the patent specification of which the essence lies in these directions for the solution of a practical problem"⁵.

1. See his *Science and the Modern World*, p. 120.

2. *Op. cit.*, p. 121

3. *Loc. cit.*

4. *Loc. cit.*

5. Cf. H. Stafford Hatfield, *The Inventor and his World*. (Penguin Books), Middlesex, England, 1949, P. 18.

What is of particular interest to the sociologist is the workings of the mind of the comparatively few geniuses who, by their major inventions, have completely changed spontaneous social life. These are the individual men and women who remain out of sight and in the majority of cases unrecognized behind industrial institutions and technical achievements. A concrete example will clarify this point :

"If we take, for example, a great electric power station, we may find that it has been designed by a skilled engineer. This skilled engineer, however, will, generally speaking, and if he is a wise man, have only followed in every detail the best current practice known to him. On the other hand, the whole station represents a collection of inventions most of which can be traced to original minds such as Watt, Parsons, Farranti, and so on, over a long but not unlimited list."¹

It is a mere commonplace in the methodology of sciences that a theory usually flashes unexpectedly into the mind of the scientist in the form of a sudden illumination or intuition. Poincaré attributes the discovery of such truths to what he calls the *unconscious*, or *subliminal ego*. By his account,

"... the subliminal ego is in no way inferior to the conscious ego ; it is not purely automatic, it is capable of discernment ; it has tact and lightness of touch ; it can select, and it can divine. More than that, it can divine better than the conscious ego, since it succeeds where the latter fails."²

A real discovery is defined as the creative function of the mind, and the work of this subliminal ego is done by a particular kind of imagination other than that which is simply reproductive. It is true that sometimes both the reproductive and the recreative imaginations are based on reminiscences. But while the former recalls long-memorized elements more or less as they were, the latter constructs from these elements a new form of synthesis, and original combinations. This sketches roughly the individual manner of the initial step which western civilization has taken towards the great social change caused by science.

1. Ibid.

2. H. Poincaré, *Science and Method*, translated from the French by F. Mitland, London, Thomas Nelson and Sons, 1914, p. 5. We are referring to Poincaré's English version as his original book is not available at the time of writing.

IV

An artist may rightly claim that the original combinations occurring in his mind are of the same nature as those occurring in the mind of a scientist. The only difference and a major one, however, would be that the scientist's combinations are concerned with revealing the secrets of the external and material nature whose control has been the foremost objective of man in all ages.¹ In art, and let us consider its latest creative stage, the works of Constable, Turner, Picasso, and others, are not counterparts of material existence. The authors "have seen and are singularly devoid of ideologies of any kind. They live in their vision... and follow the inevitable course dictated by their sensibility. Moreover, 'the good artist has very rarely a practical interest in anything but his art'"² But although the scientist derives both interest and pleasure from his creations, still these find a different response from the public, which find through them new means towards a further control over nature. Besides, science develops side by side with technical development; there is always close interaction between them. In Bernal's own words :³

"Neither (science and technics) would be possible without the other, for without the advance of science techniques would fossilize into traditional crafts, and without the stimulus of techniques science would return again to pure pedantry."

This association which in the beginning went on without being noticed⁴ is becoming more a conscious process, and "the independent scientist, so important in earlier ages and even in the nineteenth century, has practically disappeared." In Great Britain as well as in other countries scientific research is being carried out in the universities, in Government departments and in industry. In Germany, "the research laboratories of large industrial combines such as the I. G. Farbenindustrie became more important centres of research than even Government or university institutions."⁵

1. Cf. V. Gordon Childe, *History* London Corgbott Press 1947, p. 3.

2. Herbert Read, *Art Now*, p. 14.

3. *Op. cit.*, p. 13.

4. p. 126.

5. *Loc. cit.*

The student of sociology must be interested, among other things, in research conducted by universities and industrial institutions that yield discoveries available for social exploitation. In Bernal's view, the application of science "is so much taken for granted that the way in which it works has never been seriously looked into".¹

An examination of historical civilizations will not prove unnecessary if we wish to lay bare the principles on which the application of scientific discoveries rests. To begin with, archaeological findings maintain that human progress is represented as a series of ages distinguished by technological labels, starting from the Palaeolithic Age (the most ancient) and ending with the Machine Age.² But in discussing the supposed positive correlation between an improvement in technique and a progress in social growth, Toynbee points out that there are :

"Cases of technique improving while civilizations remain static or go into decline, as well as examples of the converse situation in which technique remain static while civilizations are in movement—either forward or backward as the case may be."³

This discussion would have been more profitable had its proposer directed his attention towards the correlation between technique and societies, rather than between technique and civilizations. However for the purpose of this paper we may test another point of view, viz. the correlation between an improvement in technique and the individual comfort and happiness of those who use the technique. We shall find not only that that correlation is positive but also that this approach may enable us to put our finger on some sort of clue to the principle behind the application of scientific discoveries.

It seems logical that, if the idea leading to an invention appears individually, the invention itself should follow the same course. We know from reliable historical documents both written and engraved, that the plough was used in Mesopotamia and Egypt in 3000 B. C.⁴ It may have existed before that date in either region; the lack of earlier documents, or a simple neglect to record it at an earlier period

1. Op. cit., p. 53.

2. Cf. Arnold J. Toynbee, *A Study of History*, abridgement of volumes I-VI, by D.C. Somervell, London, O.U.P., 1947, p. 192.

3. Op. cit., p. 193.

4. V. Gordon Childe, *What Happened in History*, London, Penguin Books, 1964, p. 72.

leaves this matter undecided for the present. The significant point, as it seems to us, would be that the spread of the plough throughout Egypt, as well as its appearance afterwards in India (not much later than 3000 B.C.), in China (soon after 1400 B.C.), in Sweden (not very much later than 1400 B.C.), and in other places by 1000 B.C.¹, presumably followed the same individualistic principle, having the two aspects of invention and borrowing. The constant desire of the individual for an improved standard of living must lie behind such acts. The trends in all processes of production in modern industry can be summed up as *the greatest possible production with the least possible effort*. This is being especially realized by automatic devices, increased speed of operation, simplification of processes and diminution of the bulk and weight of machinery.² This rule should not be confined to modern times only. It can be applied to agriculture in ancient times. In the case of the plough this double purpose was realized as soon as the implement came into use.

It is commonly the case that, when documents refer to the author of a political philosophy, an economic doctrine, or a technological or medical invention, the name of the new entity is formed from the author's name with a termination such as *-ism* or *-ine*. In some instances the entity shows the inventor's name which may either stand alone, or have, for example, the word system attached to it. In ancient and prehistoric times where no such evidence regarding the author is available, the material invention is usually attributed to the whole society. But society as such can and should spontaneously make its own traditions and usages as it cannot, as society, go on without them. *Society by itself is naturally concerned with mere existence, not with a better existence. Innovation tending to improve life and raise the material standard of living must be individually made.* It is only natural that every primitive farmer should grasp the idea that the heavier the hoe is the deeper it penetrates into soil or dig up the root traces of crops already, harvested in preparation for new sowings.³

It has been rightly and acutely stated by Professor Childe that "the most decisive innovation was that by harnessing the ox man began to control and use a motive power other than that furnished by his own

1. Ibid.

2. Cf. J.D. Bernal, *op. cit.*, p. 360.

3. Cf. E. B. Tylor, *Anthropology: An Introduction to the Study of Man and Civilization*, London, Macmillan & Co., 1904, p. 217.

muscular energy: The ox was the first step to the steam engine and petrol motor".¹ Farmers who live close together immediately adopt each other's methods if they find them successful. In a word greater production and less effort are always the objective of both the primitive farmer and the civilized man. The explanation of this can only be the innate desire of the individual to improve his material existence.

Mechanization together with industrialization and the effect of the modern use of science offer large-scale opportunities for the individual. But it has to be borne in mind that if they develop rapidly where they are introduced, their development will to a great extent be due to the favourable appeal they make to that innate and foremost need of the individual to improve his material standard of living.

The victory of modern civilization, with industry as its first weapon, has found a monetary system already in existence. Wages are determined by money the first great achievement of which is "that it enables man as consumer to generalize his purchasing power, and to make his claims on society in the form which suits him best".² We should also at least consider the enjoyment of conveniences and the gaining of a "sense of security derived from the possession of a pool of money".³ The actual improvement in the material standard of the individual through the use of scientific appliances is so obvious that it stands in no need of proof.

Recent inquiries show that machinery and industry create large populations.⁴ The increase is greater in length of life and amount of leisure.⁵ But the immediate effect in material standards is remarkable. This standard was raised fourfold in Great Britain during the nineteenth century.⁶ The increase seems to be gaining rapidly in accordance with the capacity of machinery and the number of further innovations in the domain of science. The following quotation referring to modern times may illustrate this point:

1. V. Gordon Childe, *ibid.*

2. D. H. Robertson, *Money* London, Nisbet & Co., 1946, p. 4.

3. *Op. cit.*, p. 36.

4. Sir Josiah Stamp, *op. cit.*, p. 21.

5. *Op. cit.*, p. 6.

6. *Ibid.*

"A factory worker in the United States is paid several times as much in real wages as his predecessor received a generation ago. While management may justly claim credit for this improvement, it was made possible only by utilizing technological achievement resting on scientific discoveries which made the labor of each worker more productive. For the wages he received for one hour of labor in the middle 1930's a factory worker in Italy could buy a certain amount of food, a similar worker in Great Britain could buy twice as much, but a worker in the United States could buy four times as much."¹

V

As science rapidly advances, the material standard of life will continue to rise, and all this will not occur without serious changes in the social systems. Centres of industry, mostly in the large cities and in newly built industrial towns, are attracting village dwellers by their better standards of life. With the approach of the nineteenth century the danger from the desertion of the land for industry began to be felt very acutely in Great Britain.² No wonder then if incentives in the form of prizes of all sorts were planned to protect agriculture against the new sweeping industrial change. Chief among such incentives was perhaps the establishment in 1494 of an Agricultural Society "for the purpose of exciting farming enterprises", and accordingly "premiums were offered for the best ploughman, the best sheep shearer, the servant who had stayed longest in the same place, the father of the largest family who never required parish help, and so forth".³

1. G. R. Harrison. *Atoms in Action*. London. George Allen and Unwin. revised 2nd ed., 1944, p. 7.

2. Cf. Rev. Rev. P.H., Ditchfield and William Page (Editors), *The Victoria History of Berkshire*, Vol. II, p. 229.

3. *Ibid.*, n. 438.

Select Bibliography

- Bernal, J. D., *The Social Function of Science*, 6th ed. London, Routledge, 1946.
- Childe, V. Gordon, *History*. London, Cobbett Press, 1947.
- Childe, V. Gordon, *What Happened in History*, (Penguin Books), Middlesex, England, 1942.
- Hatfield, H. Stafford, *The Inventor and his World*, (Penguin Book), Middlesex, England, 1948.
- Harrison, G. R., *Atoms in Action*, revised 2nd edition. London, George Allen and Unwin, 1944.
- Kidd, Benjamin, *Social Evolution*, London, Macmillan & Co., 1895.
- Poincaré H., *Science and Method*, translated from the French by F. Maitland London, Thomas Nelson and Sons, 1914.
- Rey, Abel, *La Science Orientale avant les Grecs*, Paris, La Renaissance du Livre, 1930.
- Robertson, D. H., *Money*, London Nisbet & Co., 1946.
- Stamp, Sir Josiah, *The Science of Social Adjustment*. London, Macmillan, 1937.
- Toynbee, Arnold J., *A Study of History*. abridged edition by D. C. Somervell, London, O. U. P., 1947.
- Tylor, E. B., *Anthropology An Introduction to the Study of Man and Civilization*, London, Macmillan & Co., 1904.
- Whitehead, A. N., *Science and the Modern World*. Cambridge, at the University Press, 1946.
- Wilson, Godfrey & Monica, *The Analysis of Social Change*. Cambridge, at the University Press, 1945.

AN INTRODUCTION TO THE STUDY OF ANCIENT EGYPTIAN LAW

By

MUSTAFA EL-AMIR

(Ph., D., Camb.)

The student of Demotic Legal Texts meets with serious problems because a knowledge of the Ancient Egyptian Law is a *sine qua non* for a complete understanding of these texts.

But it is just this knowledge that, up till now, has been lacking. Though we possess some records of lawsuits and frequent reference to litigation in the texts of all periods, yet they have been generally neglected. Some fragments of contracts on papyri and Ostraca were also found but, bristling with so many difficulties, no attempt has been made to explain them. It is therefore fitting to introduce our study of Demotic Contracts with a short chronological account of the history of Law in the Pharaonic periods.

Our information is derived from Classical authors monuments and Papyri and, for the sake of clarity, is treated in two separate topics—Law-in-Statute¹ and Law-in-action.²

I. Law-in-Statute.

Written Laws and Administrative rescripts would naturally appear before written documents. In Ancient Rome there were written Laws at a time when writing was not employed in private transactions.

A. Classical authors.

There is no doubt that Egypt, from the earliest periods, possessed a highly developed Statute. The country was prosperous, ruled by native kings for thousands of years and these facts "could never have been true of any people which did not enjoy most excellent customs and laws and the institutions which promote culture of every kind" (Diodorus 1, 69).³

1. i. e. Written Law.

2. i. e. Documentation and judicial practice.

3. For this reason, Egypt was visited by Homer, Pythagoras of Samos and Solon, the law giver, to acquaint themselves with its Laws and Institutions.

It is not surprising to hear from Diodorus that the Law of Egypt, already from the beginning of its history, had assumed an advanced and highly civilised form; for the development from a primitive to a civilised society should be sought in its prehistoric periods.

We find in Diodorus (I. 94—95), the names of Six Law givers from Menes, who claimed to have received the Laws from Thot, to Darius, who unlike his predecessor, ruled in accord with the laws. The other four were Sasychis,¹ Sesoosis,² Bochoris and Amasis. The laws of Egypt spread among other peoples everywhere but after the conquest of Alexander many institutions were changed.³ The entire body of the laws was written in eight volumes.⁴

In a word, Diodorus wants us to believe what "appears in the written records of the priests of Egypt" and has passed his careful scrutiny (I, 69) that there existed a written code of eight volumes which was codified six times in the Pharaonic times and then changed in the Ptolemaic period.

B. *Monuments.*

It is surprising that the monuments which have recorded nearly every aspect of Egyptian civilisation, are silent with regard to the Code of Laws. There is only a vague reference in the Tomb of Rekhmyre, the Vizier of Thotmes III when represented sitting in judgment with the whole Corpus juris of Egypt displayed before him. It is contained in four tables with ten rolls (or skins) upon each.⁵ Reference is also made in the text to Rekhmyre who was learned in the Law... who carried the Law of the King in his hand and who was patient with the witnesses, etc...

But we have reference to administrative rescripts on monuments. Among these mention should be made of the celebrated decrees of the Old Kingdom discovered by Weill⁶ at Coptos and studied with so much

1. Identified with Shepseskaf by H.R. Hall: *Ancient History of the Near East* P. 127.

2. Identified with Sheshonk I (See Reich: *MIZ.*, 178).

3. Diodorus, I, 95.

4. Diodorus I. 75 and Clement (See Petrie-Social Life P. 77).

5. Newberry: *The Life of Rekhmara* 1900 PL.IV, Brasted: *Records* II, § 675 and § 712.

6. Weill — *Les décrets royaux de l'ancien empire égyptien*, Paris 1912.

authority by Moret and Sethe. Here, we have to deal with official documents spreading from the 5th to the 8th Dyn., emanating from the Royal Chancellory, whose terms have, as a consequence, an exact legal sense. They constitute a source of first class importance as much for the 'droit public' as for the 'droit privé'. The most important two, belonging to Pepi II, show the regime of the great temples and their domains. They also reveal the relation between the central power and the Provincial sacerdoce at the end of the Old Kingdom. In general they contain all the elements of the donation and installation contracts and the formalities required to give them an authentic character. The status of persons, land and land ownership become clear.

The Edict of Horemheb contains legislation by means of which he intended to prevent the oppressive abuses connected with the collection of Taxes from the common people, who were continually robbed and impoverished by the fiscal officers.¹

C. *Papyri.*

The Demotic Papyrus 215 of the Bibliotheque Nationale known as the "Demotische Chronik" speaks of the reform of the Egyptian Law by Darius. A Committee of the wise and learned Egyptians went to Susa with their collection of Laws which were adjusted or altered according to the whim of the King. That codification took 21 years and was written on a papyrus both in Aramaic and Demotic.²

In Pap. B. M. 10591 reference is made to the following laws.³

First, the Law of year 21 (of Epiphanes) "If a man marry a woman and he write for her an endowment, and he have a son by her, and he puther away and he marry another woman and he write for her an endowment and he have a son by her and the said man die, his property is wont to be given to the children of the first wife, which he assigned to her as an endowment at first".

1. Breasted. Records III § 45.

2. Reich, MIZ, I. 178.

3. Sir H. Thompson — A Family Archive from Siut, Oxford 1934.

4. This is a statement of the Law of Inheritance in the case of a man having two successive wives and leaving issue by each. See Sir H. Thompson Siut P. 13, Note 16.

Secondly, the Sixth Law: "He who withdraws himself, he is stopped until the judgement is registered"¹. There is also reference to the *Six Laws* in which Sir H. Thompson was inclined to see an error for the *Sixth Law*".²

Thirdly, there is reference to the *8th Tablet* "of the law of Egypt which is called the *House of Delay*" which would seem to bear on a power of holding up a pending action while a remedy is being sought through another channel.³

The Legal Code of Hermopolis.

Though, as we have seen, there is but a scanty reference to Egyptian law, yet the recent years of Excavation have been very fruitful in this field. For, it was in 1938—1939 that Dr. S. Gabra came across a very important roll of Demotic Papyrus during the Excavations of the Cairo University at Tuna-el-Gabal.⁴ It is believed that it comes from a temple archive from the reign of Philadelphus or earlier.

From the preliminary report ⁵ on this great find we gather that it contains a part of the "Common Law" dealing with the tenure of arable land, ownership of real property, problems of inheritance, endowment and the disputes arising therefrom. This extremely important document will certainly throw considerable light on Egyptian Law and its complete publication is eagerly awaited by Scholars of Demotic, jurists and historians.

It is then certain, on the strength of the above evidence that Egypt possessed a written Code from the earliest periods of its history. In the later periods Bocchoris, and after him Amasis, engaged themselves upon extensive legislation.⁶ Bocchoris regulated all that concerns the kings and the contract. Amasis regulated all that concerns the political economy of Egypt and thus completed the work of Bocchoris (see Revi-

1. *ibid.* P. 53 Note 8.

2. *ibid.* P. 23 note 103.

3. *ibid.* P. 53 note 6.

4. Sami Gabra: *Bul. Inst. d'Egypte* XXV, P. 242.

5. G. Martha: *Bul. Inst. d'Egypte* XXIII, P. 297 ff.

6. Their codification is dealt with by Revillout who suggested a connection with the Twelve Tables of the Roman Law See: *Les Origines Egyptiennes du Droit Civil Romain* Paris 1912.

llout. *Precis du Droit Egyptien* II, 931 — Paris 1899—1903). Then the Persian King Darius copied their cod for use in his country, a fact which proves that the Egyptians possessed a highly developed legal system long before the advent of the Greeks.

This code of laws has, unfortunately, been lost. For we can hardly assume that the Egyptians did not inscribe their code on a monument as did Hammurabi upon a pillar of black diorite or as did the Romans on Twelve bronze Tablets.

Therefore we have to look for written copies in Demotic Papyri from the Ptolemaic period. The discovery of the whole body of Law one day, will certainly excite the whole world.

II. Law-in-Action.

The Pharaonic periods, prior to the Ptolemies, have also yielded a great number of legal texts relating to Contracts and Law-Suits. But if the documents properly called Legal are rare and often incomplete, the funerary texts on the other hand are very numerous and comprise a considerable store of information and data which enable the historian to resuscitate the legal and social life of Ancient Egypt. A collection of these made it possible for an eminent Lawyer and Historian¹ to give us a complete picture of the Institutions and the "droit privé" of Ancient Egypt in the Old Kingdom.

One of the most ancient texts is the biography of Methen. From his life there emerges a very precise picture of the family law. It also refers to gifts, conveyances and wills from which we infer that legal transactions were concluded between private persons². A deed of sale of a small house at the beginning of the 4th Dyn. completes our knowledge of the conveyance of immovable property; the social position of priests, scribes and workmen who, in signing the deed as witnesses, appear as endowed with all their civil rights.³ Clauses of safeguard against eviction and hidden

1. Professor Jacques Pirenne: *Histoire des Institutions et du Droit Privé de l'Ancienne Egypte* 3 vols. Bruxelles 1932—1935.

2. Seïd: in the *Legacy of Egypt* edited by Glanville Oxford 1942.

3. Pirenne Vol. I, P. 1.

defects are found in this document as well as the indication of the price. Many scholars have also discussed several documents of sale and donation from which they were able to trace the descent of property in the early periods of Egyptian history.¹

The Old kingdom is also remarkable for the "Testamentary Enactments" frequent in the tombs of the 4th Dyn.². These show a great interest as a revelation of the legal organisation of this remote age.

The Middle Kingdom is remarkable for the "Funerary Contracts" which throw much light on the social conditions at that time.³ The importance of these contracts lies in the mortuary customs and beliefs which they reveal. Seidl compares them with the medieval "DONATIONES PRO ANIMA" by which pious individuals used to bind some monastery to read masses on festival days for the salvation of their souls⁴. In this, they are also similar to the Islamic "Wakf" still prevailing in modern Egypt. So many Muslims are constituting these "Wakfs" in favour of the institution, person or persons who will recite the Koran on certain occasions for the same purpose.

But the most valuable discovery of legal documents from the Middle Kingdom is that known as Petrie Papyri from Kahun; a group of Hieratic ppyri from the 12th Dyn. Representing household archives⁵. The legal documents of that find are of quite exceptional interest as scarcely anything of the kind ever been known earlier than the Demotic Papyri of the 26th Dyn. They belong to three classes:

- 1— The Wpwt; specification of the persons of the household.
- 2— The Imyt pr; conveyance or Will or cession⁶.
- 3— The Swnt; agreement for services and their payment.

1. See particularly.

Reyher: *Rev. Eg.* XIV, 87.

Murray: *P.S.B.A.*, XVII, 240.

Scharff-Seidl: *Festschrift für Leopold Wenger* Band V. München 1944.
Grdseloff—*Ann. Serv.* XLII, 25 Deux Inscriptions juridiques de L'ancien Empire.

Pirenne Van de Walle — *Doc. & Jur. Eg.* 1931.

2. See Breasted: *Records I*, P. 83 91, 99, 106, etc.

Selim Hassan: *Excavations at Giza*.

3. See Breasted: *Records I*, 535.

4. See *The Legacy of Egypt*, Chapter on Law P. 198.

5. Griffith: *Petrie Papyri from Kahun and Gurob*.

Griffith: *Law Quarterly Review* Vol. 14 (1898) p. 43.

6. Pirenne-van de Walle *Doc. Jurid.*, 10.

The number of the properly called legal documents surviving from the New Empire is comparatively greater than the two preceding periods. In studying the "Four Papyri of the 18th Dynasty from Kahun", Gardiner remarked that "the New Egyptian idiom has not yet penetrated to any great extent into the legal documents of this date. In general there may be said to be little difference between the style of our documents and those of the end of the 12th Dynasty from Kahun".¹

In them, Seidl has recognised a development of a new kind of document; the document drawn up by a scribe and attested by witnesses, which continued to be the principal type throughout the succeeding periods. It differs from the *imyt pr* in that it was not sealed but took a formal shape. It begins with the date and ends with the signature of the scribe — with whom we do not meet, in the *imyt pr* — and consequently did not require to be sealed.²

Gardiner has recently brought to light a very interesting document relating to adoption and inheritance³. A certain childless stable-master wanted to ensure that his entire property should pass to his wife. But he saw that a claim on the part of one of his brothers and sisters might seek to deprive the childless wife of some part of his estate. Therefore, he adopted his wife as his daughter. "The employment of this particular legal fiction" commented Gardiner "shows how deeply the thought of inheritance in direct line was implanted in Egyptian mind."⁴

The procedure of adoption consisted simply in making a verbal declaration in front of witnesses. The document begins with the date and ends with the names of witnesses among whom was a sister of the testator.

Cerny has recently published the will of Naunakhte and thus added a new evidence to the stock of documents relating to testaments⁵. This will, as it has been remarked, follows the style of all Egyptian legal documents. Like them, it begins with a verbal declaration made by the

1. Gardiner: A. Z. 43 P. 45.

2. *Legacy of Egypt*. P. 198 ff.

3. See J. E. A. 26 P. 23 f. *Adoption Extraordinary*.

4. Cf. Chafik Chehata: *Le testament dans l'Egypte Pharaonique* in *Revue Historique de Droit Français et Etranger* 1934 No. 1. 15 ff.

5. See J. E. A. 31, 29 f.

testator before the court (or witnesses) and it was drawn up by a professional scribe. This fact led Cerny to the conclusion that "it was not the written word alone, but the spoken word subsequently recorded as an actual event on a papyrus or ostrakon that conferred upon the document its legal validity".¹

To Cerny² and Gardiner³ we owe also the publication of a series of documents coming from Deir-el-Medinah. To show, in a general way, to what extent the study of the legal documents of this period is due to these scholars, Malinine⁴ has noted that out of 49 texts forming our documentation, properly called legal, from the New Empire, the Ostraca have furnished 25 deeds. He has also given some general observations on the character of the whole collection of these documents. He came to the conclusion that they are probably either "actes d'audience" delivered during a legal procedure which might be used as a draft to facilitate the final report of the corresponding authentic deeds recorded on papyrus; or of simple extracts from these deeds, delivered to the interested parties. The drawing up of these documents is always very concise; the task of the scribe being evidently to put down the essentials and leave out the details. It is thus that the developed formulary consecrated by usage which the scribes possessed for drawing up authentic deeds figures in it, in a very abridged form to such a degree that the principal terms characterising a given verdict to which the document refers, are sometimes entirely lacking. The laconism of the expression is so excessive that the text becomes a sort of personal 'aide-memoire' remains incomprehensible to every one except the writer.⁵

To Seidl,⁶ we owe a recent study devoted to the history of the legal institutions of the Ancient Egyptians during a period of two thousand years, from the Old Kingdom to the period which immediately precedes the Ethiopian Conquest.

1. *Ibid.*, P. 42 and not 5.

2. Cerny: *Ostraca Hieratiques*. Cat. Gen. Mus. du Caire.

3. Gardiner: *Hier. Pap. aus dem. Kgl. Mus. zu Berlin* Bd. III.

4. Notes juridiques (a propos de L'ouvrage de E. Seidl) in *Bulletin IFAO*, XLVI, P. 93. f.

5. *Ibid.* P. 95—96.

6. Einführung in die Agyptische Rechtsgeschichte bis zum Ende des Neuen Reiches, I Juristischer Teil (*Agyptologische Forschungen*, Heft 10, 1939).

Malinine¹ in his article devoted to reviewing Seidl's book, has remarked that we know indeed that the first written contracts in 'abnormal Hieratic' and in Demotic appeared respectively towards the end of the 25th and the beginning of the 26th Dynasties. These are private documents of a nature hitherto unknown; marking a new epoch for the history of Egyptian law. The law of this period intermediary between that of ancient and Ptolemaic periods should be the subject of a special study. Unfortunately, this study has not yet been realised, since a great part of the documents referring to it still remain unpublished.²

Revillout was the first to make a profound study of the contracts of the Saitic and Persian periods which constituted the Egyptian 'Law of Contract' and which continued in the Ptolemaic period. Here, this great Savant and pioneer, gives us the impression of a very advanced and highly developed Law, which sufficiently met with all the needs of Daily Life.³

In the Ptolemaic period, the Greeks were subject to their own statutes (πολιτικοὶ νόμοι). At the same time the Egyptian Law (Ο ΤΗΣ ΧΩΡΑΣ ΝΟΜΟΣ) prevailed for the Egyptians. It was then obvious that a conflict between the two legal systems arose especially when it was a question of transactions between Greeks and Egyptians. This was settled by a decree of Euergetes II (118 B. C.) which provided that the language of the deed should determine the governing law.⁴ Thus if the parties draw up a contract in Demotic, Egyptian Law is applied, otherwise Greek Law is applied.⁵

1. Ibid. P. 93—123.

2. Ibid. P. 93.

3. In this field he produced his monumental works; See particularly: *Precis du Droit Egyptien* 2 vols. 1561 pp. Paris 1903; *Notice des Papyrus demotiques archaïques etc* Paris 1896.

4. Taubenschlag: *The Law of Greco-Roman Egypt in the light of the Papyri* New York 1944.

5. In Berlin 3105 reference is made to a document written in (sh rm n kme) i. e. Demotic; and to another written in (sh wynn) i. e. Greek.



Fig. 1 — Femmes au voile, Relief au Musée de Trieste



Fig. 4 — Statuette scytho - bactrienne, Eremitage, Petersbourg



Fig. 3 — Dansense, Detail d'un sarcophage, Musée de Naples



Fig. 5 — Dalle de pavage, provenant du Cachemire, Musée Guimet



Fig. 2 — Torana East da Stoupa de Sanchi, India

THE SIGNIFICANCE OF ABELARD'S "DIALOGUE BETWEEN A PHILOSOPHER, A JEW AND A CHRISTIAN".

By

ABDEL HAMID HANDY MAHMOUD

(PH. D.)

St. Bernard's orthodox influence brought upon Abelard the condemnation of the authorities. "He undermines the whole Christian faith", wrote St. Bernard in the report of the Council of Sens, "by attempting to comprehend the nature of God through human reason"⁽¹⁾. So Abelard was condemned in 1141 by the Council of Sens, and this judgment was confirmed by the Roman Curia. Then he retired to Cluny where he wrote his dialogue² under the protection of his friend Peter the Venerable, the Abbot of Cluny.

The idea of this dialogue had a special significance for Abelard. He tried to find a defence for his whole attitude which would give it the safe character of orthodoxy. He knew from his reading of the Church Fathers that the ancient Church possessed an apologetic literature which proved the case of Christianity as true philosophy in contrast to the religious practice of both Judaism and Islam which were said to be based on tradition and divine Order.

Abelard takes the Jew in this dialogue as his antagonist because he represents the non-Christian community tolerated in his surroundings. He adds the figure of a Moslem philosopher as antagonist to the Jew and the Christian, while Abelard himself plays the part of umpire.

The philosopher asks both the Jew and the Christian whether they have come to believe in their faiths through reasoning or merely through following the traditional beliefs of their own folk and the sentimental ties that attach them to their ancestors.³

1. See Draper, "Intellectual Development of Europe," Vol. II, London 1884, p. 11.

2. Abaelardi, P. "Dialogus inter philosophum, Judaeum et Christianum," in Migne, *Patrologia Latina*, vol. CLXXVIII, Paris 1885, 1611—1682.

3. Migne, *op. cit.*, 1614 C.

In answering this question, the Jew is made to say that the Old Testament had been given to them by God, and that every generation had equally instructed its posterity to observe the rules of this Testament as much in word as in example. He admits that though the spreading of the faith does not furnish any proof to convince the incredulous, nevertheless, nobody could reasonably provide any refutation of this Testament in which they believe. "It is certainly righteous", says the Jew, "to feel its consistency to all reason and conceive its appropriateness to divine goodness and to the salvation of mankind¹."

The Christian on the other hand, in answer to the same question, displays his keen interest in the rational investigation of the faith. He is proud that one can prove the legality of these investigations from the Scriptures of the Church. He remembers that sometimes faith has to be built up with reason, or has to be defended against those who deny that it should be investigated through rational channels. That the defence of faith has sometimes to be conducted by reason, as he asserts, can also be proved from Biblical authorities².

The whole development of thought in this dialogue leaves the reader with the impression that the way of representing the faith in philosophical terms is an old established method in the defence of the Church. Abelard has withdrawn himself to the position of the umpire who almost keeps silent. The reader is left to draw his own conclusions for the topical question of Abelard's philosophy.

We may add that Peter the Venerable, a year after this dialogue was written, embarks on the refutation of the Koran, with the belief that Christianity has been built on reason, and that Islam can not be a true faith as it has no foundation of reason which is the only way to attain truth. This obvious connection makes one inclined to believe that Peter the Venerable, in his treatise against Islam³, was inspired and influenced by Abelard's idea put in his dialogue.

1. Ibid., 1617 A.

2. Ibid., 1641 C.

3. By this treatise, Peter intended to equip Christians with a reply to the so called "Moslem heresy", and at the same time to attempt to convert Saracens by the power of reason and not by force of arms. See "Contra Sectam Saracenorum, Migne, P. L., CXXXIX, 673 B/c.

LA FEMME AU VOILE DANS L'ICONOGRAPHIE COPTE

By

HILDE ZALOSCHER

Parmi les sujets qu'on retrouve dans l'art copte, il y en a un surtout qui nous frappe par son étrangeté. Bien que nous ayons déjà par ailleurs examiné sa genèse et sa signification ¹, ce sujet nous paraît cependant assez important pour justifier une nouvelle analyse qui essaiera de saisir d'un peu plus près sa signification, à première vue si obscure et si énigmatique.

Le relief du Musée de Trieste (fig. 1), qui provient probablement d'Ahnas, représente deux femmes nues debout. Elles portent de lourds bijoux : grosses boucles d'oreilles, un épais anneau autour du cou, enrichi d'un grand médaillon ; leurs jambes sont croisées et, de leurs bras levés elles tiennent, au dessus de la tête, un bandeau plat, large au milieu et se rétrécissant vers les deux extrémités. Ces bandeaux sont traités d'une manière si sommaire qu'il est difficile de saisir leur signification. Or, ce motif revient avec insistance dans l'art figuratif copte. Nous le retrouvons presque tel quel sur des autres reliefs : même profusion de bijoux, même attitude : jambes croisées et bras levés ; pourtant on reconnaît ici facilement que le bandeau plat du monument précédent est en réalité une écharpe finement plissée. Ce même sujet orne les niches sculptées sans que toutefois il soit limité à la sculpture, le motif de la femme au voile est très fréquent dans les tissus ou en bronze ².

On peut se demander à bon droit ce que signifie ce motif et pour quelle raison il est traité avec tant d'insistance dans l'art chrétien de l'Égypte. S'agit-il d'un motif purement décoratif, d'une pose accidentelle ou bien d'un sujet iconographique déterminé ? — Remarquons tout de suite que la pose : bras levés, jambes croisées et débanchement bien marqué, ainsi que les bijoux, mais surtout le modelé mou de ces corps désossés apparentent notre femme au voile à la Yakschini de l'iconographie hindoue (fig. 2). (A ceci près que le voile est remplacé par des branches). Une double question se pose à propos de ce motif de l'art

1. Hilde Zaloscher, *Quelques considérations sur les rapports entre l'art copte et les Indes*, Le Caire, 1947.

2. Strzykowski, *Koptische Kunst*, Catalogue général du Musée du Caire, Vienne, 1904, pl. XXXI.

copte, celle de ses sources et celle de sa signification. S'agit-il d'une influence venue des Indes que des liens étroits, aussi bien culturels que commerciaux, unissaient depuis longtemps à l'Égypte ? Si oui, le problème des influences, si chère aux historiens d'hier, est à reprendre à sa base. Une influence présuppose, de la part de celui qui la subit, une attitude spirituelle déterminée et un choix libre, en d'autres termes, une prédisposition, dont l'origine doit être examinée à part. — Pour en revenir au motif de la femme au voile, constatons d'abord qu'il est connu de l'art classique de la Grèce et de l'art hellénistique. Il aurait donc été facile à l'artisan copte de s'inspirer des modèles qui existaient sur place. Pourtant, fait étrange, si le geste en lui-même : bras levés avec le voile déployé est identique à celui qu'on retrouve dans les monuments hellènes, le personnage qui le porte en est sensiblement différent. Tout d'abord, dans les monuments classiques, la femme est généralement habillée (fig. 3). d'autre part, elle ne porte pas de bijoux et surtout l'attitude — les jambes croisées et le déhanchement si caractéristique des femmes coptes — n'est pas la même. Sur les monuments classiques la femme au voile exécute en général un simple pas de danse. Un autre fait important : dans l'art classique le voile est porté par différents personnages identifiables. Ainsi sur un sarcophage hellénistique du Musée de Naples il est porté par Venus ¹, Europe aussi le porte, de même que Hélé ², et même des personnages mâles sont affublés de cet attribut étrange, comme, par exemple, Pluton ³ ou encore Ganymède sur le beau mosaïque du Vatican. — En dehors de l'art classique, la femme au voile figure dans l'art hindou, où elle est — nous l'avons déjà dit — traitée d'une manière qui la rapproche étroitement de son double des monuments coptes. Ce sont les mêmes femmes opulentes, couvertes de bijoux. Elles sont nues comme les femmes des monuments coptes, leurs jambes sont croisées dans le même déhanchement lascif. En résumé, on peut dire que si le thème étrange de la femme au voile se rencontre dans l'art classique de la Grèce, ce n'est qu'aux Indes cependant que nous trouvons le modèle, identique dans tous ses détails aux figures de l'art copte.

Si nous avons pu jusqu'à un certain point circonscrire les aires où le motif de la femme au voile est répandu, ceci ne nous a aidé à saisir la signification du motif ni à en identifier le personnage. Dans la littérature il est désigné généralement, sous le nom de danseuse. Monneret de Villard, par contre, y voit une néréide ⁴, probablement parce que la

1. Sur un sarcophage dans la Galeria Borghese, Rome.

2. Roscher, *Denkmäler des klassischen Altertums*, vol. I, p. 420.

3. Roscher, *l. c.*

4. Monneret de Villard, *La scultura ad Ahnūs*, Milano, 1923.

femme est très souvent accompagnée d'un dauphin. C'est d'ailleurs grâce à cet accessoire que nous pourrions identifier le personnage même. En effet, le dauphin apparaît souvent comme compagnon de la femme au voile, ainsi que le prouvent les reliefs des fig. 1 et 2 ou encore le bronze du Musée Copte du Caire ¹.

Quelle est la signification du dauphin? — Comme élément décoratif il remonte à une très haute antiquité et on le rencontre déjà dans l'art crétois. C'est un motif iconographique très fréquent et très complexe de l'époque classique. Il figure avant tout dans le cortège de Poséidon et de Vénus, de même que dans le mythe de Dionysos et ses dérivés. Il forme donc le noyau même du mythe de Leucothée. Ce mythe corinthien rapporte que le roi Athanas, obligé de sacrifier ses enfants, perd de douceur la raison et persécute dans sa démence leur mère Leucothée. Pour échapper à sa fureur, elle se précipite du haut d'un rocher dans la mer. Elle est transformée en dauphin et devient à la suite une divinité maritime bienveillante. D'autre part, Leucothée est, d'après Homère, la soeur de Sémélé, elle-même mère de Dionysos et de la bacchante Agavé, ce qui l'identifie à Ino, bacchante elle aussi. C'est elle d'ailleurs qui élèvera l'enfant Dionysos. Mais Leucothée possède une voile magique, le *krydemnon* qui joue un rôle important dans les aventures d'Ulysse. Après son naufrage, Leucothée lui apparaît et lui conseille de se réfugier chez les Phéaciens. Elle lui donne son voile qui l'y conduira, à condition qu'une fois atteint le rivage, Ulysse suive ses conseils et lui rejette le voile que, "la déesse saisit de ses deux mains". Nous reconnaissons aisément dans cette description le motif de la femme au voile tel que nous l'avons rencontré dans les monuments plastiques. Ainsi la femme au voile sort de son anonymité et nous reconnaissons en elle Leucothée avec son *krydemnon* magique. — D'après un autre mythe, d'origine laconienne cette fois-ci, Leucothée, après la mort de Sémélé, cache le dieu-enfant dans la grotte Brasai, où elle l'élève à l'insu de la jalouse Héra. Les deux mythes, on le voit, montrent Leucothée sous des aspects fort différents. Les arts plastiques eux aussi se sont emparés de ce personnage pour le présenter sous des formes différentes. Dans l'art copte, la femme apparaît sans autre indication précise, accompagnée simplement de son dauphin et déployant son voile. S'agit-il d'une omission, d'une simplification, qui élimine tout élément accessoire pour ne retenir que l'essentiel? Nous aurons à revenir là-dessus. De toute façon il nous semble

1. Nous aimerions mentionner une intéressante adaptation de la femme au voile pour les besoins de l'iconographie chrétienne, dans le bronze (Strzykowski, *Koptische Kunst*, I c. Fig. 91001), où la femme nue, les jambes croisées, porte dans ses mains levées le symbole de la croix, tandis que deux dauphins se tiennent à ses côtés.

que le mythe de Leucothée tel qu'il se présente dans la mythologie classique n'est point une création originale, mais que des éléments appartenant probablement à des mythes différents ont fusionné en se groupant autour d'un thème nouveau. Ces divers éléments ont ensuite assumé de nouvelles significations, conformément à la loi de la formation et de la transformation du mythe. Certains éléments restent inchangés et c'est en eux que nous pouvons reconnaître les symboles les plus significatifs du mythe original. Enrichis de nouvelles interprétations et de „rationalisations” ils figurent finalement comme pièce détachées, difficiles à comprendre car hautement surdéterminés.

Dans le mythe de Leucothée c'est l'élément dauphin qui à côté de l'élément voile semble jouer un rôle important. Que le dauphin ait été — comme le penseraient les partisans de l'explication totémiste — originellement la divinité même pour ne devenir que plus tard l'attribut de la divinité anthropomorphisée, n'a pour nous aucun intérêt, car ce processus remonte à une époque beaucoup trop lointaine ; le rôle qu'il joue dans le mythe de Leucothée à l'époque classique et chrétienne se joue sur un tout autre plan. Sa présence s'explique en apparence par les rapports du mythe avec la mer : le saut de Leucothée du haut du rocher et le sauvetage d'Ulysse. Au même titre le dauphin fait partie du cortège d'Aphrodite et de Poseidon. Mais aussi de celui de Dionysos. Rappelons que Dionysos, persécuté par les pirates étrusques, transforme ces derniers en dauphins. C'est probablement pour cette raison que nous trouvons parfois les vêtements de Dionysos ornés de dauphins¹. Mais il nous semble que cet animal marin qui joue si souvent le rôle d'un sauveur — rappelons-nous qu'il sauve le prophète Elie dans les récits bibliques, Arion — dans la mythologie grecque, que dans l'iconographie hindoue, il accompagne les Açwins — il nous semble que le dauphin possède une valeur symbolique beaucoup plus profonde. Mais revenons à Leucothée. Elle est, comme le dauphin, une divinité protectrice, elle sauve la vie à Dionysos comme elle le fait d'ailleurs pour Ulysse. Elle les fait en quelque sorte renaître une seconde fois. Le mythe comporte en plus un autre élément non négligeable, celui de la démence. Dans le mythe corinthien c'est l'époux dément qui précipite Leucothée à la mer, tandis que dans une autre variante du mythe, c'est elle-même qui, dans un accès de folie, se lance dans les flots.

1. Marthe Oulié, *Les animaux dans la peinture de la Crète préhistorique*, Alcan, Paris, fig. 5, 56, 59.

De tous ces éléments que nous venons d'énumérer, nous aimerions poursuivre en premier lieu l'étude de celui qui rattache Leucothée à Dionysos. Nous savons déjà que c'est elle qui, à la place de la mère, élève l'enfant-dieu. Mais il y a plus : dans un conte ancien, Athanas, cherchant son épouse trouve la fuyarde parmi les bacchantes, courant et dansant avec elles dans les forêts au milieu du cortège de Dionysos. De même, Euripide parle de la frénétique bacchante Ino — alias Leucothée. Nous comprenons maintenant pourquoi le voile est porté d'une part, par les néréides, d'autre part, par les bacchantes ou les danseuses : Leucothée est elle-même ce lien qui unit les deux mondes : le monde marin et le monde extatique, puisque de nourrice de Dionysos elle devient sa prêtresse. Le motif de la démence et de la persécution n'est qu'une mutation ultérieure, une rationalisation en quelque sorte, mais il rappelle la frénésie homicide qui emporte les bacchantes. (Et ceci peut servir d'exemple de la variation des motifs qui supportés par une émotivité caractérisée, reapparaissent sous des formes similaires dans le nouveau mythe).

Ainsi Leucothée, notre femme au voile, est une danseuse du culte de Dionysos. Or, la danse dionysiaque ou orgiaque, partie essentielle du culte du dieu a été étudiée, quant à son origine et sa structure, tout dernièrement par Louis Séchan¹. L'auteur l'oppose de façon catégorique aux emméliés et aux danses gymniques, en soulignant le caractère étrange de la dans orgiaque. Il conclut qu'il s'agit là d'un apport global venu de loin, probablement de la Thrace, à la suite des invasions, ou même de plus loin encore. Séchan décrit les différents poses de la danse orgiaque. Ses mouvements caractéristiques — tous exécutés dans une sorte de fureur — sont la cambrure du corps et le *kalabis*, qui consiste en un mouvement immodéré des hanches, accentué par l'impulsion des mains. Pourtant, ce qui nous intéresse le plus dans sa description, c'est le fait que toutes les danses orgiaques étaient des danses voilées. "Pendant la cambrure les bras de la danseuse sont écartés sur les deux côtés, élevés au-dessus de la tête et elle déploie son écharpe qu'elle tient des deux mains". Voilà donc une fois de plus notre femme au voile : elle est une des prêtresses des mystères de Dionysos exécutant la danse du culte. Séchan souligne le caractère barbare des danses voilées qui les distingue des autres danses classiques. Or, cela n'a rien d'étonnant. Aujourd'hui que l'origine asiatique de Dionysos, se dernier venu de l'Olympe, est définitivement établie, il nous paraît probable qu'il ait, dans sa migration,

1. Louis Séchan, *La danse grecque classique*.

apporté avec lui, son culte et le personnel de celui-ci. Séchan pense, il est vrai, à l'origine thracienne du dieu, mais il paraît plus vraisemblable que la Thrace ne soit qu'une étape de son voyage, et que le véritable lieu d'origine se trouve plus loin, aux Indes. C'est là d'ailleurs que Siwa lui-même, divin danseur, danse sa danse cosmique par laquelle il crée et détruit le monde. La danse, loin d'être un simple divertissement, est une cérémonie religieuse; un spectacle qui recrée en s'y identifiant, les mystères de la vie cosmique. Or, cette danse mystique est-elle si loin de la danse des mystères dionisiaques? D'après Euripide les bachantes déchaînées, qui se livrent aux délires sacrés de l'amour, peuvent également, dans cette même extase qui trouble leurs sens déchirer leurs compagnes. Ainsi la danse des Indes, créatrice et destructrice à la fois, se pratique à la lettre — dans le culte de Dionysos. Tout en perdant quelque peu son caractère sacré, la bacchanale garde l'essentiel et n'est qu'une adaptation de la danse mystique et rituelle hindoue. Il ne faut pas oublier que c'est pour les mêmes raisons que des danseuses étaient attachées aux Indes au service du temple, usage qui s'y est maintenu jusqu'au XIII^{ème} siècle de notre ère. Le rite d'initiation de la danseuse du temple comprenait un cérémonial étrange¹. Le jour prévu, la famille de la jeune fille se rassemble et un des représentants de celle-ci lui offre une écharpe d'or — le tali — et le lui noue autour du front. Ce n'est qu'ainsi voilée qu'elle est remise au prêtre. Le service de ces danseuses consistait à chanter des hymnes et à danser devant la divinité, elles étaient cependant en même temps des prostituées sacrées. Le mariage divin était consommé devant l'idole et avait pour but d'assurer, par ce procédé magique, la fertilité et la prospérité de la communauté. La danse, malgré la "hiératisation" de ses gestes, n'était en réalité que le simulacre de l'accouplement.

Il reste à savoir ce que signifiait le voile dans ces rites hindous aussi bien que grecs. Était-il un simple accessoire de la toilette féminine ou bien possédait-il une signification symbolique? Salomon Reinach² pressent avec une intuition pénétrante, que le voile possède dans les rites religieux une valeur particulière. Il rassemble sur ce sujet une riche documentation sans toutefois arriver à une solution satisfaisante. Bien avant lui, Plutarque s'était déjà demandé pourquoi se voilait-on la tête quand on s'approchait des dieux, ce qui semble indiquer que tout en étant encore en usage, le voile avait déjà perdu à son époque sa signification.

1. J. G. Frazer, *Adonis, a study of oriental religion*.

2. Salomon Reinach, *Cultes, Mythes et Religion*, Paris, 1903, p. 301 sq.

Il nous semble que l'on pourrait reconnaître la véritable signification du voile en poussant un peu plus loin l'analyse des personnages qui le portent et des circonstances dans lesquelles il apparaît. Plutarque mentionne que l'obligation de se voiler était de rigueur dans les rites orphiques des Pythagoriciens. (Notons en passant que des liens étroits unissaient Pythagore et sa doctrine à la philosophie hindoue.) Reinach nous parle d'un beau vase où est représentée une scène d'initiation aux mystères de Démètre. L'initié y a la tête voilée. Dans les mystères d'Eleusis, l'initié doit passer de l'obscurité pour accéder à la lumière : ce passage est symbolisé par le voile avec lequel on lui bande les yeux. Le rite du voilage est passé dans le rite baptismal du christianisme primitif. A Jérusalem, le candidat au baptême était exorcisé la tête voilée. Le voile apparaît ensuite au moment de la mort, ou en rapport avec elle. Nous avons déjà mentionné que sur certains monuments, Pluton, dieu de la mort, porte un voile. A Rome, les vestales coupables sont ensévelies voilées, de même que les condamnés à mort sont exécutés "capite velato" (On peut se demander si l'usage actuel de bander les yeux au condamné n'est pas une survivance „rationalisée" de cet ancien rite) Se voiler soi-même la tête au moment de la mort est une habitude que l'on trouve chez les Romains aussi bien que chez les Grecs. Platon rapporte que Socrate se voila la tête après avoir bu la ciguë. Nous pourrions prolonger cette liste. Ajoutons seulement qu'il existe encore une autre occasion où le voile joue un rôle symbolique. C'est le mariage. Le voile figure dans le cérémonial nuptial chez les Anciens, dans le rituel juif, dans l'église arménienne et dans la cérémonie chrétienne. Sa valeur symbolique ressort en outre, dans "la prise du voile", qui est en quelque sorte l'acte essentiel de la consécration virginal en Occident comme aux Indes. Suivant le rite copte et le rite juif, les deux mariés sont recouverts d'un voile pendant la cérémonie nuptiale. — Le voile remonte donc à un passé lointain; il existe encore dans toute la richesse et toute la complexité de sa signification dans le polythéisme grec, mais il semble y avoir perdu un peu de son évidence, puisque Plutarque se perd en conjectures quant à son symbolisme. De même, on le retrouve aux Indes avec la même importance qu'en Occident.

Notre certitude que le voile est un objet de culte, possédant une valeur symbolique, sinon une force magique, augmente du fait que tout en changeant de propriétaire il se limite dans l'usage à certaines cérémonies bien définies. Mais quelle est sa signification? Pourrions nous jamais la définir d'une façon nette? ou bien le voile ne serait-il qu'un de ses symboles riches et confus, chargés d'associations multiples mais inconscientes, et surdéterminés, comme le rêve, par des élaborations ultérieures? Un fait pourtant est clair. Tout en changeant de propriétaire,

le voile participe, avec toute la force de symbole, aux moments cruciaux de la vie, à des moments de transition où un être passe d'un état dans un autre, où, pour parler le langage des Anciens, il se trouve au seuil d'une nouvelle vie. Son usage est essentiel dans les rites orphiques, rites d'initiation où le myste est sauvé, renaît, purifié, à une nouvelle vie. Nous l'avons vu porté par Pluton, dieu de la mort, et les mourants eux-mêmes; il figure finalement dans les rites nuptiaux. Aux Indes, il est en plus porté par les femmes au moment de l'accouchement. Le rôle du voile est donc en quelque sorte de recouvrir et de "dévoiler" le mystère.

Ainsi les fils que nous avons poursuivi un à un se rejoignent ; nous avons finalement identifié la femme au voile et examiné la signification rattachée à son voile. Nous avons reconnu dans ce motif, étranger dans l'iconographie copte, un sujet qui remonte à une époque beaucoup plus reculée. Reste à savoir pourquoi ce sujet revient dans l'art copte avec une telle insistance et où l'artiste copte a-t-il puisé son inspiration. Il paraît à première vue que l'hypothèse la plus simple serait celle de la continuation de la tradition classique. Pourtant le style aussi bien que certains éléments importants dans la conception du sujet diffèrent sensiblement de ceux des monuments classiques. Par contre, la parenté avec les monuments de provenance indoue paraît beaucoup plus accentuée. L'hypothèse de l'influence hindoue se trouve confirmée par un certain nombre de monuments qui jalonnent la route que ce motif avait dû emprunter dans sa migration vers l'Occident. La fig. 4 représente une statuette scytho-bactrienne qui montre une ressemblance étonnante avec notre femme au voile. Les bijoux, l'attitude qui rend d'une façon maladroite les jambes croisées, le déhanchement et surtout les bras levés qui tiennent, en guise de voile, une sorte de corde tressée, — le même motif y est intégralement reproduit. Un autre monument que nous avons trouvé parmi les objets provenant de l'expédition Kahk au Cachemire (fig. 5) actuellement au Musée Guimet, représente une danseuse — habillée celle-ci, probablement sous l'influence hellénistique — qui déploie comme les autres un voile. Ainsi c'est aux Indes que l'art copte aurait emprunté le sujet de la femme au voile ? Cela paraît probable. Déjà Berstl¹ dans une étude sur ce que l'auteur appelle l'"art indocopte" avait montré qu'à l'époque copte les éléments hindous viennent enrichir l'iconographie de l'Égypte chrétienne. Nous avons poussé un peu plus loin ces recherches et nous avons trouvé qu'il ne s'agissait point là de simples influences, mais d'une parenté, d'un retour à un fond commun protohistorique qui fait renaître des

1. Hans Berstl, *Indo-Ägyptische Kunst*, in *Jahrbuch für asiatische Kunst*, 1924, p. 163, sc.

anciens mythes communs. L'influence hindoue arrive à un moment historique opportun et agit en quelque sorte en catalyseur. Nous touchons par là à un des problèmes essentiels de la genèse de l'art copte. Le cataclysme qui bouleverse le monde méditerranéen au début de notre ère, les Grandes Migrations qui s'en suivent, favorisent dans l'art copte l'apparition d'un phénomène inattendu dans l'évolution de l'art, mais dont il faut cependant tenir compte si on veut comprendre l'art du début de notre ère. Il s'avère que l'histoire n'est pas — comme l'a dit Focillon, avec tant de justesse — “une simple succession dans le temps, mais plutôt comme un empilage de couches géologiques dont certaines failles font apparaître la simultanéité dans la durée”. Il y a des regressions historiques comme il y a, à leur suite, des rechutes psychique dans la mentalité des sociétés : sous l'influence d'un bouleversement politique et social, une couche ancienne est susceptible d'être ramenée à la surface. C'est ce qui semble s'être produit dans l'art copte. En effet, avec celui-ci nous assistons pour la première fois à la manifestation artistique du peuple égyptien lui-même. Libéré de l'emprise des classes dominantes du pays, autochtones ou étrangères, c'est le peuple qui pour la première fois s'exprime dans ses oeuvres rudes mais si expressives¹. Nous assistons à une renaissance qui fait apparaître avec une violence inattendue, d'anciens souvenirs et des dépôts asiatiques communs qui s'étaient conservés chez ces peuples dans un état protohistorique et il s'avère que des mythes et des symboles primitifs vivent encore à l'état latent dans les régions profondes de la conscience collective. La résurrection du motif de la femme au voile montre bien que — malgré les transformations que le mythe a subies au cours de ses „rationalisations” successives dans le monde grec — le peuple égyptien a su lui redonner assez de vie et de vigueur (comme d'ailleurs pour un autre sujet : Leda — la femme à l'oiseau) — pour qu'il fût susceptible de recueillir le moment venu, des éléments provenant d'un autre foyer culturel que celui de la civilisation classique.

Sous le double choc des Invasions et de la chute de l'Empire suivi d'une refonte spirituelle due au Christianisme, une reprise de contact a eu lieu. Une double reprise, aimerions nous préciser. Car en prenant contact avec la culture hindoue, à laquelle elle était unie par des liens très anciens, l'Egypte chrétienne reprend contact avec son propre passé.

1. Hilde Zaloszy, *L'immanence le l'art copte*, in *Valcurs*, N. III, p. 59 sq.

ولا يستطيع الباحث أن يرجع كفة أحد الطرفين على الآخر ، فكل من والى مصر اسماعيل وشريف مكة قد بذل ماع متواصلة لاوصول الى هذه النتيجة .

كما تبودلت الهانى بين والى مصر اسماعيل وبين محمد بن عائض أمير عير في ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٢ (يناير سنة ١٨٦٦) ، وأوقد والى مصر من قبله الى أمير عير من يدعى احمد افندى التمى ليبلغه تهانيه وييسط له تفاصيل السياسة المشتركة بينهما في مستقبل (١) . ولم تشر الوثائق الى كنه تلك السياسة التى اعترزم والى مصر تنفيذها بالاشتراك مع أمير عير . كما أنى لم أعثر على وثائق لتلك الفترة تنير الى الطريق وتوضح السياسة العربية التى انتوت مصر السير عليها في المستقبل . ولكن الأحداث التاريخية التى مرت بمصر في السنوات القلائى التى تلت ثورة عير تبين لنا أن والى مصر لم يولى السياسة العربية الخالصة اهتماما كبيرا ، حتى لا يصطدم بالباب العالى وبالدول الأوربية كما حدث أيام محمد على . بل ان سياسة مصر في ذلك الوقت قد اتخذت وجهة افريقية ، ولو ان توسع مصر على الساحل الغربى للبحر الأحمر قد أدخل في حوزتها مراكز عربية تجارية هامة مثل هرر وسواكن ومصوع وغيرها .

واذا كانت سياسة مصر العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر قد وجدت معارضة من قبل الحكومة الانجليزية ، فان سياسة مصر الافريقية ايضا لم تقابل من انجلترا بعين الارتياح . وظلت تلك الدولة تتحين الفرص للقضاء على امبراطورية مصر الافريقية ، كما قضت على امبراطوريتها العربية من قبل . وقد واتها الفرصة في عام ١٨٨٢ حيث تمكنت من احتلال مصر ، ثم ارغامها على الانحاب من السودان بعد ذلك بسنوات قلائى .

(١) دفتر ٢٢ عابدين (بند متفرقات) من اسماعيل باشا الى محمد باشا ابن عائض أمير عير . وثيقه بدون رقم نس ٩٣ في ٢٨ شعبان سنة ١٢٨٢ (يناير سنة ١٨٦٦)

